تخطيط المدن في العمارة الإسلامية

فكر وفنون

عمرو إسماعيل محمد

الكتاب: تخطيط المدن في العمارة الإسلامية
الكاتب: عمرو إسماعيل محمَّد
الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

APA

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

محمَّد ، عمرو إسماعيل
تخطيط المدن في العمارة الإسلامية / عمرو إسماعيل محمَّد
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٣١٤ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٨ – ٩٨٨ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٩٧٠٧ / ٢٠١٩

تخطيط المدن في العمارة الإسلامية



إهداء

إلى أصحاب الرؤى والتخطيط

إلى المعلمين والمهندسين والصناع والحرفيين..

أهدي هذا الكتاب

مقدمة

الحضارة أسمى وأبقى ما للأمة من تراث وهوية ولقد كان العرب والمسلمون أصحاب إرث عظيم ومشاركة وإبداع منذ أقدم العصور، وكان للفتوحات الإسلامية أثر عميق وشاهد عبر العصور الذي امتدت فتوحه من الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، مستقرًا في بعض بلدانها، مارًّا أو مجاورًا بعضها الآخر وكان لهؤلاء علوم وفنون مختلفة، فأدخلوها فيه ومزجوا بين علومه وعلومهم. وهنا سطع نور الإسلام بما أقام من دولة وحضارة وللفنون وللصناعات من أثر؛ مما ساعد على وجود نهضة في مناحي الحياة وفي ربوع المعمورة، والدليل عليها الآثار الباقية أقوى دليل من الحضارة المروية أو المكتوبة أو المأخوذة بالفهم والاستنتاج وشاهدة على إبداعات وإسهامات الحضارة الإسلامية بما لها من مكانة بين الأمم. وإذا كان علماء تاريخ الحضارة يعتمدون في دراساتهم على مخلفات الأمم من التحف المنقولة من المتع والأدوات وما إليها، ليتعرفوا بها على أحوالها وعاداتها وما كانت عليه في حياتها ومعيشتها اليومية كصحائف ويقيسوا بها درجاتها من التقدم والتخلف أو من الأصالة والتقليد ومبلغ اتصال هذا كله بالقدرة على تجويد الصناعة وتنويع حاجات المعيشة وحسن الفطنة والذوق السليم والمهارة الفنية.

لقد سبق المسلمين كثير من الأمم التي أخذت بأسباب هذا السبق؛ حيث تكاتفت وتعاونت وأخذت أمورها على محمل الجد، فأعطاها الله

تعالى على قدر اجتهادها، حتى ولو كان مقصدها الدنيا فقط وهذا قانون إلهي لا يتغير ولا يتبدل؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (سورة هود الآية: ١٥). ولو أننا رجعنا بالذاكرة إلى تاريخنا الإسلامي الممتد عبر القرون وقارناه بعهدنا الحالي، لعلمنا الفرق الشاسع والبون الواسع بين العهدين وما نحن فيه الآن من تقصير، والتاريخ ينبئنا أن الحضارة الإسلامية علَمت الدنيا بأسرها في الوقت الذي أطبق فيه الظلامُ على العالم أجمعَ، خاصة أوروبا، فيما يعرف بالعصور المظلمة، لا ينكر أحد ذلك أو يجهله مِن هنا أو هنالك.

إن عمارة الأرض تأخذ صورًا شتى؛ فهي تشمل الزراعة والتجارة والصناعة والتخطيط (العمارة) واستخراج ما في باطنها من كنوز وثروات كذلك تشمل إعمال العقل في كلّ ما يفيد البشرية والإنسانية، فيحاول هذا الإنسانُ- بما أعطاه الله تعالى من عقل وعلم- أن يحوِّلَ الصحراء القاحلة إلى أرض خضراء ممتلئة بالزروع والثمار، كذلك عليه أن يسبح في الفضاء ليستكشف ما به من أسرار ويعرف ما يفيده ليفعله وما يضره ليتجنبه، كل ذلك في إطار من التواضع لله تعالى وعدم العُجْب والغرور بهذا العقل الذي قد يجرُّ صاحبه إلى الدمار والهلاك، ليس له وحده، ولكن للكون كله بما فيه؛ قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أو نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سورة يونس الآية: ٢٤.

إن امتلاك العمارة بشكل عام والعمارة الإسلامية بشكل خاص نظام له القدرة على التعايش بين الحضارات والاستمرار في تلبية متطلبات الحياة الاجتماعية والعمرانية لتحقيق إمكانية التعامل وتعزيز وإعادة هيكلة المفاهيم السابقة وتطويرها لكي تنسجم ومتطلبات المفاهيم المعمارية والتخطيطية.

بهذا المنظور التاريخي، يمكن متابعة التحولات العمرانية التي مرت بها المدينة الإسلامية منذ نشأتها حتى الآن.

للمدن أهمية كبيرة ومتميزة في مجرى التاريخ وتطور الحضارة الإنسانية، فاستقرار عدد كبير من الناس فيها ينمي بينهم علاقات خاصة ويؤدي إلى ظهور مؤسسات اجتماعية واقتصادية وإدارية لتنظيم الحياة فيها بما يحقق الأمن والطمأنينة وييسر النمو الاقتصادى والفكري والحضارى، وقد ظلت تلك المدن منذ نشأتها مركز ازدهار وإشعاع لنمو الحضارات الإنسانية ومبعث إبداع للعباقرة في أنحاء المعمورة.

وتعد مدن البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وبغداد والقاهرة وغيرها من أولى الأمصار الإسلامية وأهمها التي بناها المسلمون الأوائل لأنفسهم وهي غير تلك التي فتحوها من مدائن الروم والفرس وغيرها من المدن، فهذه المدن التي بدأت بداية بسيطة لا تتعدى كونها معسكرات لجند المسلمين الفاتحين، فلم تكن مدنًا عامرة في بداية تأسيسها، غير أن هذه المدن التي ارتبط تأسيسها بالفتح الإسلامي لهذه الأقاليم سرعان ما

أصبحت مدنًا كبرى خلال سنوات معدودة بفضل أسس ومعايير تخطيطها المنظم وإبداع المعماريين المسلمين في إدخال الهوية والعقيدة الإسلامية في بناء المدن الجديدة. كما راعى الأوائل منهم تزايد دورها السكنية وتعدد منشآتها ومرافقها العمرانية والدفاعية والاقتصادية وتوسع رقعتها حتى أصبحت نموذجًا لتخطيط وبناء المدن الإسلامية التي تلتها.

كما أننا في هذا الكتاب نتطرق إلى الأنماط العمرانية التي شهدتها عمارة المدن الإسلامية عبر العصور المختلفة، وقد بينا الأسس والمعايير وخصائص التخطيط وما أعقبها من التحولات العمرانية للمدينة الإسلامية بشكل عام دون التعمق في الظروف المحلية التي تأثرت بها كل مدينة على حدة، سواء ما نشأ منها كامتدادات للمدن التي كانت قائمة قبل الإسلام، أو ما نشأ منها بعد الإسلام كتجمعات بشرية أقامها الولاة والحكام كعواصم إدارية لهم أو مستوطنات عسكرية مثل: البصرة (١٤هـ/ ٦٣٥م) والكوفة (١٧هـ/ ٦٤١م) والفسطاط (٢١هـ/ ٦٤١م) والقيروان (٤٨هـ/٦٧٠م) وغيرها. ومع ذلك فهناك ملامح عمرانية مشتركة تتميز بها المدينة الإسلامية، أهمها وجود المسجد الجامع كمركز للنشاط الديني والسياسي وتنتهي إليه الأنشطة التجارية والإدارية، ومنها التركيب العمراني الذي يعكس التركيب الاجتماعي للسكان والذي يظهر في تقسيمات المدينة إلى أحياء وخطط أو حارات. كما أن هناك مسميات عامة للعناصر التخطيطية والمعمارية للمدينة الإسلامية التي استمدت وصفها من إسلامية المجتمع الذي يسكنها.

فمن المعروف أن معظم المدن التي أقيمت قبل الإسلام كانت في أودية الأنهار مثل النيل أو دجلة أو الفرات. وكان الطابع الغالب على المستوطنات البشرية الرئيسية قبل الإسلام هو الطابع اليوناني الروماني الذي يعتمد على التخطيط الشطرنجي المتساوي التقسيمات مع وجود الأجورا أو (الفورم) كمركز إداري وتجاري للمدينة، أما غير ذلك من المستوطنات، فلم تتعد أن تكون تجمعات سكنية أشبه بالقرى عنها بالمدن مع وجود فراغات من الأراضي الفضاء بين بعضها البعض.

ففي هذا الكتاب قمنا بعد دراسة وافية لما وقع تحت أيدينا من المراجع العلمية والدراسات البحثية لكافة جوانب نشأة المدن الإسلامية وكيفية تخطيطها وأثر العوامل البيئية والمناخ في تكوينها، وكيف تأثرت الحضارات الأخرى بالعمارة الإسلامية آخذين بفقهها، ففيها دليل للنهضة من إبداع وبراعة عظيمة.

المؤلف



نشأة العمارة

العمارة الإسلامية في ظهورها وانتشارها ظاهرة تسترعى الانتباه من حيث المعايير والاعتبارات الثقافية والحضارية.

فقد نشأت العمارة العربية الإسلامية وانتشرت رغم قصر الزمن الذي نشأت فيه إلا أنها نشأت من تفاعل ذكاء جماعة واحدة مع بيئة خاصة وحضرية استطاعت أن تستوطن مختلف البلدان التي عمرتها وفتحتها.

العمارة الإسلامية تعد من أهم فنون الحضارتين العربية والإسلامية، فعلى الرغم من تأثرها بباقي الحضارات التي سبقتها إلا أنها استطاعت أن تكون لنفسها طابعًا مميزًا عبر عن خصوصيتها، لارتباطها بالعقيدة الإسلامية السمحة، إذ شكلت بتراثها المتنوع منهاجًا قاد حضارات أخرى إلى مصافي التطور والازدهار.

مفهوم فن العمارة:

فن العمارة هو أحد الفنون الهندسية القديمة التي عَرَفَها الإنسان منذ هبوطه على الأرض ليسد حاجته لبناء مأوى له، ويعرف فن العمارة أيضا بأنه الفن الذي يهتم بتطبيق مجموعة من التصاميم الهندسية التي تعتمد على رسم الهيكل التخطيطي لبناء المباني والمعالم الحضارية الخاصة بمكان أو

بمدينة ما وعادة يهتم فن العمارة بعكس طبيعة الثقافة العامة والتراث السائد في المنطقة، وقد يحتوي على مجموعة من الرموز أو المنحوتات الفنية التي تظل من الشواهد على طبيعة فن العمارة في كل حقبة من الحقب الزمنية.

ويعتبر فن العمارة من أهم مظاهر الحضارة في أي دولة؛ فهو بمثابة مرآة تعكس آمال الشعوب وأمانيها وقدراتها العلمية وذوقها وفلسفتها، فلقد كانت العمارة دائمًا الصورة الصادقة لحضارة الإنسان وتطوره.

ولقد نشأت العمارة الإسلامية كحرفة بسيطة في البناء ثم تطورت حتى كونت مجموعة من الفنون المعمارية المختلفة واشتمل الفن المعماري الإسلامي على عدة أنواع، منها فن عمارة المساجد وهو أرقى فن معماري عند المسلمين وفن عمارة القصور وعمارة البيوت والمدارس، وقد برع المسلمون في فنون العمارة بكل أشكالها؛ حيث استفادوا من الحضارات السابقة ثم طوروها بما يتناسب وعقيدتهم ودينهم ليكونوا بعد ذلك نموذجًا إسلاميًّا خاصًّا بهم.

وكانت المساجد أول شيء بناه المسلمون من العمارة، فقد بنوا المساجد قبل أن يبنوا القصور أو القلاع أو المدارس. ومن هنا كان المسجد الدعامة الأولى لنشأة فن العمارة الإسلامية ولم تقتصر رسالة المسجد على الصلاة والعبادة فحسب، فمسجد الرسول ﷺ رغم بساطة

البناء، كان بمثابة مدرسة للعلم والتربية وبرلمان للأمة تعقد فيه الانتخابات (البيعة) للخليفة وتدار فيه الاجتماعات السياسية والعسكرية.

لكن ما هي مراحل تطور الفن المعماري الإسلامي، وما الخصائص التي تميزت بها العمارة الإسلامية في كل عصر؟ وما هي العوامل التي أثرت فيها وتأثرت بها؟.

عصر الخلفاء الراشدين:

بداية النشاط المعماري:

بدأ النشاط المعماري في الدولة الإسلامية مع هجرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة، حيث قام ببناء مسجده ومنزله. ورغم بساطة هذا البناء، إلا أن تصميم المسجد الأول في المدينة كان الأساس الذي أثر على ما هو معروف باسم التصميم التقليدي للمسجد بعد ذلك. وبعد وفاة الرسول الكريم بدأ عصر الخلفاء الراشدين، حيث قام عمر بن الخطاب بتوسيع مساحة المسجد النبوي، كما أقام مسجدًا خشبيًّا عند الصخرة المقدسة بفلسطين عُرف بالمسجد الأقصى واتبع الخلفاء الراشدون منهج رسول الله في البناء، حيث البساطة في بناء المدن والمساجد.

العصر الأموي:

بعد انتهاء عصر الخلفاء الراشدين، قام الأمويون بتأسيس الدولة الأموية واتخذوا من دمشق عاصمة لهم وقاموا بتوسيع رقعة الإسلام، فكثرت الفتوحات في عصر الأمويين؛ مما ساعدهم على الإطلاع على حضارات وثقافات مختلفة، استفادوا منها وطوروها وبدأ النشاط المعماري الإسلامي في الازدهار والتطور، وتميزت العمارة الإسلامية في هذا العصر باستخدام العقود المحمولة على أعمدة رخامية واستخدام الأسقف الخشبية المائلة واستخدام القباب في الأسقف والتي كانت تبنى من الحجر أو الطوب، فضلًا عن استخدام الشدادات ووضوح التقسيم الهندسي في المسقط الأفقي. كما تميزت هذه الفترة ببناء بعض القصور الصغيرة في الصحاري وكانت مآذن الجوامع والمساجد من أهم وأقدم الآثار الإسلامية، كمسجد قبة الصخرة في بيت المقدس والجامع الأموي الكبير في دمشق.

العصر العباسي:

وبعد الدولة الأموية، بدأ عصر الدولة العباسية واستطاع العباسيون أن يكونوا طرازًا معماريًّا خاصًّا بهم وطوروا المنارات الإسلامية والأموية متأثرين ببساطة الإسلام وأسلوب الأمويين في العمارة وحضارات بابل القديمة وما بين النهرين العراق والفارسية. ومن أفضل الطرز العباسية، المسجد الجامع في سامراء وجامع ابن طولون في القاهرة الذي بناه أحمد بن طولون والذي قدم إلى مصر في عام ٢٥٤هـ وعين واليًا على مصر من قبل

العباسيين عام ٢٥٩هـ وقام بنقل عمارة العباسيين في العراق إلى مصر، فهو الجامع الذي سمي باسمه والذي يعد فريدًا من نوعه بمئذنته الشهيرة وله سلم خارجي أيضًا. أما الثالث والرابع، فهما قمة المئذنة وبهما فتحات مستطيلة الشكل. أما تخطيط المسجد، فيميل إلى الاستطالة ويحتوي على الصحن التقليدي وعلى جوانب الصحن توجد أروقة للصلاة مسقفة ويحتوي جانب القبلة على العدد الأكبر منها، والعقود في هذا المسجد من الداخل من العقود المدببة المحمولة على بدنات الأعمدة أو أكتاف مستطيلة المقطع والسقف عبارة عن كمرات خشبية مشغولة بالزخارف والآيات القرآنية.

وفي هذا العصر أيضًا بدأ النظر إلى تخطيط المدينة بشكل عام بدلًا من النظر لكل مبنى على حدة ومدينة بغداد خير مثال على ذلك، فنجد أنها خططت تخطيطًا دائريًّا حتى سميت بالمدينة المدورة وتحتوي على أربعة مداخل، منها: باب خرسان وباب البصرة وباب الكوفة.

العصر العثماني:

بعد انتهاء الخلافة العباسية، كانت الدولة العثمانية أول خلافة إسلامية اتحدت في ظلها معظم المقاطعات الإسلامية من أقصى المغرب إلى الشرق الأوسط، وكان العثمانيون امتدادًا لبلاد السلاجقة في العراق وكردستان. لذا تأثرت العمارة العثمانية بالسلاجقة– أخر العصور العباسية– حتى تطابقت القباب والمنارات في الطرازين العثماني

والسلجوقي، ولكن العمارة العثمانية كانت أكثر سحرًا وثراءً لتنوع المصادر وبرع العثمانيون في الأعمال الخشبية والصناعات المعدنية وصناعة السجاد وظهرت براعتهم وموهبتهم في الأعمال الخشبية في منابر المساجد التركية الرائعة.

والمتأمل لتلك اللوحة الفنية المعمارية، نجد أن الفنون الإسلامية تتميز بأن هناك وحدة عامة تجمعها بحيث يمكن أن تميز أي قطعة أنتجت في ظل الحضارة الإسلامية في أي قطر من أقطار العالم الإسلامي؛ ولعل هذا سر من أسرار تفوق الحضارة الإسلامية وقدرتها الفنية على صبغ المنتجات الفنية في جميع الأقطار بصبغة واحدة.

على أن هذه الوحدة لم تمنع من وجود طرز إسلامية تتميز بها الأقطار الإسلامية المختلفة في عصور تطورها الفني، ويمكننا أن نقول بوجه عام إن الطراز الأموي ساد العالم الإسلامي أولًا متأثرًا بالفنون المحلية ثم ساد الطراز العباسي منذ قيام الدولة العباسية في عام ٧٥٠م. وعندما ضعفت الخلافة العباسية منذ القرن السابع الميلادي، سادت طرز أخرى إقليمية فكان هناك الطراز الإسلامي المغربي في شمال أفريقيا والأندلس وطراز مصري سوري في مصر وسوريا وطراز عثماني في تركيا والبلاد التي كانت تتبعها، ثم طراز هندي في الهند.

ومن واجبنا أن نكون على معرفة بهذه الطرز الفنية وكيف تميزت بميزات خاصة في إطار الوحدة الفنية المعمارية الإسلامية.

الطراز الأموي:

نشأ الفن الإسلامي في عصر بني أمية وكان الطراز الأموي الذي ينسب إليهم أول الطرز أو المدارس في الفن الإسلامي.

فطبيعة الحياة والظروف التي أحاطت بعصر النبي عليه السلام وعصر الخلفاء الراشدين لم تهيئ للمجتمع الإسلامي حينئذ أن يكون مرتعًا خصبًا لفن يترعرع بينهم ويتطبع بطابعهم. فلما جاءت الفتوحات الإسلامية وامتدت الدولة الإسلامية واتسع نطاقها واختلط العرب بأمم ذات حضارة مزهية، أثروا في هذه الأمم كما تأثرت بهم.

اتخذ بنو أمية مدينة دمشق عاصمة للعالم الإسلامي وكانت السيادة الفنية في عصرهم للبيزنطيين والسوريين وغيرهم من رجال الفن والصناعة الذين أخذ عنهم العرب الفاتحون وقام على أكتاف الجميع الطراز الأموي في الفن الإسلامي، وبذلك فهو طراز انتقال من الفنون المسيحية في الشرق الأدنى إلى الطراز العباسي، على أن هذا الطراز كان متأثرًا إلى حد ما بالأساليب الفنية الساسانية التي كانت مزدهرة في الشرق الأدنى عند ظهور الإسلام.

وهكذا كانت العناصر الزخرفية لهذا الطراز مزيجًا من جملة عناصر ورثها عن الفنون التي سبقته، فبينما تظهر فيه الدقة في رسم الزخارف

النباتية والحيوانية ومحاولة تمثيل الطبيعة وغير ذلك مما امتازت به الفنون البيزنطية، نجد تأثير الفن الساساني في الأشكال الدائرية الهندسية وبعض الموضوعات الزخرفية الأخرى، كرسم الحيوانين المتقابلين أو المتدابرين تفصلهما شجرة الحياة المقدسة أو شجرة الخلد.

الطراز المغربي:

يبدأ الطراز المغربي الصحيح في الأندلس والمغرب على يد دولة الموحدين ويلاحظ أن الزعامة الثقافية في العالم الإسلامي المغربي كان مركزها في الأندلس في عصر الدولة الأموية الغربية وفي عصر ملوك الطوائف، ثم انتقلت هذه الزعامة إلى مراكش في نهاية القرن ١١م حين استعان مسلمو الأندلس بالمرابطين في شمال أفريقيا لمقاومة تقدم المسيحيين الذين كانوا يستهدفون طرد المسلمين من الأندلس.

وبعد اضمحلال دولة المرابطين، قامت على أنقاضها دولة الموحدين وهي الدولة التي ازدهر في حكمها الطراز المغربي الأصيل.

ومن أبدع العمائر التي خلفها لنا هذا الطراز، قصر الحمراء بغرناطة الذي يعود إلى القرن الرابع عشر الميلادي ويمتاز بجمال مبانيه ورشاقة أعمدته ذات التيجان المزخرفة بالمقرنصات والجدران المغطاة بشبكة من الزخارف الجصية والكتابات الجميلة.

ومن المنتجات الفنية التي ازدهرت في الطراز المغربي تجليد الكتب وصناعة التحف الجلدية عامة، يلاحظ أنها تشبه جلود الكتب المصرية في العصر المملوكي وزخارفها مضغوطة في الجلد ومكونة من رسوم هندسية وأشكال متعددة الأضلاع بجوار بعضها على رسم صرة أو جامة في الوسط وعلى أرباع في الأركان.

أما صناعة الخزف، فقد ازدهرت في الطراز المغربي وبخاصة الخزف ذي البريق المعدني في ملقا وغرناطة وبلنسية، واستخدمت في زخارفها الحيوانات والطيور والمناطق المختلفة الشكل والرسوم الهندسية والكتابات، ويعتبر الطراز المغربي أقرب الطرز إلى العصر المملوكي.

الطراز التركي:

سقط السلاجقة في ٨هـ (١٤م) وآل الحكم في أسيا الصغرى إلى آل عثمان الذين استطاعوا الاستيلاء على القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م). ولعل خير ما أنتج الترك من أنواع الفنون تظهر واضحة فيما خلفوه من تحف الخزف والقاشاني والسجاد والأقمشة الحريرية والقطنية والمخطوطات.

أما الخزف التركي، فيمتاز بألوانه الجميلة وما فيه من رسوم الزهور والنباتات وكان يصنع في مدينة بورصا أول مرة في القرن ٨هـ (١٤م) ثم في كوتاهية في القرن ٩هـ (١٥م) ثم في مدينة (أزنيق) أسنك بآسيا الصغرى في القرنين ١٠. ١١هـ (١٦. ١٧م). أما السجاجيد التركية، فهي تعتبر من

أبدع الفنون الشرقية ومن أنواعها الطراز الذي ينسب إلى عشاق وفيه تظهر التأثيرات الإيرانية واضحة والطراز المعروف باسم هولباين الذي يمتاز بزخارفه الهندسية البحتة وسجاجيد الصلاة الصغيرة النفيسة ويمتاز معظمها برسم محراب في أرض السجادة واشتهر بصناعتها المناطق الجبلية بالأناضول في القرنين ١١. ١٢هـ (١٧. ١٨م).

أما المخطوطات، فقد امتاز الترك بكتابة المصاحف بالخط الجميل ثم تذهيبها وتزيين أغلفتها الجلدية بكافة الزخارف المذهبة المتقنة. غير أنه لم يكن لتركيا مدرسة خاصة في التصوير، إنما كان جل اعتمادهم على مصورين إيرانيين وأوروبيين، ولذا كان التصوير التركي مطبوعًا بطابع إيراني قوي، حتى أن أهم ما يميز الصور التركية عن زميلاتها من الإيرانية إنما هو العمائم والملابس التركية والأسلحة ومناظر القتال والحصار.

ولا ننسى أن نذكر أنه كان للعثمانيين خطوط جديدة مبتكرة، منها الخط الرقعة الذي نكتب به الآن.

الطراز العباسي:

هو الطراز الثاني من الطرز الإسلامية وينسب إلى الدولة العباسية التي قامت في العراق، فانتقلت السيادة في العالم الإسلامي منذ ذلك الحين إلى العراق، فكان من الطبيعي أن يتخذ الفن الإسلامي اتجاهًا جديدًا؛ لأن الأساليب الفنية الإيرانية غلبت عليه الطابع الإيراني على الأدب والحياة

الاجتماعية. والواقع أن هذا الطراز الذي يعتبر أول مرحلة واضحة في تاريخ الفن الإسلامي، أخذ الكثير عن أصالة هذه العمارة.

إن روعة العمارة تعبر عن روعة الحضارة التي أنشأتها وذلك قانون تاريخي كما يقول ابن خلدون: "إن الدولة والمُلك للعمران بمنزلة الصورة للمادة وهو الشكل الحافظ لوجودها، وانفكاك أحدهما عن الآخر غير ممكن على ما قرر في الحكمة؛ فالدولة دون العمران لا يمكن تصورها والعمران دونها متعذر، فاختلال أحدهما يستلزم اختلال الآخر. كما أن عدم أحدهما يؤثر في عدم الآخر".

خصائص العمارة الإسلامية

ورغم تأثر العمارة الإسلامية بالحضارات التي سبقتها، إلا أنها احتفظت بخصائص ميزتها عن غيرها؛ حيث تأثرت بشكل كبير بالدين الإسلامي والنهضة العلمية التي تبعته، ومن هذه الخصائص:

ناطحات السحاب:

المصطلح ناطحة السحاب يشير إلى نوع معين من المباني، أعلى تشييد صُمم من قبل البشر: كالأبراج والمآذن مثلا.

حيث لم يقتصر البناء الإسلامي على خاصية الإبهار التي ميزته عن غيره من فنون البناء والمعمار، حيث الشكل المتخم بالزخارف والزركشات والنقوش، بل تعداه إلى نوع آخر يعبر عن عظمة الإنسان المسلم، فكان له سبق الاختراع لأول ناطحات سحاب في العالم. ورغم بساطة مكونها المتمثل بالقش والطين اللازب، إلا أنها ما زالت تقاوم بكبرياء كل متغيرات الحياة حتى وقتنا الحاضر.

الحوائط الخارجية:

كانت الحوائط الخارجية قليلة الفتحات المطلة على الطريق العام. ولذلك اهتم العرب بتصميم الأفنية الداخلية والعناية بها وجعل الفتحات المهمة الرئيسية تطل على هذه الأفنية من الداخل.

المداخل والفتحات:

المداخل عبارة عن فتحات عميقة مستطيلة في المسقط الأفقي، عمقها يقرب من نصف عرضها وتحتل معظم ارتفاع المبنى وتنتهي بعقد مخصوص وكثيرًا ما توضع هذه الفتحة في بانوه على جانبه عمودان وأعلاه حلية زخرفية على شكل شرفة. أما الفتحات، فكانت أعمال النجارة تأخذ أشكالًا هندسية بديعة مفرغة تحتوي على الزجاج الملون وخاصة الفتحات العلوية في المبنى التي وضعت على شكل شرفات مصنوعة من الخشب المجمع المعروف بأشغال المشربيات والتي تعتبر من أهم العناصر المعمارية في العمارة الإسلامية.

العقود:

عرفت العمارة الإسلامية أنواعًا مختلفة من العقود وكان كل بلد يفضل بعض هذه العقود على البعض الآخر.

الحليات والزخارف والمقرنصات:

وهي حليات معمارية تشبه خلايا النحل، استعملت في المساجد في طبقات مرسومة وتستعمل في الزخرفة المعمارية.

القباب:

أخذ الفن الإسلامي بناء القباب عن الساسانيين والأقباط والبيزنطيين وأقبلوا على استعمالها في الأضرحة، حتى أطلقت جزءًا على الكل وصارت كلمة قبة اسمًا للضريح كله، وقد انتشرت في العالم الإسلامي أنواع مختلفة من القباب، ولعل أجمل القباب الإسلامية هي الموجودة في مصر وسوريا.

العوامل التي تأثرت بها العمارة الإسلامية

هناك عدة عوامل تأثرت بها العمارة الإسلامية؛ منها: الفتوحات الإسلامية في بلاد متحضرة شرقًا وغربًا واتساع نطاق الإمبراطورية الإسلامية من الهند إلى الأندلس ووحدة العقيدة الدينية والبواعث الدينية والنظم السياسية والاجتماعية والتشريعية التي أوجدها الإسلام ومفهوم كل شعب منها، وفنون الأمم العربية التي استوطنت أطراف الجزيرة ومجاورتها للأمم المتمدينة وتأثير فنون هذه الأمم على فنون العمارة وظهور الطراز المعماري الأول في سوريا، حيث أقام الأمويون دولتهم، فتأثرت عمارته بعمارة الفن البيزنطي، ما نقله أحمد بن طولون من أساليب العمارة إلى مصر عند تأسيس الدولة الطولونية، الاقتباس من فنون الأمم التي

أصبحت تحت حكم العرب مع صبغها بالروح الإسلامية وبقاء صبغها محليًا واستخدام الصناع من مختلف البلاد وتأثير مهارتهم على الفنون الإسلامية، انتشار الوعي الثقافي العربي عبر العالم بأسره بسرعة مذهلة أثارت الدهشة، اختلاف الطقس والمناخ، الامتزاج بين الثقافة الإسلامية والعقائد المحلية في بلاد فارس.

نتيجة لتطور الدول الإسلامية وتوسع المدن، ظهر ما يمكن تسميته بفقه البنيان؛ يهدف هذا المجال إلى تحديد وتنظيم العلاقات بين الناس والسيطرة على البناء وحل المشكلات التي قد تنجم بين الناس.

وفقه البنيان هو مجموعة القواعد الفقهية التي تراكمت بمرور الزمن نتيجة لاحتكاك حركة العمران والمجتمع كلاهما ببعض ونشوء تساؤلات أجاب عنها الفقهاء، هذه القواعد كان كل من المجتمع والسلطة والمهندسين يحتكمون إليها عند اللزوم. من كتب الفقه التي اهتمت بأحكام البناء كتاب "الإعلان بأحكام البنيان"، لابن الرامي المتوفي سنة ٧٣٤هـ. أول من سجل قواعد فقه العمارة من الفقهاء ابن عبد الحكم الفقيه المصري المتوفى سنة ٢١٤ هـ/ ٨٢٩م في كتابه (البنيان).

تثير شوارع المدن الإسلامية تساؤلات لا حصر لها لدى من لا يعرفون القواعد الحاكمة لها، فقد ترتب على مبدأَي "لا ضرر ولا ضرار" و"الأخذ بالعرف"، في تقرير أحكام البناء، نشوء مبدأ "حيازة الضرر" الذي صاغ المدينة الإسلامية صياغة شاملة. و"حيازة الضرر" تعني: أن من سبق في البناء يحوز الكثير من المزايا التي يجب على جاره الذي يأتي بعده أن يحترمها وأن يأخذها في اعتباره عند بنائه مسكنه. وبذلك يصيغ المنزل

الأسبق المنزل اللاحق من الناحية المعمارية نتيجة حيازته الضرر وبذلك يسيطر العقار الأسبق على حقوق عدة يحترمها الآخرون عند بنائهم. فضلًا عن الحقوق التي قـررها الشرع الشريف في مجال التنظيم العمراني وكلاهما معًا أدَّى إلى وجود بيئة عمرانية مستقرة، فرأينا شوارع مدينتي القاهرة ورشيد، استقرت بعد فترة معينة بعدما اختارت الفئة المستخدمة شكل الشوارع التي تستخدمها والتي يصعب التعدي عليها بالبناء.

ولتوضيح كيفية نشأة خطط وشوارع المدينتين، ينبغي أن نذكر أن الطريق ملك لجماعة المسلمين، وبالتالي فالسيطرة عليه من حق المارة أو المستخدمين له؛ فشريعتنا جعلت إماطة الأذى عن الطريق صدقة واعتبرته من أدنى مراتب الإيمان، فما بالك بإزالة أو منع من حاول البناء في الطريق؟ وحيث إن المارة هم المستخدمون، فالطريق يقع تحت سيطرتهم ولأن كل ساكن في المدينة يمر ببعض الطرق أكثر من غيرها، فهو بذلك عضو في الفريق المسيطر على كل الشوارع التي يمر بها. لذلك فإن عدد المسيطرين اختلف من طريق لآخر، لاختلاف عدد مرات ترددهم عليه، بناء على موقع الطريق واتجاهه.

فالفريق الذي يمر بالقصبة التي تخترق المدينة من شمالها إلى جنوبها في رشيد والتي يعرف جزء منها بمحجة السوق وجزء آخر بالشارع الأعظم، لا بد أن يختلف عن الفريق الذي يمر بطريق فرعي كعطفة المسك بالقاهرة المتفرعة من قصبة رضوان. وإذا نشأت مدينة جديدة أو حي جديد، فإن البناء فيها يتم عن طريق تتابع البناء في أماكن هذا الحي. فإذا كثر عدد

المارة في مكان ما، فإن هذا الطريق سيكون أكثر سعة وسيمنع المارة فيه بناء على حق الارتفاق وحق المرور، أي بناء يضيّق الطريق، وبذلك يزحف البناء وتتجاور الوحدات المعمارية بجوار بعضها البعض، إلى أن تستقر حدود الطرق تبعًا لاستخدام المارة لها. فالطريق يعكس رغبات وإمكانات وقيم الناس، فالطريق نتج عن تراكم قرارات الفرق الساكنة وهذه القرارات بنيت على الأسبقية في التصرف كما رأينا، فمن فتح حانوتًا قبل جاره المقابل، فقد حاز الضرر. وبهذا فإن العلاقة بين الفرق الساكنة ترتبت واستقرت بحيازة الضرر وكان الطريق وعاء لذلك الاستقرار.

ومن هنا نعلم أن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف أوصت بـ(حق الطريق)؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلُولًا فَامشُوا في مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِزقِهِ وَإليه النُّشُورُ﴾. سورة الملك، الآية: ١٥. لقد شاء الله للإنسان أن يكون حرًّا في سيره في الطريق وتنقله في كل سبيل أحلها له دون عوائق تمنعه، ولأجل تمكين الناس من التنقل في الأرض والابتغاء من فضله، وتهيئتها للناس دون التعرض لهم بأذى.

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: (إِيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ!) فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا؟ قَالَ: (فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا). قَالُوا: "وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟"، قَالَ:(كَفُّ الْأَذَى وَرَدُّ السَّلَامِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيٌ عَنْ الْمُنْكَرِ وَغَضُّ الْبَصَرِ).

وعليه اتبع الولاة والحكام والمسؤولون فى الدولة الإسلامية مراعاة تلك الوصايا والأحكام وهدم كل ما يعترض الطريق، حتى ولو كان مسجدًا.

وتتنوع الطرق، فمنها ما يربط بين البلاد المختلفة وما يربط بين أجزاء البلدة الواحدة، ومنها أيضا ما يأخذ وضعه دون تخطيط مسبق ومنها ما وضع في الحسبان تخطيطه.

وقد روعيَ في تخطيط المدن الإسلامية بصفة عامة اتساع شوارعها وطرقاتها وارتفاع المباني المطلة على الشوارع .

فقد كان لتخطيط المدينة الإسلامية الهيئة الأولى التي رسمها النبى ﷺ عندما هاجر إلى المدينة، فكانت أول محطاته بناء المسجد الجامع وسط المدينة حتى يسهل الوصول إليه، أثره على اتخاذ شوارع المدينة وضع وتخطيط معين.

كذلك قد يكون لتخطيط المدينة العام أثره على اتخاذ شوارعها تخطيطًا مقدرًا، مثل مدينة بغداد .

كما راعى حكام وولاة المسلمين ذلك في مختلف العصور. فعند بناء مدينة البصرة، أشار الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بالقدر الذي ترتفع إليه المباني. ولا شك في أن هناك علاقة وثيقة بين المباني والطرق المطلة عليها،

خاصة أن المباني لا تنشأ في الفراغ اللانهائي ولكنها مرتبطة إلى حد كبير بالشوارع المطلة عليها.

ولم يذهب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بعيدًا عن ذلك عند إنشاء مدينة بغداد، شكل شوارعها واتساع طرقاتها بما يتناسب وعاصمته الجديدة التي نمت بعد ذلك وأصبحت من أعظم المدن.

وبذلك نستطيع أن نقدم تفسيرًا واضحًا عن كيفية نشأة شبكة الطرق في أحياء المدن الإسلامية، دون تخطيط مسبق من الدولة، فقد أملت حاجة السكان تشكيل هذه الشبكة في بعض الأحياء بالقاهرة: كالحسينية، وبولاق، والأزبكية. بل إن مدينة رشيد، وهي مدينة نشأت دون تخطيط مسبق من سلطة مركزية، ذات شبكة من الشوارع تعكس مدى ما كانت عليه من تنظيم جيد؛ فالشارع الأعظم يخترق المدينة من الجنوب إلى الشمال ويوازيه عدد من الشوارع كشارع الصاغة والشيخ قنديل، ويخترقه شارع دهليز الملك الذي يربط شرق المدينة بغربها، بل إن امتدادات المدينة في اتجاه الشرق والغرب والشمال خلال الفترة من القرن ١٠هـ/ ١٦م إلى القرن ١٣هـ/ ١٩م، تعكس طريقة تكون شبكات الطرق بالمدينة طبقًا لما سبق ذكره وهو ما توضحه الخرائط. وما زالت شبكة الشوارع هذه مستخدمة إلى اليوم من جانب سكان المدينة مع بعض التغييرات الطفيفة، وهو ما يعني أنها قد لبت متطلبات السكان.

لكن هناك حديثًا نبويًّا حدد عرض الطريق، فقد روى ابن وهب عن إسماعيل بن عياش عن ربيعة بن عبد الرحمن وزيد بن أسلم، أن رسول الله ﷺ، قال: "إذا اختلف الناس في الطريق فحدها سبع أذرع". كما روى ابن وهب ورفع إلى رسول الله ﷺ أنه قال: "كل طريق يسلكها الناس، فإنها سبع أذرع يبني كل قوم على حدهم، ومن بنى على بقيع فهو له، ومن أعمره فهو له، وكل بقيع لم يبن عليه فهو لله وللرسول وليس هو لك".

لم يكن فقهاء المسلمين في تنازلهم لحد سعة الشارع جامدين، بل كانت لهم نظرة مرنة في التعامل معه طبقا لمعطيات العصر والظروف البيئية لكل مدينة.

من أبرز الأمثلة على ذلك ما اتبعه الصحابة عند تخطيطهم مدينة البصرة، فقد مصرها الصحابة على عهد عمر بن الخطاب وجعلوها "خططًا لقبائل أهلها، فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مريدها ستين ذراعا وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعًا، وعرض كل زقاق سبعة أذرع، وسط كل خطة رحبة فسيحة لمرابط خيلهم ومقابر موتاهم، وتلاصقوا في المنازل ولم يفعلوا ذلك إلا من رأي اتفقوا عليه ونص لا يجوز خلافه".

قام الفقهاء بصوغ قاعدة لاستخدام الطرق عبَّرت عن نضج فقه تخطيط المدن في الحضارة الإسلامية؛ هي: حق المرور، وهو حق أن يصل الإنسان إلى ملكه، دارا أو أرضا، بطريق يمر فيه سواء كان من طريق عام

أم من طريق خاص مملوك له أو لغيره أو لهما معا. وبناء على ذلك، نستطيع أن نقسم طرق المدينتين إلى ثلاثة مستويات، هي:

المستوى الأول ـ الطرق العامة:

ويُطلق عليها "الطريق السابلة" أو "طريق المسلمين" أو "طريق العامة"، وهذا الطريق مباح لجميع الناس في ارتياده وإيقاف الدواب أو فتح نافذة إليه أو اتخاذه مكانًا للبيع والشراء، بشرط ألا يضر بالمارة ولا يؤثر على الطريق نفسه. كما يشترط في كل الارتفاقات السابقة إذن الحاكم عند أبي حنيفة، ووجه قول أبي حنيفة هو ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أنه ليس للمرء إلا ما طابت به نفس إمامه. فإذا لم يأذن، لم تطب". ولا يشترط إذن الإمام عند الشافعية والحنابلة؛ لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو أحق به". أما شرط عدم الإضرار بالمارة عند ارتفاق الطريق العام فهو محل اتفاق بين الفقهاء وقد شدد أبو حنيفة بإضافة عدم تقدم أي شخص بدعوى ضد فعله وإن لم يضر.

يقول الكاساني: "ولو أراد رجل أن يشرع إلى الطريق جناحًا أو ميزابًا، فنقول هذا في الأصل لا يخلو من أحد وجهين: إما أن كانت السكة نافذة أو غير نافذة، فإن كانت نافذة، ينظر إن كان ذلك مما يضر بالمارين، فلا يحل له أن يفعل ذلك فلكل واحد أن يقلع عليه ذلك وإن كان ذلك مما لا يضر بالمارين، حل له الانتفاع به ما لم يتقدم إليه أحد بالرفع

والنقض، فإذا تقدم إليه واحد من عرض الناس، لا يحل له الانتفاع به بعد ذلك عند أبي حنيفة رحمه الله، وعندهما يحل له الانتفاع قبل التقدم وبعده وكذلك هذا الحكم في غرس الأشجار وبناء الدكاكين والجلوس للبيع والشراء على قارعة الطريق ووجه قولهما، إن حرمة التصرف في حق الغير ليس لعينه، بل للتحرز عن الضرر ولا إضرار بالمارة، فاستوى فيه حال ما قبل التقدم وبعده، ولأبي حنيفة رحمه الله أن إشراع الجناح والميزاب إلى طريق العامة تصرف في حقهم، لأن هواء البقعة في حكم البقعة والبقعة حقهم، فكذا هواؤها فكان الانتفاع بذلك تصرفا في حكم الغير، والتصرف في حق الغير بغير إذنه حرام سواء أضر به أم لا، لأنه أحل له الانتفاع بذلك قبل التقدم بوجود الإذن منهم دلالة، وهي ترك التقدم بالنقض في حق الإنسان بإذنه مباح. فإذا دفعت المطالبة بصريح النقض بطلت الدلالة، فبقي الانتفاع بالمبنى تصرفًا في حق مشترك بين الكل من غير إذنهم ورضاهم فلا يحل.

وقال المالكية: من بنى في طريق المسلمين أو أضاف شيئًا من الطريق إلى ملكه، مُنع باتفاق.

كذلك قال الشافعية والحنابلة: "يمنع فعل ما يضر بالمارة في الطريق العام، إذا أضر بهم". يقول الشربيني: "ويحرم أن يبنى في الطريق دكة أو يغرس شجرة، وقيل إن لم يضر جاز".

ونستطيع أن نتوقف بعض الشيء عند ما ذكره الكامي، وهو من متأخري فقهاء الحنفية، إذ يذكر نازلة مفادها "رجل بنى في الطريق الأعظم بناء (بغير إذن الإمام). فإن كان يضر ذلك بالطريق، يكون آثمًا فيما صنع، وإن كان لا يضر لا يكون آثمًا، إلا أنه لو عثر به إنسان فعطب أو دابة فتلفت كان ضامنًا، ويكون لكل واحد من آحاد الناس حق المنع والمطالبة بالرفع".

هذه النازلة إن دلت على شيء؛ فهي تدل على ضعف سلطة الدولة في الفترات التاريخية المتأخرة في السيطرة على البيئة الحضرية، لكنه يذكر لاحقًا حكمًا فقهيًّا يدل على نضج المجتمعات الإسلامية وإدراكها أهمية الحفاظ على البيئة الحضرية للمدينة، بل زيادة مساهمة هذه المجتمعات فيها، فيذكر: "رجل اشترى موضعًا وزاده في طريق المسلمين وجعله طريقًا لهم وأشهد على ذلك، صحّ، ويشترط لذلك مرور واحد من الناس بإذنه على قول من اشترط في الأوقاف وسوى في ذلك بين الطريق والمقبرة وسائر الأوقاف".

القصبة العظمى:

ومن أمثلة الطرق العامة القصبة العظمى في القاهرة والتي تربط بين بابي الفتوح وزويلة. وامتداد هذه القصبة الذي جاء بطريقة طبيعية نتيجة لارتفاق عدد كبير من سكان المدينة بهذا الامتداد الذي يعرف بالخيامية والمغربلين والسروجية. ومن أمثلته أيضًا الدرب الأحمر وشارع تحت الربع

وسكة الحبانية والصليبة. وأشارت إحدى الوثائق إلى الطريق العام الذي يصل بين القاهرة وبولاق. لقد صيغ هذا الطريق كطريق عام نتيجة طبيعية لاحتياجات السكان ودون تخطيط أو تدخل مسبق من الدولة، ومن أمثلتها برشيد: الشارع الأعظم وامتداده الذي يعرف بمحجة السوق وشارع الشيخ قنديل وشارع دهليز الملك. ومن أمثلتها الطرق العامة في مدينة ثلا اليمنية التي كانت مشاعة للاستخدام لجميع الأهالي، ولكل من دخل ثلا أو خرج منها، وهي مرصوفة بقطع الأحجار الصلبة المهندمة بطريقة منظمة وفق ارتفاعات ونسب معينة تخفي المرتفعات والمنخفضات الموجودة نتيجة لطبيعة المكان كون المدينة في سفح جبل. ولكل شارع من شوارعها اسم يعرف به أحيانًا يسمى باسم أسرة كانت تسكنه مثل شارع عيسى أو باسم معلم بارز في الشارع كالمسجد، مثل شارع نبهان نسبة إلى مسجد نبهان. وهذا النوع من الطرق من حقوق جماعة المسلمين وكانت السلطات المسلمة تتدخل في بعض الأحيان للحفاظ على هذا النوع من الطرق.

برز دور العلماء حتى فترة تاريخية متأخرة في تحديد اتساع شوارع المدن، فحين فكر مُحَّمد علي في شق سكة الحديد، التي تعرف حاليًا بشارع الموسكي بالقاهرة، طلب رأي العلماء في شأن الاتساع المناسب لهذه "السكة الجديدة"، فأفتوه بأن يجعله بحيث يمر فيه جملان محملان من غير مشقة.

وفي رؤية الفقهاء أنه السكة المسدودة الأسفل وهو ملك من نفذت أبوابهم إليه لا من ملاصقة جدرانهم من غير نفوذ أبوابهم إليه، فمن نفذت أبوابهم إليه فهم الملّاك، وهم شركاء في ذلك، وليس لغيرهم إشراع جناح فيه أو باب للاستطراق إلا برضاهم، وهذا عند المالكية والشافعية والحنابلة. أما الحنفية، فقد جعلوا فيه حقًّا للعامة.

المستوى الثاني ـ الطريق العام الخاص:

وهو أقل درجة من الطريق العام، إذ أن الارتفاق به من قبل جماعة المسلمين يقل عن سابقه، وبالتالي تزداد سيطرة الفريق الساكن فيه عليه. وكثر هذا النوع من الطرق في مدينتي القاهرة ورشيد وهو يفضي عادة إلى الطريق العام وتتوزع منه شبكة طرق أكثر خصوصية. ومن أمثلة هذا النوع الدرب الأصفر الذي يربط بين القصبة العظمى بالقاهرة والجمالية وعطفة الحمام بجوار وكالة نفيسة البيضاء، وعطفة المسك المتفرعة من قصبة رضوان وشارع المقاصيص وحارة خشقدم. ومن أمثلة هذا النوع من الشوارع بمدينة رشيد، شارع الشيخ يوسف والذي يربط بين شارع طاحون التلايت وشارع الشيخ قنديل وشارع البواب الذي يربط بين شارع الشيخ قنديل وسوق الخضار وشارع مُحَمَّد كريم الذي يربط بين شارع الشيخ قنديل والشارع الأعظم.

المستوى الثالث ـ الطريق الخاص:

وأفضل أمثلة هذا النوع من الطرق هو الطريق غير النافذ، وهذا النوع ملك لساكنيه فقط ولذا سمي خاصًّا. بخلاف المستوى الثاني من الطرق، فإنه مشترك بين جميع أهل الطريق وفيه أيضًا حق العامة.

والقاعدة التي استقر عليها الفقهاء في حكم هذا المستوى من الطرق؛ أنه يجوز لأي ساكن أن يتصرف في الطريق إلا بموافقة شركائه فيه. ومن هنا نستطيع أن نفسر تلك العبارات التي وردت في سجلات المحاكم الشرعية والخاصة بمثل هذا النوع من الطرق مثل "زقاق مشترك الانتفاع". وقد انتشرت الدروب أو الأزقة غير النافذة في مدينتي القاهرة ورشيد.

بل أكد الفقهاء مساواة الجميع في حق الاستطراق داخل المكان، فيذكر القاضي كامي الطريق إذا كان بين جماعة ودار أحدهم أوسع من دار الباقين، فإنه لا يستحق بذلك الزيادة من الطريق؛ لأن الاستطراق أي حق المرور إلى دار كبيرة نحو الاستطراق إلى الدار الصغيرة، فلا يتفاوت ذلك بخلاف الشرب. إن هذا يقودنا إلى تركيز الاهتمام بمثل هذه النوعية من الطرق لكثرة ورود قضاياها في سجلات المحاكم الشرعية، فنسبة الدروب المسدودة في مدينة الجزائر تصل إلى ٤٥.٧% من مساحات الطرقات. ومن أشهر أمثلة العمائر المدنية بالقاهرة والتي بنيت في طريق غير نافذ، منزل السناري بالسيدة زينب ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م والذي يقع بحارة منج.

ترتب على هذا التتابع في مستويات الطرق بمدينتي القاهرة ورشيد؛ أن أصبحت الطرق ذات خصوصيات متدرجة تبعًا لوقوعها تحت أي من المستويات الثلاثة السابقة وانعكست سيطرة الفرق المالكة للطرق وخصوصيتها في تكاتف أهل الطريق على توفير الأمن له من خلال الأبواب التي أقيمت على الحارات والدروب.

إن خصوصية الحارة تنبع من كونها وحدة اجتماعية متماسكة؛ فالحياة في الحارة بمثابة الحياة داخل منزل واحد، فالأفراد يتضامنون مع بعضهم، بل حين يلج غريب يجري تتبعه من الأطفال وتنبيهه إلى أن وجوده في المكان يجب أن يكون لسبب واضح وتعكس مستويات الطرق وأحكامها مدى التكاتف والترابط الاجتماعي الذي كانت تتمتع به المدينة الإسلامية.

كان الهدف من بناء بوابات الطرق غير النافذة والدروب والعطفات؛ هو الإعلام بحدود أهل ذلك الطريق أو الحي لاشتراكهم في ملكية ذلك المكان. بالإضافة إلى ابتغاء السكان للأمن، فقد كانت بوابات المدن والحارات تترك مفتوحة أثناء النهار وتقفل بالليل بعد صلاة العشاء مباشرة وبعضها بعد صلاة المغرب، وكانت تغلق أثناء النهار أيضًا حينما تقع اضطرابات أو حروب أهلية، كما حدث في القاهرة سنة ٧٩١هـ وسنة ٩٢٣هـ.

كان السكان يعينون حارسًا على باب الدرب. حدد السبكي وظيفته بما يأتي: "وحق عليه أن ينصح لأهل الدرب ويسهر عينه إذا ناموا، ينبه النوام إذا اغتيلوا بحريق أو غيره، ولا يدل على عوراتهم واليا ولا غيره". هذا ما يؤكد دوره في حماية الحارة واستقلالته الإدارية.

وكان السكان يبالغون في متانة الأبواب للمحافظة على الحارات والبيوت، كما يقول علي باشا مبارك واصفًا: ".. فيصفحون، أي السكان، الأبواب بصفائح الحديد ويسمرونها بالمسامير الكبيرة ويفرطحون رؤوسها ويجعلون بأكتاف الباب السلاسل المتينة ويجعلون للباب الضبة والضبتين في الخارج والداخل ويزيدون من الداخل الترباس.

وعندما يحدث خلل في أي بوابة من البوابات أو حاجة إلى تجديدها أو إعادة بنائها، يقوم بذلك أهل الطريق على نفقتهم بعد الحصول على إذن من قاضي القضاة. ففي ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م، تقدم سكان درب الإبراهيمي بطلب التصريح لهم ببناء باب للحارة؛ لحمايتهم من اللصوص الذين قد يدخلون حارتهم. وبعد الحصول على ذلك التصريح، كان من المفترض أن يشترك كل ساكن في بناء الباب وفق قدرته وقد يقوم أحد أفراد الحارة أو السكة غير النافذة بهذا الأمر، دفعًا للضرر ليكتسب حق إقامة ساباط يزيد به مساحة منشأته، وهو بذلك أصبح له حق البروز في الهواء طالما لم يعترض أحد من سكان الطريق. وقد اكتسب هذا الحق "حسن أغا" حينما تقدم بطلب للوالي للإذن له في بناء بوابة درب القزازين دفعًا للضرر وإقامة ساباط فوق بوابة الدرب المذكور وتحمل نفقات إقامة

هذه البوابة، بعد أن تم الإذن له بذلك ولم يعترض أحد من سكان الدرب. وذلك سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م. وسجلت محكمة الباب العالي واقعة مشابهة، فقد تقدم المدعو "يوسف بن مُحَّد"، بطلب للمحكمة أوضح فيه أن باب الحارة الذي يوجد فيه بيته بدرب الشيخ فرج ببولاق قد تهدم منذ مدة طويلة ولم يهتم أحد بإصلاحه. ولذا فهو يقترح القيام بإصلاحه على نفقته الشخصية وبناء طبقة فوق الباب، ليتوسع في بيته القائم بجوار الباب وقد حصل على موافقة سكان الحي والقاضي أيضًا، وتم بذلك حل المسألة.

ورغم ما أصاب هذه البوابات من تدمير وتكسير على أيدي الفرنسيين مرة وعلى يد مُحَّد علي مرة أخرى، فإنه قد بقي عدد منها سجلته لجنة حفظ الآثار وما زال بعضها قائمًا إلى اليوم.

وقد قسَّم الفقهاء أحكام البنايات إلى أربعة أقسام رئيسية؛ هي:

١- **البناء الواجب:** مثل بناء المساجد لتقام فيها الصلوات وبناء الحصون والأربطة للدفاع عن ديار المسلمين.

٢- **البناء المندوب:** كبناء المنائر والتي تندب للآذان وبناء الأسواق، حيث يحتاج الناس للسلع. ولكي لا يتكلفوا عناء البحث عنها، فندب الشرع لذلك بناء الأسواق لكي يستقر بها أصحاب السلع ويسهل للناس شراؤها منهم.

٣- **البناء المباح:** مثل بناء المساكن التي تبنى بهدف الاستغلال. فمن المعروف أن الشريعة جاءت لحفظ المقاصد الخمس: الدين، النفس، المال، العرض، والنسل، والله جعل أسبابًا مادية يقوم بها البشر كي يحققوا تلك المقاصد. ومن هذه الأسباب بناء المساكن والدور ليحفظ فيها الناس أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وتُقيم فيها الأسر.

٤- **البناء المحظور:** كبناء دور السُكْر والبغاء والبناء على المقابر وفي أرض الغير.

لم تكن العلاقة بين المباني علاقة جامدة، بل دخلت أيضًا في تحديد سلوك الساكنين للعقارات وضرورة احترامهم الآداب العامة، وكان من حق الجيران إجبارهم على ذلك، عن طريق القضاء وتزخر سجلات المحاكم الشرعية بالعديد من الوقائع التي تؤكد تضامن أهل الخطة أو الحارة ضد المخالفين من سكانها.

ولقد أشار ابن أبي الربيع في كتابه: "سلوك المالك في تدبير الممالك"، إلى بعض الأحكام الفقهية الواجب اتباعها ومراعاتها في العمران، وهي:

أولًا: أن يُساق إليها الماء العذب للشرب؛ حتى يسهل تناوله من غير عسف.

ثانيًا: أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.

ثالثًا: أن يبنى فيها جامعًا للصلاة في وسطها، ليقرب على جميع أهلها.

رابعا: أن يقدر أسواقها بكفايتها لينال سكانها حوائجهم من قرب.

خامسا: أن يميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضدادا مختلفة متباينة.

سادسا: إن أراد سكناها، فليسكن أفسح أطرافها ويجعل خواصه كنفًا له من سائر جهاته.

سابعًا: أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء لأنها بجملتها دار واحدة.

ثامنا: أن ينقل إليها من أهل الصنائع بقدر الحاجة لسكانها.

ويبين من هذا الكلام؛ مدى الفهم الصحيح المقرون بالتحليل العلمي والمنطقي في أسس إنشاء المدن.

ومن خلال الآية الكريمة لقوله تعالى: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ". (سورة الأعراف، الآية: **١٩٩**).

واعتمد الفقهاء في تناولهم لأحكام البنيان على هذه الآية الكريمة بتفسير العُرف بما جرى عليه الناس وارتضوه ولم يعترضوا عليه، طالما أنه لا يتعارض مع الأحكام القرآنية أو الأحاديث النبوية الشريفة.

ولتوضيح ذلك، نضرب مثلًا بوجود الضرر عن فتح كوة (نافذة) وتأثيرها على خصوصية الجار وعلاقتهما ببعض، فكان لهذه القاعدة تأثير على حركة العمران.

كما نجد أن هناك إشارات للوحة معمارية جديدة تحمل الهوية الإسلامية وفق هذه الأسس:

***مبدأ الاحتواء:**

وهو توجه العمارة بأشكالها نحو الداخل في تجاهل لجميع أوجه البناء الخارجية، سواء كانت مدينة أو بناء صغير. فإن الاهتمام بالداخل مقدم على جميع الاهتمامات المتعلقة بعملية البناء. والاحتواء مفهوم يضرب بعمق في تصميم الحضارة والثقافة الإسلاميتين، كما يتجلى في الفن واللباس والتكوين الاجتماعي، وقد وجد طريقه إلى العمارة.

*** مبدأ الظهور:**

عكس الاحتواء، فهو مبدأ يؤكد الجانب الخارجي المرئي لنسيج العمارة وهيكلها. ففي نسيج المدينة الإسلامية المتشابك، تأتي أفنية المساكن والميادين العامة لتكبر من حدة نسيج الاحتواء، مثال على هذا النوع من العمارة بمدينة سامراء "عاصمة الخلافة العباسية" ومدينة فاتح بجوار دلهي "عاصمة الهند". والجدير بالذكر أن عمارة الاحتواء عمارة

نسيج حضري، بينما عمارة الظهور هي هياكل منفردة ومنفصلة ومقروءة من الخارج.

*** مبدأ الطبقات:**

تتكون المدينة من طبقات متتالية من الفراغات ذات الأحجام المختلفة، بدءًا بساحات المدينة وصولًا إلى الفراغ الخاص بكل فرد على حدة. وما يقال عن الفراغ ينطبق أيضًا على العناصر المكونة للفراغ، من جدران وأسقف وأرضيات وما يصاحبها من عناصر أثاث أو عناصر زخرفية أو إنشائية وتتأثر الطبقات بتضاريس المدينة وتوجهها نحو الشمس وبكثافتها السكانية.

وهنا تختلف طبقات كل مدينة عن الأخرى؛ وهو ما ينتج عنه اختلاف الأشكال العامة للمدن الإسلامية لاختلاف الطبقات في تكوين المدينة الإسلامية. القاهرة مثلا من الناحية التاريخية هي تراكم لطبقات من البناء تركت آثارها في النسيج العمراني للمدينة بدءًا بالفتح الإسلامي وصولا إلى العصر العثماني. كما يجسد الجامع الأزهر مفهوم الطبقات في عمارة هياكل المدينة. وتجسد المدن التاريخية في مشرق العالم الإسلامي ومغربه، مثل دمشق وحلب وفاس والقيروان وصنعاء وأصفهان وسمرقند وغيرها الكثير، مفهوم الطبقات كل بطريقته الخاصة وفي سياقه الخاص.

* **مبدأ التكرار:**

وهو المرادف العددي للطبقات الذي يشكل في مجمله الشكل النهائي للمدن والهياكل الإسلامية. بهذا المعنى، فإن التكرار هو البعد الحسابي في عملية البناء. والمدينة الإسلامية في شكلها النهائي؛ تكرار عددي للبيوت المتلاصقة جنبا إلى جنب بأفنيتها المفتوحة ويبقى الفارق بين مدينة وأخرى عائدًا إلى حجم المدينة وكثافتها السكانية وطبوغرافيتها.

* **مبدأ التنغيم:**

يعتبر التنغيم في التشكيل المعماري من القيم الواضحة التي تظهر في التعبير المعمارى للواجهات في عمارة العصور الإسلامية. خاصة في المباني العامة، مثل: وكالة الغوري بالقاهرة التي تظهر فيها التنغيم بإيقاع منتظم مع اختلاف في المستوى. وقد ظهر هذا التنغيم بإيقاع غير منتظم كما في الواجهة الرئيسية لمدرسة السلطان حسن. وظهر مع الإيقاع المعماري في الفتحات المثلثة التي انتشرت في المباني القديمة بوسط الجزيرة العربية، حيث استعمال الطين كمادة للبناء.

* **مبدأ التكامل:**

يعتبر تكامل الفراغات وتداخلها من أهم القيم التصميمية لعمارة العصور الإسلامية، وخصوصا في المباني السكنية وأيضا في بعض المباني الدينية. كما تظهر هذه العلاقة الفراغية في ارتباط فراغ غرف الأدوار العليا

بفراغ الأدوار السفلى. وتأتي كذلك في التباين والانتقال المفاجئ من الفراغ الضيق الملتوي للمدخل إلى الفراغ الأكبر في الفناء الداخلي للمبنى، وتساعد هذه الظاهرة على امتصاص الهواء وتفريغه وتجديده داخل المدن.

وقد اعتمد الفقهاء في تناولهم لأحكام البنيان على بعض الآيات في القرآن الكريم والحديث الشريف وبعض الأعمال العمرانية التي قام بها الرسول والخلفاء الراشدين وعلى العرف؛ أخذًا عن حديث عبد الله بن مسعود: (ما رآه المسلمون حسنًا، فهو عند الله حسن). كما أخذوا عن الحديث: (لا ضرر ولا ضرار).

وترتب على مبدأ "لا ضرر ولا ضرار" و"الأخذ بالعرف"، في تقرير أحكام البناء، نشوء مبدأ: "حيازة الضرر" الذي صاغ المدينة الإسلامية صياغة شاملة. و"حيازة الضرر" تعني؛ أن من سبق في البناء يحوز العديد من المزايا التي يجب على جاره الذي يأتي بعده أن يحترمها وأن يأخذها في اعتباره عند بنائه مسكنه، وبذلك يصيغ المنزل الأسبق المنزل اللاحق.

أثر فقه البنيان على تخطيط المدينة، فأثر على تخطيط الشوارع وحدد درجات الخصوصية في الأماكن العامة وحدد أماكن وضع المباني المعينة. فالمباني التي قد تضر الناس كالمصانع والأفران والتي تؤدي إلى إصدار الضجة، كانت تبنى في أماكن بعيدة عن الأحياء والخطط السكنية مثلًا.

وهنا يتضح لنا أن للمسلمين الفضل الكبير في إرساء قواعد الحضارة والمدنية بما يحملونه من عقيدة ربانية راسخة وسنة نبوية رشيدة والتي انبثق

عنها نظام يدعو إلى العلم والتحضر والتمدن. كما أنه يدعو إلى إقامة العدل بين الناس وتجميعهم حول كلمة سواء. وقد تركت هذه المفاهيم بصماتها على المدينة الإسلامية التي قدمت لسكانها الخصوصية والشفافية والراحة في السكن والخدمات بجميع أنواعها.

كما يتبين لنا أن الدين الإسلامي الحنيف يتسم بطابعه المدني الفريد وبطبيعة الجمع بين الدين والدنيا من خلال تنظيم علاقة الإنسان بربه من ناحية وعلاقة الإنسان بنفسه وبالآخرين من ناحية أخرى. ذلك التنظيم الذي وجد تعبيره في البيئة الحضرية بعلاقة الكتلة مع الفضاء وبين الفضاءات بعضها ببعض.

من هنا يتضح لنا أن المدينة العربية الإسلامية كغيرها بفعل عوامل متعددة اقتصادية واجتماعية وإدارية ودينية وعسكرية، تباينت في تصنيفها باختلاف أساس التصنيف، فصنفت مثلا إداريا إلى أمصار وقصبات ومدن وقرى. كما ارتأى ذلك الجغرافيون العرب والمسلمون الأوائل ومنهم المقدسي. وصنفت وظيفيا، فكانت المدن العسكرية "المدينة الحصن" والمدن التجارية وغيرها من المدن التي اصطبغت بالطابع الذي أنشئت من أجله وبما تستمد أهميتها من مقوماتها الذاتية وإنتاجها الزراعي والصناعي والحرفي وبما تذخر به من خيرات.

وصنفت المدن الإسلامية على أساس حداثة نشأتها أو قدمها ثم تم تطويرها.

وقد زكّى الباحثون نشأة المدن الإسلامية ضمن كتلة ملتحمة متجانسة من نسيج عضوي وبحظ سماء ثابت التزم ارتفاع طابق أو طابقين– عدا القباب والمآذن التي ترتفع عناصر عمودية– وتشذ عن هذه القاعدة المدن التي تقع جنوب شبه الجزيرة العربية، إذ ترتفع المباني السكنية فيها لعدة طوابق.

أما أهم العناصر التخطيطية في هذا الهيكل العمراني، فهو في مركز وقلب المدينة الذي يضم المسجد الجامع. وهذا غالبا ما يمثل موقعًا مركزيًّا عند تقاطع الطرق الرئيسية والأسواق والمحلات.

المدن الإسلامية

المدينة:

المدينة (الجمع: مُدُن): هي مستوطنة حضرية ذات كثافة سكانية كبيرة ولها أهمية معينة تميزها عن المستوطنات الأخرى، الجمع: مَدائنُ، ومُدْنٌ

المَدِينَةُ: المِصْرُ الجامِعُ، تجمُّع سكَّانيّ يزيد على تجمُّع القرية. ويختلف تعريف المدينة من مكان إلى آخر ومن وجهة نظر إلى أخرى. في العصر الحديث قامت العديد من الدول بوضع شروط معينة لتحديد ما إذا كانت المستوطنة مدينة أم لا.

لم يتفق العلماء أو المؤرخون على مستوطنة محددة لتعدّ أول مدينة في التاريخ، بل لم يتفقوا على تسمية المستوطنات مدنًا أو قرى، إلا أن أقدم المدن التي اكتشفت آثارها موجودة في الوطن العربي في الخليج العربي والعراق والشام ومصر القديمة والمغرب العربي.

وتُعرف لغويا بأنها كلمة مأخوذة من كلمة (دين) ساميّة الأصل، وقيل: إنها التجمع السكني الذي يزيد عن كثافة تجمع القرية وتُعرف المدينة اصطلاحًا لدى أرسطو بأنها عدد من الذكريات التي من الممكن معرفة مكوناتها ومعانيها وتكون تلك الذكريات صخرية. وقد ذهب البعض إلى

تعريف المدينة بأنها تجمع سكاني حيث غالبية السكان يعملون في التجارة أو الصناعة أو الإدارات العامة. وقد عرّف ابن خلدون المدينة بأنّها أمصار تمتلك أبنية كبيرة وأجرام وهياكل عظيمة، وهي عامّة حيث تحتاج إلى التعاون واجتماع الأيدي من أجل اختطاط المُدن وتمصيرها.

تتعدد التعريفات ولكن أهمها ما اجتمع عليه علماء الاجتماع والإنسان، وهي المساحة الجغرافية الواسعة الذي يوجد فيها كثافة سكانيّة عالية وذات الأنظمة الاقتصادية المتنوعة وتوجد فيها الخدمات والدوائر الحكومية الرسمية. تعتبر المدينة أحد الأشكال المتطورة من أشكال التجمعات الإنسانية، حيث تصوغ المدينة أساليب الحياة التي تتلاءم وبنيتها العُمرانية والاقتصادية والأيديولوجية وتُناسب الطابع الاجتماعي الخاص بها، وقد بلغت الحياة في المدينة ذروة التعقيد؛ مما جعل أنماطها المعيشية تتغير لتتماشى ومكوّنات الحضارة المعاصرة، وأصبح على السكان التكيف مع أوضاع وظروف المدينة. كما طبيعة العلاقات بين الأفراد تتسم بالرسمية وتضعف فيها العلاقات القرابية المعروفة في القرى؛ حيث إن نوع العائلة السائد فيها هو "العائلة النووية" وتحتوي على تنوع سكاني بمختلف الأعراق والجنسيات. كما يوجد فيها أشكال مختلفة من الأحياء السكنية تكون بمثابة تجمعات لعرق أو طبقة، كما يميزها التلوث والازدحام المروري، عكس ما يوجد بالقرية أو البادية". وكل مما سبق يحكمه القانون، فأفراد المدن مرجعهم الأول هو القانون "الدستور" بعكس القرية والبادية تحكمهم الأعراف أو القضاء العشائري، وتعريف المدينة هذا، بنيَّ على عدم وجود هذه الصفات في القرية والبادية.

مفهوم المدينة

المدينة كما تقررها المعاجم العربية مأخوذة من (مدن بالمكان)؛ أي أقام به وهي من المساكن والأبنية. فيما رآها آخرون أن لهذه الكلمة أصلا في الآرامية والعربية أي أنها ذات أصل سامي وعرفت المدينة عند الآكديين والأشوريين بالدين أي القانون وفي التعريف الحديث للمدينة، أنها حقيقة مادية مرئية في المظهر من حيث الكثافة السكانية والكتلة البنائية والبعد التاريخي والحيثية الإدارية.

فهي تشير إلى تحديد كيانها المادي والاجتماعي؛ إذ أنها تعني إقامة تكتلات بشرية داخل أسوار المدن والأمصار والقرى والديار. وفي هذا دلالة حضارية لإقامة السور الذي يعني الأمن والأمان لساكني المدينة ووجود سلطة في المدينة ممثلة في الحاكم أو الملك وما يميزها من منشآت حضارية ارتبطت بحياة ساكنيها.

أيضًا يتصل التفسير الجغرافي والفقهي بهذا المعنى وهي تعني المكان الذي يوجد به سلطان يقيم الحدود وقاضٍ ينفذ الأحكام.

لا تنفصل حاجة الإنسان لإنشاء المدن عن حاجاته الأخرى التي هي من أسباب بقائه. ولهذا يقال إن الإنسان مدني بطبعه، ذلك أن التمدن والاجتماع المدني من الضرورات التي يحفظ بها بقاءه واستمرار نوعه؛ إذ لا يمكنه الانفراد بتحصيل معاشه. ولهذا فإن إنشاء المدن بأنواعها– للسكن أو للزراعة أو للصناعة– فطرة مجبول عليها الإنسان، للحصول على

المنافع المسخرة له في الدنيا باختلاف قدراته وميوله وإلهاماته، بما يمكنه من تلبية حاجاته وحاجات الآخرين.

ويُرجح أن كلمة المدينة كانت تطلق خاصة على المكان الذي يكون فيه القضاء وهي كلمة آدمية الأصل، إذ أن المقطع "دين" في الكلمة يدل على معنى العدالة وهذا يعني أن المدينة هو المكان الذي يتوفر فيه العدل والأمن أكثر من أي مكان آخر، لكونها مقرًّا للسلطة الحاكمة.

قد يعتبر البعض أن المدينة الإسلامية مختلفة عن سائر المدن بتكوينها الخاص المنبثق من الشريعة الإسلامية والأحكام الفقهية الحاكمة لها والتي أصبحت رافدًا أساسيًّا لها ومشكلًا بارزًا لتكوينها البنيوي.

يقول ابن حزم، في مفهوم المدينة وتكثير العمارة: "يأخذ السلطان الناس بالتجارة وكثرة الغراس، بقطعهم الإقطاعات في الأرض الموات ويجعل لكل واحد ملك ما عمر، ويعينه على ذلك لترخص الأسعار ويعيش الناس والحيوان ويعظم الأمر ويكثر الأغنياء وما يجب فيه الزكاة".

فالمدينة لا تسمى بالمدينة إلا إذا كانت مقرًّا لصاحب السلطان أو من يمثله، فإذا كان صاحب السلطان هو الخليفة نفسه، كانت المدينة عاصمته أو إحدى عواصمه. وإن كان والي إقليم، فالمدينة عاصمة هذا الإقليم وإن كان قائدًا على الثغور، فالمدينة قاعدة لهذا الثغر أو حصن استراتيجي فيه.

وكانت المدينة الكبيرة بالعربية تسمى مصرًا وكان هذا اللفظ يطلق في عصر الفتوح الأولى على عواصم الأقاليم خاصة. وعلى هذا الأساس، كانت الكوفة والبصرة تعدان من الأمصار، فيقال: المصران.

والجدير بالذكر أن المدن والأمصار تختص بمؤسسات دينية ودنيوية من مساجد وحمامات وأسواق وصنائع وحرف مختلفة تعد كلها من أهم معالم المدينة والعمران الحضري.

وتعد المدينة من أعظم منجزات الإنسان الحضرية ولقد عرفت حضارات الشرق القديم من سومرية وفرعونية أعرق المدن في هذا العالم، كما عرفتها الحضارات اليونانية والرومانية.

المنظور الجيوبوليتيكي لمواقع المدن العربية

موقع المدينة هو المكان الحيوي والنقطة الحساسة على صفحة الحيز الأرضي بمعناه الطبيعي والبشري. ويعد الموقع أهم عنصر جغرافي ترتبط به حياة أو زوالها. ويعبر الموقع عن العلاقات المكانية والموارد المادية والبشرية لها.

وفي ضوء ذلك، فإن الموقع له أثر قيمي معنوي وفكري وهو الذي يرسم الخطط والاستراتيجيات للدول نحو إنشاء المدن من عدمه.

وقد خصص الباحثون لدراسة الموقع دراسات عديدة عن المفهوم الجيوبوليتيكي لمواقع المدن؛ للوقوف على العوامل المؤثرة في حسن اختيار المكان، سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية أو الاجتماعية.

وقد صنف الجغرافيون العرب المدن حسب هيئتها ونوعية النشاط الغالب عليها، فهناك المدينة الحصن والمدينة التجارية، يضاف إلى ذلك معايير أخرى للمدن ألا وهي ضرورة وجود تجمع سكاني وطبقات عديدة مختلفة في الصناعات والمهن.

وهنا تدخل خصائصه الموقعية بدور حاسم لتخدم الأغراض التي تم اختيارها كمدينة المنصورة في مصر التي تتميز بموقع استراتيجي عند ملتقى

الأنهار؛ لتعزيز مهمة الدفاع العسكري والهجوم تجاه الخطر الذي يهدد البلاد.

وتمتاز مواقع أغلب المدن العربية الإسلامية من الناحية التعبوية في أماكن يسهل منها الحركة في المكان ومراقبة الأعداء وسهولة إمداد الجيوش بالمؤن، كمدن البصرة والفسطاط والقيروان والمهدية وواسط.

طبيعة المدن قبل ظهور الإسلام:

لقد اختلفت مظاهر المدينة العربية والبناء عن سابقتها في الدول العربية قبل ظهور الإسلام، إذ كانت المدينة في المنطقة العربية على البحر المتوسط لمصر وبلاد الشام والخليج متأثرة بأنماط الدول الغازية من إغريق ورومان وبيزنطيين. لذلك اختلفت أنماط بنائها بين عصر وآخر وفقًا للحاجات الاقتصادية بالدرجة الأولى، بحيث تركزت المدن في طرق القوافل التجارية البرية منها، مثل القاهرة ودمشق أو البحرية كالإسكندرية وبيروت واليمن. وكانت الأبنية في هذه المدن أشبه بالعشوائية بمظهر قروي للعامة التي كان لها أحياؤها الخاصة بما يتيح لها النوم فقط دون الأخذ بالفراغات الضروية للضوء والهواء من أجل سلامة الصحة العامة؛ مما كان يتسبب أحيانًا بزوال هذه المدن بسبب الأمراض كالهواء الأصفر أو الطاعون، حيث كانت تغلق ويمنع الدخول إليها أو الخروج منها. ومن ثم تندثر مع مرور الأيام والسنين تحت بحر من الرمال ولا يبقى لها أثر، عدا عن أسباب أخرى كالغزو والنهب والسبي والحرق بسبب الحروب.

كانت الكثير من المدن تتشكل لأسباب اقتصادية بحتة كأن تكون عبارة عن محطة للاستراحة لمسافرين القوافل في مواقع ملائمة في البر أو المرافئ، ومن ثم تبدأ في التوسع حتى تأخذ شكل المدينة إذا كان مناخها ملائمًا، مع توفر المياه والسهول المجاورة الصالحة للزراعة بما يكفي حاجات المقيمين وتوفر أراضي للرعي والكلأ. ومع ذلك، فإن هذه المدن كانت تزول وتندثر للأسباب التي ذكرتها آنفًا. وهناك أسباب أخرى منها، تغيير مسار القوافل مما يدفع سكان هذه المدن المستحدثة إلى الانتقال إلى مواقع أخرى مع توقف مورد رزقهم من الاستفادة من استراحة المسافرين عندهم وتبادل الأعمال التجارية.

شيد العرب قبل الإسلام عددًا من المدن والأبراج والحصون في شبه الجزيرة العربية وفي اليمن وحضرموت والحجاز وعمان وغيرها، مثل: مكة ويثرب والطائف وصنعاء. وغالبا ما كانوا يسورون مدنهم بسور محكم وقد استخدموا الخامات المتوفرة مثل الحجارة أو الطوب أو المجلوبة من مناطق أخرى مثل الرخام الملون. كما بنوا السدود القريبة من المدن لري الأراضي الزراعية والشرب.

لقد أوضحت كشوفات علماء الآثار والجغرافيين في العراق ومصر وغيرها من الأماكن قدم ظاهرة سكنى المدن؛ ما يؤكد دور المدن المهم في تطور الحضارة، إذ أتاحت الحياة في البيئة الاجتماعية التي استطاعت الثقافة البشرية في كنفها بلوغ أقصى ما بلغته من أصالة وتطور، فنشأت المدن المعروفة في وديان الأنهار، كوادي الفرات ودجلة والنيل والسند

وغيرها. إلا أن مدن وادي الرافدين كانت أسبق مدن العالم القديم ظهورًا واستقرارًا ولا تزال بقاياها ماثلة كمدينة أور والوركاء وأريدو ونفر وبابل وآشور ونينوى.

وبناء على ذلك، فإن المدينة "نظام اجتماعي واقتصادي وسياسي، كما أنها عمل فني وأداة للاتصال". لذا فالمدينة العربية الإسلامية "ليست مجرد ظاهرة جغرافية أو تاريخية فحسب، بل هي ظاهرة دينية اتسمت بتعبير وتنظيم مكاني حسبما جاء في التشريع الإسلامي، إذ امتزجت فيها القوانين المادية بالقيم الروحية". ولهذا، فإن المدينة الإسلامية تعد انعكاسًا لنظام عقائدي واجتماعي وثقافي، فنسيجها الحضري وتكوينها الفضائي جاء نتيجة لتفاعل الإنسان مع بيئته الحضرية تحت مفهوم عام هو الإسلام. ومن الملاحظ أن أغلبية المدن الإسلامية لم تنشأ في عصر صدر الإسلام من قبل المسلمين أنفسهم، الأمر الذي كان من الواضح دور التحول في الفكر وتأثيره في تغيير معالم المدينة وتحويلها إلى طابعها الجديد المتأثر بالمنظومة الكامنة التي هي هنا الفكر المتمثل بالدين الذي يمثل نموذجًا حضريًّا للتعايش بين الناس.

الأسباب التي دفعت المسلمين إلى إنشاء المدن:

هنالك عدة عوامل دفعت المسلمين لإنشاء المدن خارج شبه الجزيرة العربية؛ أهمها:

١- **العامل السياسي:** أنشأت بعض المدن الإسلامية لتكون مركزًا للخلافة ومقرًّا للسلطة الحاكمة. وخير مثال على ذلك مدينة بغداد التي أنشأها أبو جعفر المنصور لتكون مقرًّا للخلافة العباسية.

كانت مستويات التدخل السياسي في عمران المدينة الإسلامية، محددة بمعايير واضحة وكل تدخل وافق هذه المعايير كان جزءًا من الحضارة الإسلامية.

٢- **العامل العسكري:** كانت الغاية العسكرية الدافع الرئيس لبناء المدن الإسلامية؛ لتكون مأوى للجنود والقادة العرب الفاتحين وأيضًا معسكرات ليستريح الجنود فيها. لذلك كان من المهم اختيار الموقع المناسب لتحقيق هذه الغاية.

٣- **العامل الاقتصادي:** بعد استقرار الحكم الإسلامي في البلاد المفتوحة، أصبح الهدف من بناء المدن هدفًا اقتصاديًّا، بحيث تصبح هذه المدن مراكز تجارية يأتي إليها التجار والمتسوقين من إنحاء البلاد المفتوحة مما يساعد على تثبيت الحكم في تلك البلدان.

٤-العامل الديني: أنشأت بعض المدن لتكون مركزًا روحيًّا ودينيًّا لبعض الفرق الإسلامية، وخير مثال على ذلك بناء مدينة القاهرة لتكون مركزًا دينيًّا للخلافة الفاطمية الشيوعية.

٥-العامل الدفاعي: كانت الغاية من بناء المدن في بعض الأحيان تحصن من الأعداء، فقد بنيت بعض المدن على الحدود لتكون بمثابة حصون في حالة الحرب.

نشأة المدن الإسلامية

في الوقت الذي كانت الحياة المدنية تشهد نكوصًا ملحوظًا في العصور الوسطى، نجد أن حضارة جديدة اجتاحت بلاد الشرق وهي الحضارة العربية الإسلامية وكان من الطبيعي أن تنشأ في ظل الدول العربية طائفة من المدن مثل البصرة والكوفة والموصل والفسطاط والقيروان وواسط وبغداد وسامراء، وغيرها من المدن التي كانت تتمتع بشهرة واسعة في عصر الدولة الإسلامية.

والمتأمل في كتب التاريخ والأبحاث العلمية يجد أن نشأة المدينة الإسلامية بدأت من "يثرب" بعد هجرة الرسول ـ ﷺ ـ إليها التي حولتها إلى "مدينة" بمفهوم حضاري واضح، فسميت بـ"المدينة المنورة" كمركز للدولة الإسلامية بعد الهجرة، ونواة لمدن أخرى. ثم حدث تغيير واضح سعى إلى تحقيقه الرسول ـ ﷺ ـ أساسه الدعوة إلى الإسلام، ذلك الدين الذي بدأت في ضوء قيمه وتعاليمه عملية تهيئة المجتمع الإسلامي الجديد لحياة حضارية تلازمت تمامًا مع اهتمامه بالكيان المادي للمدينة، فأدى ذلك تدريجيًا إلى تكامل المراكز الحضارية الإسلامية.

وبعد هجرة الرسول ﷺ إلى يثرب، بدأت تتغير معالمها العمرانية تغيرًا جمع شتاتها ووحد كيانها وجعلها مركزًا حضاريًّا متكاملًا يتناسب وذلك

التغير الذي طرأ على مجتمعها الإسلامي الجديد الذي بدأ يستجيب للتشكيل الحضاري الجديد الذي يدعو إليه الإسلام.

فالمدينة الإسلامية صاغت من كل الأمم التي اعتنقت الإسلام مجتمعا جديدا ذابت فيه المجتمعات القبلية تحددت تدريجيا معايير وتوجهات قائمة فيه على المنهج الحياتي الذي حدده الإسلام وصارت مبادؤها وقيمها مع مرور الأيام نوعا من العرف العام له وظيفة القانون صار تطبيقه سلوكا عاما يلتزم به المسلمون حيث كانوا في هذا الإطار المادي الذي أخذ شكلا خاصا يطلق عليه المدينة الإسلامية.

أسباب إنشاء المدن

اختلفت الأهداف التي أنشئت من أجلها المدن الإسلامية؛ فمنها ما بدأ على هيئة معسكرات حربية ثم تطور إلى هيئة مدينة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان ومنها ما اتخذ لأغراض إدارية، كواسط، ومنها ما أنشئ كعواصم أو حواضر للدولة الحاكمة أي لأغراض سياسية كبغداد والقاهرة وفاس وغيرها. ومنها ما كان في بدايته مناطق ارتكاز تحصينية للدفاع. وبمرور الزمن، غلب عليها الطابع المدني وتحولت إلى مدن كالرباط وغيرها، ومنها ما نشأ مرتبطًا بعوامل دينية كمدينة النجف الأشرف وكربلاء والكاظمية المقدستين وغيرها. ورغم تأثر التخطيط بهذه العوامل المختلفة تأثرًا واضحًا لا سيما في مرحلة النشأة الأولى، إلا أنه بصفة عامة كان هذا التخطيط يقوم على محاور أساسية توجهه توجيهًا إسلاميًا واضحًا صاغ

تخطيط المدينة الإسلامية صياغة مميزة جعلها . رغم اختلاف أقاليمها وعصورها والعوامل المؤثرة في تخطيطها– تتسم بسمات عامة واحدة.

السمات الأساسية في المدينة الإسلامية :

١– يتم التوزيع السكاني على أساس قبلي.

٢– يكون السوق بجوار المسجد.

٣– تكون المقبرة خارج أسوار المدينة.

٤– الشارع الرئيسي يتجه صوب المسجد.

وعادة ما تحتوي المدينة الإسلامية على المساجد والأسواق والبيوت والخانات والحمامات ومراكض الخيل ومعاطن الإبل ومرابض الغنم والأسوار.

الرؤية الإسلامية المعمارية لتخطيط المدن :

كان لظهور الإسلام كحالة جديدة من تغيير شاملة في شتى النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، على خارطة العالم، أثر واضح في تطوير الكثير من المفاهيم المرتبطة بالعمران والتحضر وتخطيط المدن، فالحضارة الإسلامية هي حضرية في حد ذاتها.

ولقد تطورت المفاهيم الحضرية في الإسلام عبر مستويين أساسيين يتمم أحدهما الآخر، الأول ارتبط بالجانب الفكري النظري الذي يمكن تتبعه بشكل واضح في الكثير من مصادر الفكر الإسلامي وحيث أشار المفكرون المسلمون إلى العديد من المبادئ الأساسية المرتبطة بموضوع تخطيط المدن، منها ما ارتبط باختيار المواقع ومنها ما أكد على أساليب التخطيط، وتبرز هنا كتابات ابن الربيع وابن خلدون وغيرها.

أما المستوى الثاني في تطور مفاهيم تخطيط المدن، فقد ارتبط بالجانب العملي وإنشاء التكوينات المعمارية والتي سادت في توافق تام مع أحكام البناء التي أقرها فقهاء المسلمين استنادًا إلى الكتاب والسنة. وقد تجلى اهتمام الحكام المسلمين بهذا الجانب بمشاركتهم الفعلية في عمليات اختيار المواقع للمدن ومتابعة أعمال إنشائها، وأوضح مثال على ذلك مشاركة الخليفة المنصور في إنشاء بغداد المدورة.

الرؤية الإسلامية في تخطيط المدن كانت شاملة مراعية لجوانب التخطيط المختلفة، سواء كانت هذه الجوانب عمرانية أو اقتصادية أو اجتماعية، ولا يعمم عليها ما ذكره بعض الباحثين من أن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لم تكن في اعتبار المخططين للمدن في الحضارات القديمة وأن الاهتمام بهذه الجوانب حديث العهد.

والتخطيط باختيار "الموقع" ونعني بذلك موقع المدينة وعلاقتها بما يحيط بها وأثر في اختيار مواقع المدن الإسلامية عوامل مختلفة اختلفت

طبيعتها من مدينة إلى أخرى لا سيما تلك العوامل المرتبطة بالنواحي الحربية أو السياسية واتفقت في توافر شروط أساسية وجب توافرها في اختيار أي موقع. وتتردد هذه الشروط بصيغة أو بأخرى في المصادر الجغرافية التي تتحدث عن مواقع المدن وصفاتها الحسنة؛ ما يؤكد عمق الإدراك بهذه المعايير التي تميز المواقع الصالحة لإنشاء المدن.

كما يقول البعض إن أحسن مواضع المدن أن تجمع بين خمسة أشياء، وهي: النهر الجاري والمحراث الطيب والمحطب القريب والسور الحصين والسلطان العادل.

وبعد اختيار الموقع، يأتي "تخطيط الموضع". وموضع المدينة يعني المساحة التي تقف عليها مشتملة على المعالم الدقيقة للأرض التي يبدأ الاستقرار فوقها وينتشر عليها ويؤثر فيها تخطيط هذا الموضع يعني تنسيق النظام المادي الطبيعي للمدينة التي تمثله كتلتها المبنية وارتباطها بمجتمعها الحضري ومرافقها وخدماتها في انسجام وتوافق تام مع الحاجات الاجتماعية والاقتصادية لسكانها.

تصنيفات المدن:

لقد صنف أحد المستشرقين "وليم مارسيه" المدن على أساسين:

أولا . المدن القديمة: هي المدن التي كانت موجودة قبل الفتح الإسلامي.

ثانيا. المدن المخلوقة: وهي المدن التي مصرت بعد الفتح الإسلامي كمدن الكوفة والفسطاط والموصل.

تصنيف المدن الإسلامية:

أسس المسلمون الكثير من المدن الإسلامية الجديدة منذ هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة.

وصنفت هذه المدن الإسلامية تبعا لوظائفها وقت تأسيسها والأهداف التي أنشئت من أجلها، فمنها ما بدأ على هيئة معسكرات حربية ثم تطور إلى هيئة مدينة، ومنها ما اتخذ لأغراض إدارية كواسط، ومنها ما أنشئ كعواصم أو حواضر للدول المتتابعة ومنها ما كانت في بداية مناطق ارتكاز تحصينية للدفاع. وبمرور الزمن غلب عليها الطابع المدني وتحولت إلى مدن كالرباط والمونستير ومجريط (مدريد) وغيره ومنها ما نشأ ونما مرتبطا بعوامل دينية كالنجف وكربلاء والكاظمية وغيرها.

١- المدن العسكرية (المعسكر أوالفسطاط):

وهي المدن التي نشأت عن مخيم عسكري أُقيم إما في المنطقة المجاورة للمدينة كالفسطاط أوالقاهرة القديمة التي أنشئت بالقرب من حصن بابليون الروماني أو في مواقع منعزلة نسبيا عن المستقرات المنافسة، مثل: الكوفة والبصرة في العراق والقيروان في تونس. إن هذه المعسكرات نمت وحافظت على عمرانها وأصبحت مأهولة بالسكان إلى يومنا هذا، حيث

تحولت هذه المعسكرات بسرعة إلى مراكز حضرية وهو أحد العوامل المهمة في تثبيت شخصية الإسلام وتسهيل مهمة الفتوحات الإسلامية. فالبصرة والكوفة التي أنشأهما العرب المسلمون تعدان في مقدمة المدن العربية الإسلامية في العراق خاصة وفي العالم الإسلامي عامة؛ تركت كل منهما طابعا سياسيا واجتماعيا في التاريخ الإسلامي.

٢- المدن المحصنة أو الرباط :

تأسست هذه المدن كقلاع على الحدود أو داخل البلاد لتأكيد نفوذ الدولة الإسلامية وحماية حدودها وكان أصل هذه القلاع مواقع عسكرية أو حاميات على الحدود وقد نمت وبرزت إلى الوجود كمدن محصنة وأصبحت نويات لمدن مهمة، مثل: الرباط في المغرب والمنستير في تونس .

٣- المدن الأميرية :

نشأت هذه المدن نتيجة ازدياد النفوذ السياسي أو القوة السياسية. أنشأها الحكام لتعبر عن السلطة السياسية للدولة بتأسيس عاصمة جديدة خاصة بها، كمدينة بغداد التي أسسها العباسيون.

المدينة الإسلامية ليست فقط التي بناها المسلمون أو المدن الملكية التي بناها الأمراء مقرًّا للحكم والسكن؛ ولكنها الوحدة الحضارية التي نشأت وتطورت فيها الحضارة العربية الإسلامية بمراكزها ومؤسساتها وبطرائق البناء والعمران وعاداتها في المأكل والملبس والأعياد الدينية

والتقاليد. فكلمة المدينة الإسلامية تعالج معنى أوسع من مدينة المسلمين؛ فالمدينة الإسلامية صاغت من الأمم التي اعتنقت الإسلام مجتمعًا جديدًا ذابت فيه المجتمعات القبلية وتحددت تدريجيا معايير وتوجهات قائمة على المنهج الحياتي الذي حدده الإسلام وصارت مبادئها وقيمها مع مرور الأيام نوعًا من العرف العام له وظيفة القانون وإلزاميته وصار تطبيقه سلوكًا عامًّا يلتزم به المسلمون حيث كانوا في هذا الإطار المادي الذي أخذ شكلًا خاصًّا يطلق عليه المدينة الإسلامية.

العوامل التي كونت المدينة والعمارة الإسلامية:

بعد الهجرة النبوية الشريفة من مكة (أم القرى) إلى يثرب، تغير نوع التعايش والتعامل الحضري داخل يثرب لوجود القيادة الإسلامية على يد مؤسس الدولة الإسلامية الحضرية وهو الرسول (ﷺ)؛ فقد لوحظ أن الجماعات الإسلامية المهاجرة من مكة إلى يثرب استوطنت في هذا المركز الحضري الجديد وتغير اسم هذا المستوطن وسمي "المدينة" بعد أن كان سكانها فقط من الأوس والخزرج وبعض اليهود ذوي العلاقة السلبية مع كل التجمعات الموجودة معهم آنذاك. وبعد الهجرة أصبح الاندماج والانصهار الحضري الجديد من قبل الأوس والخزرج والمهاجرين ذا رسالة إسلامية واحدة وبفكر قيادي متمركز في المدينة ما عدا شرذمة من اليهود الذين كان تاريخهم سلبيا مع المد الإسلامي من ناحية التعايش والتعامل، ثم امتدت آثار هذا النموذج من التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وخاصة بعد فتح مكة؛ حيث تم الانصهار الكامل للتعامل في جميع سكان

مكة والمدينة وأصبح نموذجًا يحتذى به إلى الآن، وتكَون مفهوم حضري اجتماعي حديث في مكة والمدينة من ناحية التسلسل النمطي لهاتين المدينتين المحررتين حيث الجامع أو الكعبة في الوسط والأسواق حولها، ثم السكن للطوائف والقبائل وحسب تسلسل انتمائها زمنيا ومكانيا للإسلام. أما بقية التجمعات للأديان السمأوية الأخرى مثل اليهود والنصارى، فكانت لهم خصوصية في هذا المجتمع الحديث وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام في الوقت الحاضر مع بقاء دين الدولة الإسلام.

إن هذا التحضر الإسلامي الجديد كان حديثًا في التطبيق والتنفيذ داخل الجزيرة العربية ثم أصبح بعد ذلك نموذجًا يحتذي به بعد الفتوحات الإسلامية شرقا وغربا واعتبر من أفضل الحلول التخطيطية الحضرية والعمرانية للتعايش والتعامل آنذاك.

وبعد انتشار الفكر الإسلامي، بدأت الفتوحات تنتشر خارج الجزيرة العربية، وخاصة في الشام والعراق، حيث نلاحظ أن هناك نوعين من نجاحات هذا التعايش داخل المدن المفتوحة في الشام والعراق. ففي الشام فقد سكن المسلمون الفاتحون المدن المفتوحة وبتجمعات خاصة بهم أول الأمر ولكن ضمن المدن المفتوحة مثل دمشق والقدس الشريف وحلب، وانصهرت بعد ذلك تلك التجمعات السكانية تحت لواء الإسلام، حيث كانت المناطق الإسلامية المتاخمة للنصارى أكثر تقدمًا حضريًّا عن بقية المناطق وذات نوعية عالية من ناحية الاندماج نظريًّا وعمليًّا، فبدأ سكان المدن القديمة من النصارى واليهود يندمجون مع المسلمين الفاتحين بطريقة

سلمية وتأثروا بالمبادئ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية للساكنين، إذ أن قسمًا منهم دخل الإسلام وحسن إسلامه وأصبحت الكثير من أنماط حياتهم داخل هذا المجتمع الجديد متأثرة بفقه الإسلام وتعاليمه؛ مما أثر أيضًا على تخطيط المدن المفتوحة الجديدة.

أما في المدن الممصرة الإسلامية، ولاسيما في العراق ولكون دولة فارس قبل الفتح الإسلامي كانت تتدين بالديانة المجوسية القديمة، فقد حاول الخلفاء المسلمون أن يشيدوا لهم مدنا أو حواضر جديدة مبنية بأيدٍ إسلامية وبتخطيط هندسي إسلامي روعي فيه الهندسة العمرانية الجديدة وحسب المفهوم الإسلامي المتطور عن مدينة يثرب ومكة المكرمة وبمقياس أكبر تقدما، إذ أن المهندس أو المخطط الحضري المسلم صمم ونفذ مدنًا جديدة روعي فيها مفاهيم الإسلام وبتطبيق حيوي ساعده نظام الحسبة بكل أشكاله، أخذ بعين الاعتبار توجيهات وضع المسجد الجامع أولًا ثم سكن القوات وبقية أفراد المجتمع مع ملاحظة توفير الأسواق وبقية الخدمات الاجتماعية لساكني تلك الحواضر. وبطرق مبتكرة متقدمة حضاريا وهندسيا عن مدن فارس والروم، ومن هذه المدن المهمة البصرة والكوفة وبغداد وسامراء.. إلخ.

نستنتج أن أهم العوامل التي شكلت تكوين الحاضرة الإسلامية عوامل (دينية، بيئية، يضاف إليها عامل ثالث: الإنسان)، وذلك معتمدة على درجة تفاعل الإنسان مع العاملين الديني والبيئي.

العوامل المؤثرة في تخطيط المدن والعمارة الإسلامية:

تأثر تخطيط المدينة والعمارة الإسلامية بعوامل ومؤثرات كثيرة شكلت هيكل المدينة والعناصر المعمارية، و من أهم هذه العوامل ما يأتي:

١- فتوحات الإسلام في بلاد متحضرة شرقا وغربا واتساع نطاق الإمبراطورية الإسلامية من الهند إلى الأندلس.

٢- البواعث الدينية والنظم السياسية والاجتماعية والتشريعية التي أوجدها الإسلام ومفهوم كل شعب منها.

٣- فنون الأمم العربية التي استوطنت أطراف الجزيرة ومجاورتها للأمم المتمدنة وتأثير فنون هذه الأمم على فنون العرب والعمارة قبل الإسلام.

٤- تأثير بقايا الحضارات السابقة في الأقاليم والبلاد المختلفة على العمارة الإسلامية مثل ظهور الطراز المعماري الأول في سوريا حيث أقام الأمويون دولتهم، فتأثرت عمارتها بعمارة الفن البيزنطي. وفي بغداد حيث ظهرت الدولة العباسية، فتغيرت أساليب العمارة وغلبت الأساليب الفارسية على عناصر العمارة الإسلامية.

٥- الاقتباس من فنون الأمم الأخرى التي أصبحت تحت حكم العرب مع صبغها بالروح الإسلامية وبقاء صبغها محليا

واستخدام الصناع من مختلف البلاد وتأثير مهاراتهم على الفنون الإسلامية.

٦- تعدد مواد البناء وأنواعها في مختلف الأقاليم.

٧- اختلاف الطقس والمناخ، معتدل على سواحل البحر الأبيض المتوسط غزير الأمطار في الشتاء، شديد الحرارة ومشمس، وأمطار نادرة في معظم أنحاء البلدان العربية- في الأندلس أمطار غزيرة وثلج في الشمال وفي بعض المناطق الجبلية.

الأُطُر العامة لإنشاء المدن الإسلامية:

وتتجسد هذه الأطر والعوامل المكونة لنشوء المدن الجديدة في العوامل الطبيعية الفيزيائية المؤثرة والشروط الاجتماعية النفسية. بالإضافة إلى النظم السياسية الاقتصادية الفاعلة وأقوى هذه العوامل كان في الفترة الأولى الوضع الجغرافي وحاجة الجيوش الإسلامية لقواعد هجوم أمامية وأخرى خلفية للإمداد.

فقد نشأت أولى المدن في الإسلام من تحول وتطور معسكرات والإمداد. ولعل اسم بعضها يكشف بجلاء طبيعتها وأصلها، مثل: البصرة والفسطاط والقيروان.

وسرعان ما شهدت هذه المدن توسعًا برسوخ وثبات أمورها وأخذت طابعًا مدنيًا خاصًا بدأت تعلن تكوين شخصيتها وهويتها المتميزة.

ومن أهم المعايير التي استحدثها الإسلام في عمارة المدن:

١- المسجد ومركز الحكم والإمارة يمثل مركز المدينة وجميع الطرق الرئيسة في المدينة تصل بين المناطق السكنية ومركزها المتضمن المسجد الجامع وقصر الإمارة والسوق الرئيس بالمدينة.

٢- دور الطبقة الغنية من السكان التي تقع على امتداد الطرق الرئيسة وتمتاز بسعة مساحتها وتعدد غرفها. بينما تقع أحياء الطبقة الفقيرة من السكان خلف الأحياء السكنية للطبقة الغنية، وهي مساكن صغيرة المساحة على جانبي أزقة طويلة ملتوية.

٣- التدرج في الشوارع، فنجد الشارع الأعظم في البصرة بالعراق ٦٠ ذراعًا و٢٠ ذراعًا لغيره. أما الأزقة أو الدروب، فقد حددت بـ٧ أذرع وهذا المقياس وارتبط تحديد مقاييس الطرقات وتدرجاتها بعوامل مختلفة منها ما هو مستقل أصلا بنظام تخطيط المدينة ومنها مرتبط بطبيعة الموقع والمناخ وطريقة ونوعية الارتفاق.

٤- نظام الأسواق التخصصي بحيث نجد أسواق الحدادة- العطارة- النجارة- الصناعات التقليدية.

٥- تعدد مرافق المدينة في المدة الإسلامية الأولى من حمامات ومدارس وزوايا ومستشفيات وخانات.

٦- الأسوار وتحاط أغلب المدن بأسوار وخنادق؛ لتحميها من هجمات القبائل المتجولة وأطماع الحكام المجاورين. منطقة الضواحي وتقع خارج السور، حيث تتواجد الحقول الزراعية والمراعي التي تحتضن القرى كمراكز للاستيطان.

٧- النظام الإداري المتميز في المدينة الإسلامية، حيث يوجد نظام الحسبة والمحتسب وهو جهاز يختص بالشؤون الحضرية ومتابعة الجوانب التخطيطية للمدينة، مثل: المحافظة على الطرقات واتساعها ونظافة الشوارع ومراقبة المباني وارتفاعها وعدم الإطلال على الجار وتفادي أخطار النشاط الحرفي على المارة هذا بالإضافة لمراقبة الأسواق.

وبذلك أوجدت الديانة الإسلامية العديد من العناصر المعمارية مثل المسجد والمآذن، كما أثرت على تحسين العديد من العناصر المعمارية الأخرى مثل القوس والقبة والعمود والصحن والإيواء حتى أخذت هذه العناصر أشكالًا متطورة حتى وصلت في العمارة العثمانية والأندلسية إلى مستويات عالية من الدقة والروعة.

معالم المدينة الإسلامية:

تميزت المدينة الإسلامية بمعالم كثيرة كان لها دور كبير في الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والصحية في المجتمع الإسلامي، فمن أهم هذه المعالم ما يلي:

١- **المسجد:** يعتبر المسجد من أهم معالم المدينة الإسلامية لأنه يدل على طابعها الإسلامي. لعب المسجد دورًا مهمًّا في الحياة الدينية والثقافية والسياسية والاجتماعية. فمن ناحية دينية كان المسجد مكانًا للصلاة والشعائر الدينية. أما من الناحية الثقافية، فكانت المساجد بمثابة مدارس لتعليم الفقه وحفظ القرآن والتفسير واللغة العربية. ومن الناحية الاجتماعية كان ملتقى للناس يتبادلون فيه الحديث حول العلاقات الاجتماعية فيما بينهم. ومن الناحية السياسية كان للمسجد دور مهم بحيث تتم فيه البيعة للخليفة وينبغي على الخطيب أن يذكر اسم الخليفة في خطبته يوم الجمعة ويقوم الخليفة أو من ينوب عنه بإعطاء تعليماته للرعية في المسجد.

٢- **السوق:** كان السوق من أبرز معالم المدينة الإسلامية. كان موقعه وسط المدينة غالبًا، كان للسوق دور مهم في الحياة الاقتصادية عبر العصور؛ حيث يزود الناس بكل ما يحتاجونه من مستلزمات. أما على الصعيد الاجتماعي؛ فالأسواق كانت ملتقى للناس على مختلف طبقاتهم وأنواعهم وفئاتهم.

٣- **دار الإمارة:** وهي من أهم معالم المدينة الإسلامية، تأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد المسجد؛ بحيث كانت مقرًّا للخليفة أو مقر للولاة الذين ينوبون عنه في المدن. كانت دار الإمارة مهمة جدا؛ لأنها لعبت دورًا مهمًّا في الحفاظ على الأمن والاستقرار.

٤- **الحمامات:** موجودة قبل ظهور الإسلام، فقد اعتنى المسلمون بتزويد المدن الإسلامية بالحمامات، إلا أن الحمامات الإسلامية أخذت طابعًا إسلاميًّا يعتمد على الأحكام الفقهية في عمارتها وزخرفتها وقد انقسمت الحمامات إلى قسمين: حمامات خاصة وعامة.

كان للحمامات دور مهم في حياة الناس الصحية؛ كمكان للطهارة والنظافة وبالإضافة إلى ذلك لعبت دورًا مهمًا في المجال الإجتماعي، إذ كانت ملتقى للناس فيتبادلون شؤون قضاياهم.

٥- **البيمارستانات (المستشفيات):** أنشأت المستشفيات في الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك؛ فكانت من معالم المدينة الإسلامية كان لها دور مهم في الجانب الصحي والاجتماعي والثقافي.

٦- **الأربطة:** وكانت الأربطة تقوم بمهمة حراسة السواحل وحمايتها من الغارات البحرية المفاجئة، وغالبا ما كان يلحق بالأربطة منارات أو طلائع؛ لاكتشاف العدو قبل اقترابه من الساحل بمسافة بعيدة وتحذير

سكان المدن الساحلية من خطر الأساطيل المعادية واستنفار المسلمين لقتالها.

٧- **الخانات، الوكالات، القيسريات**: وتعني الفنادق، بمعناه المتعارف عليه وكانت هذه الأبنية قديمة في العهد الروماني وقبله. أما بدايتها في العصر الاسلامي، وتحديدًا فى العصر الأموي، وكانت تسمى دور الضيافة، بحسب المؤرخين الذين كتبوا عنها، كدار الضيافة في دمشق، كما تحول قصر الحير الشرقي الذي بناه هشام بن عبد الملك لاستقبال القبائل العربية لاحقًا لخان للمسافرين.

وقد انتشرت هذه العمارة في العصر العباسي ولم يبق لنا في بغداد المنصور بعد هدمها من المغول ما يذكر إلا أن أقدم خان في بغداد موجود يعود للقرن الخامس عشر وهو خان مرجان ويبدو أن حكم السلاجقة والمماليك أتى بتسميات جديدة على العربية.

وقد اشتهرت حلب أيضًا بخاناتها وكانت تبنى للتجار وتسمى باسم الصنعات، كخان الحرير وخان الصابون وغيرها

وفي كل المدن العربية الأخرى كالقاهرة وكالة الغوري، وفندق النجارين بفاس .

تخطيط المدينة الإسلامية

يقصد بتخطيط المدينة عملية تحديد وتعريف أفضل طريق لتحقيق أهداف معينة ثم اختيارها وفقًا لاعتبارات معينة للتوصل إلى أفضل الموارد البيئية.

وقد مر تخطيط المدن قبل ظهور الإسلام بمراحل متعددة، وما دراستنا لتخطيط المدينة الإسلامية إلا لكوننا نعتبره إحدى السبل التي من خلالها نستطيع تفسير الطراز المعماري ومصادره وأصول أفكاره في عمارتنا الإسلامية التي تميزت بالبعد الفكري العميق وبالحس الهندسي الرياضي واللذين أضافا عليها طابعًا متميزًا على مر العصور.

يجسد المعماري المسلم الخيال والإحساس مع هندسية متجانسة وربطهما في قالب واحد، فينتج الشكل الذي يعطي حقيقتين أحدهما فيزيائية نعقلها والأخرى ميتافيزيقية ندركها ونعطيها هيئة مرئية لاستيعابها. ويساهم ربط الأفكار مع الموجودات الهندسية والرياضية في إبداع الطرز والتي لا تنتج دون وجود إمكانيات الحس الهندسي والرياضي للجمال والتجانس. وبذلك فالفكر والهندسة والرياضيات توضع في صميم العمارة الإسلامية؛ حيث إن ترتيب العناصر المادية في التصميم يكون باتباع قوانين الهندسة على أساسيات النظريات الرياضية لتكوين الأنماط التصميمية. لذا هذه التخطيطات الحضرية الجديدة، كانت متماشية مع روح العصر وجوهر

الفهم لأهمية التعايش والتعامل تحت راية الإسلام، فهذه المدن في العراق أصبحت آنذاك أطلسًا حضريًّا ونموذجًا يحتذى به إلى الآن وكانت النظريات التخطيطية الهندسية ذات مدارس عملية وعلمية من ناحية التنفيذ لإعطاء الأهمية لفكرة التعايش والتعامل داخل تلك المدن.

بعد هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، وكانت حينها فرقا غير متجانسة، فعمد إلى توحيدها بأن جمع بين المهاجرين والأنصار برابطة المؤاخاة وشرع في وضع نظام للحياة الاجتماعية يكون دعامة للوحدة بين سكان المدينة، وعمل الرسول ﷺ على توزيع الخطط ومنهجه في توزيع الخطط هدف إلى تجميع كل قبيلة في خطة خاصة بها وتركت حرية تقسيم الخطة للقبيلة وفقا لظروفها وإمكاناتها في الإنشاء والتعمير ومدى الحاجة إلى ذلك.

وقد تميزت المدن في العصور الإسلامية الأولى باتجاهات تخطيطية وعمرانية كانت وليدة احتياجات وظروف سكانها؛ حيث لم يكن علم التخطيط معروفا بمفاهيمه ونظرياته المعاصرة، كما أن وسائل البناء في العصور القديمة كانت تختلف كل الاختلاف عن مثيلاها الحالية. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظهرت اتجاهات تخطيطية وعمرانية تمثل قيمًا ومبادئ ومعايير في التخطيط والعمارة، وعليه تعتبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى مثالية من وجهة نظر التخطيط المعاصر بنظرياته الحديثة؛ لما حققته من توافق وتطابق بين الاحتياجات المادية والمعنوية التي جاءت تشكيلًا فراغيًّا يعبر عن المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

ومن أهم المدن الإسلامية التي تأسست: البصرة سنة (١٤هـ) والكوفة سنة (١٧هـ) والفسطاط سنة (٢١هـ)، ويمكننا القول إن هذه المدن أوجدت في بادئ الأمر بهدف العامل العسكري؛ لتكون قواعد عسكرية للجنود في الأقطار المحررة لإيواء الجند المسلمين وعوائلهم. وحسب رواية الطبري، فإن أول من التفت إلى أهمية إنشاء هذه القواعد، هو القائد عتبة بن غزوان الذي كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب كتابًا يستأذنه فيه بإقامة معسكر لجند المسلمين، قال فيه إنه لابد للمسلمين من منزل إذا أشتى شتوا فيه وإذا رجعوا من غزوهم لجأوا إليه، وقد سار نظام تخطيط هذه المدن على غرار نظام تخطيط المدينة، فهي وحدة تخطيطية أساسية وهذا النظام قام على أساس القبيلة باعتبارها هيئة اجتماعية وكانت هذه الهيئة مرنة تمتد أو تنكمش لتناسب العدد القياسي من السكان الذين تتسع لهم هذه الخطة، ومن منظور آخر يعكس هذا النظام أهمية التكيف الاجتماعي وعوامله ومقوماته، فقد أدى هذا النظام إلى عدم جمع أضداد مختلفة اجتماعية في موضع واحد؛ لأن ذلك ربما يتسبب في خلافات إجتماعية تنعكس على حياة المدينة بأسرها. وكان إنشاء سامراء من أسباب ذلك الخلاف الذي حدث بين أجناس العرب والفرس والترك في بغداد. ومن ثمة فإن هذا النظام القبلي لخطط المدينة الإسلامية في عهدها المبكر اتسم بالديناميكية التي لم تسمح بإنشاء أكثر من خطة للقبيلة الكبيرة وتجمع القبائل الصغيرة والأفراد في خطة واحدة في إطار يهدف إلى سهولة إدارة المدينة واستنفار الجيوش ويمنع تفتت الوحدة الاجتماعية.

الخطة:

تعني مساحة من سطح الأرض تغيرت بالتركيب العمراني فقط. بينما يشتمل التخطيط كل ما يتعلق بالمدينة طبيعيا وحضاريا وسكانيا وعمرانيا وإقليميا.

كما جاء في "لسان العرب": التخطيط: التسيطر، التهذيب: التخطيط كالتسيطر.. والخط الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك. وقد خطها لنفسه خطا واختطها وهو أن يعلم عليها علامة بالخط ليعلم أنه قد اختارها ليبنيها دارًا منه خطط البصرة والكوفة.. وجمع الخطة خطط..."

وجاء في "الأحكام السلطانية" عن خطط البصرة، ما نصه:

"وقد مصرت الصحابة البصرة على عهد عمر وجعلوها خططًا لقبائل أهلها، فجعلوا عرض شارعها الأعظم وهو مربدها ستين ذراعا وعرض ما سواه من الشوارع عشرين ذراعا وعرض كل زقاق سبعة أذرع، ووسط كل خطة رحبة فسيحة لمربط خيلهم وقبور موتاهم وتلاصقوا في المنازل. ولم يفعلوا ذلك إلا عن رأي اتفقوا عليه ونص لا يجوز خلافه. وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن رسول ﷺ، قوله: "إذا تدارأ القوم في طريق، فلتجعل سبعة أذرع".

يفهم مما جاء في "اللسان" بشأن التخطيط أو الخطط؛ أنها عملية تنظيمية لأرض أو مكان معين لم ينزل من قبل بحيث يعده المخطط ليكون مكانًا للسكن أو لغيره من ضروب الانتفاع والاستيعاب البشري. وقد جاء في "الأحكام السلطانية" مثال واضح يبين الكيفية التي يتم فيها التخطيط والتمصير، وذلك عندما خططت البصرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ثم ذكره لحديث الرسول ﷺ في سعة الطريق، ولتراجع كتب الأحكام السلطانية للمزيد.

واليوم مع تطور وتباين سبل تخطيط المدن وتبدل الحاجات وتجدد الثروات المتاحة الظاهرة والباطنة، ظهرت أنواع جديدة من المدن على ضفاف الجزيرة العربية الشرقية لتحقيق أهداف جديدة وأصبحت خطط المدن في يومنا هذا تضم أبعادًا مكانية وزمانية ومرحلية تقدر فيها الحاجات حسب عمر الخطة إن كانت قصيرة أو متوسطة أو طويلة الأجل. كما يرتبط بذلك بعض الأهداف المتعلقة بنوع المدينة الجديدة وعلاقاتها بالمدن الأخرى الرئيسية والثانوية.

لقد عُرف تخطيط المدن منذ القدم وظهر أوائل مخططي المدن منذ عصور ما قبل الميلاد أمثال هيبودامس الإغريقي، كما عني الفلاسفة أيضًا منذ القدم بعملية وضع رؤى مستقبلية لتكوين المدينة وحجمها أمثال أفلاطون وأرسطو وغيرهم. ولعل طروحات ابن خلدون في هذا المضمار تمثل أفكارًا ناضجة ومهمة في مجال علم تخطيط المدن، حيث يرى ابن خلدون أن: (الميل للاستقرار وتأسيس المدن يعد مرحلة من مراحل التطور

الحضاري والتحول الاجتماعي؛ فالمدن في رأيه لا تظهر بصورة مفاجئة وسريعة، وإنما تمر بمراحل متراتبة في عملية نشوئها، وتوصل إلى أن المدن تتأثر بالعناصر والموارد الطبيعية للإقليم أو المكان الذي تظهر فيه. فالمدينة لكي تبقى وتستمر لابد أن تحتل موقعا تتوفر فيه مناطق الرعي والزراعة والوقود ومواد البناء الضرورية لسد حاجة سكانها، كما أنها لكي تستمر أيضًا لابد من وجود علاقات اقتصادية لها خارج حدودها).

وعلى هذا الأساس الوظيفي، فقد صنف ابن خلدون الاستقرار الحضري إلى:

١- قرية صغيرة

٢- بلدة

٣- مدينة: حيث تحتوي المدينة على جميع النشاطات والوظائف الاقتصادية الأساسية التي توجد في البلدات الأقل منها مرتبة. إضافة إلى نوع معين ومتخصص من النشاطات التي لا تتواجد بغيرها.

أهداف إنشاء المدن الإسلامية:

١) **أهداف حربية:** حيث بدأت كهيئة عسكرية ثم تطورت إلى مدينة كالبصرة والكوفة والفسطاط.

٢) **أهداف إدارية: مثل مدينة واسط.**

٣) **أهداف سياسية:** لتكون حواضر أو عواصم للدول المتتابعة كبغداد والقاهرة وفاس.

٤) **أهداف كمدن مزدوجة الأغراض:** فتكون في البداية مناطق ارتكازية تحصينية ثم تتخذ للدفاع. ومع مرور الزمن، اتخذت الطابع المدني كالرباط ومدريد.

٥) **أهداف دينية:** أي أنها نشأت ونمت بعوامل دينية كالنجف وكربلاء والكاظمية ولكنها ذات سمات إسلامية.

عوامل اختيار موقع المدينة الإسلامية:

حددها ابن الربيع في ستة شروط؛ مما يؤكد عمق الإدراك بهذه المعايير والشروط التي تميز المواقع الصالحة لإنشاء المدن، وتتمثل في الشروط الآتية، وهي:

الشرط الأول ـ سعة الماء: فهو شرط أساسي في اختيار مواقع المدن؛ فعليه تقوم الحياة وهي نظرة مستقبلية لازدياد متوقع في عمران المدينة.

الشرط الثاني ـ إمكان الميرة المستمدة: وتفسر بإيجاز النظرة الاقتصادية في التخطيط وهو توفير الغذاء؛ فهو شرط أساسي لنشأة المدن واستمرار حياتها فيكون موقعها مرتبط بالإقليم وبالطرق التجارية الرئيسية، فينعكس ذلك على رخائها واقتصادها. فمثلا كانت القاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والموصل عند ملتقى الطرق التجارية ومن المدن الساحلية المهدية والمرية واستتبع ذلك الاهتمام بالمراسي.

الشرط الثالث ـ اعتدال المكان وجودة الهواء: ويؤكد هذا الشرط أهمية المناخ والاعتبارات الصحية في اختيار المسلمين لمواقع مدنهم؛ لأهمية التفاعل بين الإنسان وبيئته الطبيعية. ومن ذلك ما أشار به الفاروق على الجيش الإسلامي بأن يغادر المدائن؛ لما أصابهم من الوهن والضعف وأثر المناخ في تخطيط التكوينات المعمارية كاتخاذ الواجهات والمظلات والعناصر الأخرى المتصلة بالتهوية والإضاءة.

الشرط الرابع ـ القرب بين المرعى والاحتطاب: فصل ابن خلدون وابن الأزرق ذلك؛ فتوفر الزرع والمرعى والوقود والغذاء والأخشاب اللازمة للبناء من مقومات ازدهار المدن لتأمين مصادرها واحتياجاتها الأولية.

الشرط الخامس ـ التحصين: عند اختيار الموقع، لا بد من التحصين الذي يعين على دفع الأخطار وتبرز أهمية التحصين الطبيعي فقد تحيط بها حرات أو تحيط بها خندق مائي كالأنهار.

شروط تخطيط المدينة:

ذكر ابن الربيع ثمانية شروط تعتبر الهيكل الأساسي للمدينة الإسلامية وتركزت على توفر المرافق العامة باعتبار أن السلطة مسؤولة عن توفرها؛ وهي تدل على النظرة العضوية لكيان المدينة الإسلامية فهي بجملتها دار واحدة، وهي:

١. توفر الماء.

٢. تقدير الطرق والشوارع حتى لا تضيق.

٣. بناء المسجد بوسطها.

٤. تقدر أسواقها.

٥. ألا يجمع أضداد قبلية مختلفة.

٦. أن يجعل خواصه محيطين به.

٧. يحوطها بسور.

٨. ينقل إليها أهل العلم والبضائع حتى يستغنوا عن الخروج إلى غيرها.

ومع نشأة المدن وضحت ثلاثة محاور رئيسية تؤثر في بقية العناصر الأخرى، هي:

- **المسجد الجامع**
- **السوق**
- **دار الإمارة.**

وذلك للتكامل الوظيفي فيما بينهم وأصبح تخطيطًا تقليديًّا لكافة المدن الإسلامية.

المسجد الجامع: المسجد يمتاز بوسطية التخطيط العام للمدينة الإسلامية.

السوق: تبلورت تجربة الأسواق حيث صنفت التجارات والحرف وتنوعت الأسواق والمنشآت التجارية. ومع التوسع في الأنشطة التجارية، ظهرت مدن للعامة تجارية مثل إنشاء الكرخ قرب بغداد وزويلة بجانب المهدية المدينة الملكية حتى لا يضيقوا على من يسكنها من الحكام.

دار الإمارة: تكون مجاورة للمسجد الجامع وملاصقة له وقد تغيرت أشكالها؛ نظرا لتغير الظروف السياسية والأمنية وخاصة بعد تحول نظام الحكم إلى ملكي وراثي.

السمات العامة لتخطيط المدينة الإسلامية

كيفية تخطيط المدينة الإسلامية:

١) تخطيط المدينة قام على أسس معينة نابعة من قيم الدين الإسلامي؛ لتفي بحاجات المجتمع المادية الروحية الفردية والجماعية.

٢) الأحكام الفقهية كانت بمثابة القانون العام الذي ينظم بناء المدينة.

٣) امتداد المنشآت والتكوينات المعمارية عند أطراف المدينة الأم ساعد على اتساع رقعة المدينة، ولكنها ارتبطت بها ارتباطًا عضويا ووظيفيا.

تحصين المدينة الإسلامية:

١) انطلاقًا من أهمية الأمن بتوفير تحصين المدينة، اعتبر الإسلام بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل التي تحافظ على النفس والمال.

٢) تحصين المدينة يبدأ منذ اختيار الموقع الذي اشترط المفكرون المسلمون فيه أن يكون حصينًا بطبيعته ليسهل الدفاع عن المدينة.

٣) إعاقة العدو لمنعه من مهاجمة المدينة وإقامة أسوار من الردم بارتفاعات مختلفة حول الخندق أو القناة ووضعت أسوار ترابية، ثم تطور المفهوم إلى إنشاء حصون عالية يصعب تسلقها.

٤) التخطيط الحربي قام على أساس خطوط حربية دفاعية متتابعة تحقق إعاقة المهاجمين وتمكن المدافعين من ضربهم.

٥) في القرن الثاني الهجري، روعي في تخطيط المدن الإسلامية متانة تحصيناتها، فاتخذت شكلا مستديرا.

٦) التخطيط العام للمدن الإسلامية يقوم على إنشاء الخندق الذي يمثل خطا دفاعيا واقيا، وهو السور الخارجي ذو المداخل المنكسرة والسور الداخلي وزود بأبراج وسلالم.

٧) تصميم المدن الحربي يمكّن من خلاله التحكم في الدخول والخروج ويكون قصر الخلافة والمسجد الجامع محاطًا بسور داخلي مركزي يعد الخط النهائي لحماية مركزية السلطة. أمثلة، قرطبة: بنى لها الناصر أبوابا سنة ٣١هـ، أيضًا زاد المرابطون والموحدون أبوابًا لها تسمى الأبواب ذات المرافق.

٨) نتيجة التطور الجديد في نوعية التسلح وانتشار المفرقعات في تطور المدفعية، لم تعد الأسوار الحجرية قادرة على تحمل ضربات المدفعية، فكان لابد من تقويتها بالكثبان الرملية وخفض ارتفاعها لحجبها عن

يد العدو. وأدى ذلك إلى تعميق الخندق أمامها وأصبحت حصون أرضية مختفية مثل الاستحكامات في مدينة عسير في المملكة العربية السعودية التي يرجع إنشائها إلى العصر العثماني.

٩) انتشار البنادق والمدافع أدى لاتخاذ فتحات الرمي في الأسوار والأبراج مثل قصر المصمك في مدينة بالرياض بالمملكة العربية السعودية.

العوامل المتحكمة في نشأة المدن:

تعود نشأة المدن إلى عدة عوامل بشرية، سياسية، دينية واقتصادية. وبعيدا عن كل هذه الأسباب والدوافع لظهور المدن، فالعامل الجغرافي يلعب دورًا مهمًا في اختيار مواقع المدن وفي دورها الذي تقوم به ونوعية النشاطات التي تؤديها وإمكانية توسعها المستقبلي. وعلى هذا الأساس، تتوزع المدن بصورة غير متكافئة جغرافيا متأثرة بالمقومات الأساسية لقيام المدن، وهي طبيعية كالتضاريس والموارد المائية والنشاط الاقتصادي.

١ - الموقع:

موقع المدينة هو الموقع الفعّال الذي يحمل مغزى ودلالة بشرية أو مدنية واضحة، أي الموقع المكاني وعلاقته بالمناطق المحيطة به، ويدرس الموقع بطريقتين:

* الموقع بالنسبة للمناطق المحيطة به والأجزاء المجاورة، كالأقاليم الطبيعية والإدارية.

* الموقع لا يحدد بالنسبة لإطارات سامية مطلقة، وإنما يحدد بالنسبة للمجالات الفعّالة والتي لها قيمة بشرية واقتصادية حيويّة، لتحديد مدى الاِرتباط بين هذه المدن ومناطق الإنتاج والاستهلاك وشبكات النقل، وهو منهج حيث يعبر بصدق عن إمكانيات الموقع، فهو حياته. يتم تحديد الموقع بالنسبة للمقياس الإقليمي أو الوطني اعتمادًا على العناصر الطبيعية (شواطئ، بحيرات، وديان، سلاسل جبلية، مضايق، خلجان، سهول...) وأيضًا بالنسبة للعناصر البشرية والتاريخية (حدود سياسية، لغويّة، دينية، محاور الطرق والتدفقات، سكك حديدية...).

أنواع المواقع: هناك العديد من الأنواع من المواقع، نذكر منها:

* المواقع الطبيعية: وهي مواقع ثابتة لا تتغير ومن صنع الطبيعة ونميز بها:

- مواقع الصفصاف: أي أين يلتقي الماء باليابس ونخص هنا المدن الساحلية.

- مواقع التقاء السهل والجبل، مثل: باتنة، مراكش، طهران...

- مواقع التقاء حضارات مختلفة.

- مواقع الانقطاع الحركي: مثل البحر والبر وحدود الدول ونعني بالانقطاع المكان الذي يستدعي تغير وسيلة النقل.

- المواقع العقدية: كتلاقي الأنهار وتقاطع الوديان، ممرات وفتحات الجبال مثل موسكو، باريس، وبغداد.

* تصنيف اقتصادي: تطلب وجود الثروات الطبيعية (أحواض الفحم والحديد وآبار البترول...) قيام مدن التعدين والمناجم، المناطق الزراعية الغنية التي تتطلب قيام المدن وأسواق للتبادل (مدينة الخروب).

* المعيار الحضري: إن تزايد حجم الحضر يتطلب إنشاء مدن أخرى كالمدن التوابع حول المدن الكبرى. كما أن إنشاء المدن الجديدة في العصر الحديث مواقعها تختار على بعد معين وبعلاقة مع باقي الشبكة الحضرية.

* المواقع بالنسبة لأحزمة الأخطار الكبرى كالزلازل والبراكين.

٢- الموضع:

المقصود بالموضع الأرض التي تقوم عليها المدينة والمنطقة التي تشكلها كتلتها المبنية وهو عامل مهم للتمييز بين المدن والموضع عنصر مهم في دراسة بيئة المدينة وإطار الحياة بها. كما أن الموضع يفسر جميع

الظروف الطبيعية للمدينة (التربة، الجيوتقنية، ميكانيك التربة، المناخ المحلي...).

أنواع المواضع: تلعب المواضع دور الحماية والمدن القديمة أغلبها من هذا النوع، وهناك نوعان:

* **مواضع الحماية البحرية:** تضمن سهولة الحركة والتجارة والدفاع؛ لأن المواضع القائمة بالقرب من الماء (يوفر لها حاجز طبيعي) يوفر لها الحماية، ومن أمثلتها:

- جزر على شاطئ البحر (المهدية- تونس)
- التقاء الأنهار (الخرطوم)
- البحر الأبيض المتوسط (الإسكندرية)

* **مواضع الحماية البرّية:** أساسها الربوات والتي تخف بها العوائق والانحدارات

وتدعم بأسوار، مثل: مدينة قسطنطينة.

المناخ والعمران في المجتمعات الجديدة

يتدخل المناخ في التخطيط العمراني الحديث من بعض النواحي، مثل اختيار المناطق الصناعية والمناطق الترفيهية والمناطق السكنية. وأهم العناصر المناخية التي تراعى في هذا التخطيط هي الرياح؛ لأنها تفرض وضع المناطق الصناعية وأماكن تجميع النفايات في اتجاه انصرافها بعد مرورها على الأحياء السكنية والأحياء الترفيهية. كما أن هبوب الرياح المعتدلة من ناحية البحر في المدن الساحلية وانخفاض المدى الحراري على طول السواحل يعتبر من العوامل المهمة التي تدفع إلى امتداد معظم هذه المدن امتدادًا طوليًّا محاذيًا لساحل البحر وإلى وجود أهم مناطق الترفيه والتنزه على امتداد الشواطئ.

ولقد كان تأثير المناخ والأحوال الجوية واضحًا على تصميم المساكن منذ أن بدأ الإنسان يبنيها في عهوده الحضارية القديمة؛ لأن أحد الأهداف الرئيسية من بنائه لها الحماية من الأحوال الجوية. وأيًّا كان نوع المسكن أو حجمه، فإن المناخ يتدخل في اختيار موقعه واختيار المواد التي يُبنى بها وتصميمه والعناصر المهمة التي تراعى عادة في الاختيار؛ درجة الحرارة والإشعاع الشمسي والمطر والرياح.

وليس المناخ السائد وحده الذي يتدخل في تصميم المساكن وتوجيهها، بل إن المناخ التفصيلي للمواضع التي تختار للبناء يمكن أن تجعل

بعض المواضع أصلح للسكنى من غيرها داخل النوع الواحد من المناخ، ويرجع التباين في المناخ التفصيلي من موضع إلى آخر إلى عوامل محلية مثل ارتفاع الأرض أو وجود مسطحات مائية أو غطاءات نباتية أو مناطق صناعية أو مبان قريبة.

ولقد اهتم الناس منذ القدم بمناخ المسكن، ويلاحظ ذلك من خلال اهتمامهم في تحديد اتجاه الأبواب والنوافذ، بالإضافة إلى اختيار مواد البناء وفي كثير من الأحيان وعندما يقوم الناس ببناء مساكن لهم، فإنهم لا يهتمون بالظروف المناخية عن قصد، وربما ليسوا بحاجة لذلك لأن التجارب والتاريخ الطويل حددتا طريقة البناء لكل إقليم، ففي النهاية يبني الناس مساكن بها تشابه كبير من حيث مواد البناء وتوجيه المسكن. ومن العوامل التي تتحكم كثيرًا في المسكن دور الجهات الحكومية المختصة في تخطيط المدن، فإنشاء المساكن مرتبط بالمناطق العمرانية المحددة في المدن والقرى، فيبني المسكن ضمن ذلك التجمع العمراني الذي يحظى بالخدمات الضرورية من الماء والكهرباء والغاز والصرف الصحي وغيرها، والجهات الحكومية تقوم أيضًا بتحديد عرض الشارع وتباعد المساكن عن بعضها البعض وارتفاع البنايات، فتجد ذلك في التشريعات والأنظمة الخاصة بالمدن. لهذا يقع على عاتق الدولة اختيار الموقع المناسب لإنشاء المناطق العمرانية والموقع الأكثر ملائمة والأقل تأثرًا بسلبيات عناصر البيئة المختلفة، ومن ضمنها العناصر والظواهر الجوية.

وإن عدم العناية والاهتمام بالعناصر المناخية في تصميم المساكن بإنشائها في مواقع غير مناسبة، قد تكون له عواقب سلبية في المستقبل، وخاصة في المناطق التي تعرض للتطرف في عناصر المناخ مثل المناطق المدارية والأقاليم الباردة. ومن تلك العواقب موجات الحر والبرد والأعاصير والفيضانات التي تسبب خسائر بشرية كثيرة وخسائر مادية تزيد في تكاليف الحياة مثل زيادة تكاليف تشغيل وسائل التدفئة والتبريد.

موضع المناطق العمرانية:

يسعى الناس إلى بناء مساكن لهم داخل حدود المناطق العمرانية التي حددتها الجهات الحكومية، حيث يفضلون الأماكن التي تتوفر فيها الخدمات بمختلف أنواعها. لذلك لابد وأن تكون مواقع المناطق العمرانية مثالية قدر الإمكان، وعند تصميم المدن واختيار مواقعها، يفضل مراعاة العوامل الطبيعية، ومن تلك العوامل التي يجب أخذها بعين الاعتبار:

١- الابتعاد عن المناطق التي يتكرر فيها حدوث الفيضانات خلال هطول الأمطار مثل المناطق السهلية والمنخفضة.

٢- الابتعاد عن المناطق ذات التربة أو الصخور الضعيفة التي تتعرض للهبوط والانهيارات.

٣- الابتعاد عن المناطق الموبوءة بالأمراض والتي تكون ملائمة لتكاثر وانتشار الحشرات ومسببات الأمراض، مثل المستنقعات ومناطق المياه الراكدة.

٤- البعد عن المناطق التي تتكرر فيها العواصف الترابية والرياح الحارة في فصل الصيف أو الرياح الباردة في فصل الشتاء. وتعتبر الأودية أقنية الرياح، فتزداد سرعتها وتأثيرها على الإنسان والمساكن، كما تتعرض مناطق الأودية المنخفضة لتزايد تركيز الملوثات بسبب كثرة حدوث حالات الاستقرار الجوي.

٥- الاهتمام باتجاه الرياح السائدة عند تصميم الشوراع وصفوف المساكن والبنايات المختلفة، على أن يتلائم اتجاه الشوارع مع اتساعها للحصول على تهوية جيدة لمساكن المدينة؛ فالشوارع والطرق المتعرجة تعيق حركة الرياح وتحد من سرعتها ولها تأثير على الحد من انتشار الغبار.

٦- تحديد الأبعاد المناسبة في عرض الشوارع والمسافات بين المساكن؛ بحيث تتلائم مع مناخ المنطقة. ففي الأقاليم الحارة، يفضل أن تكون المناطق المظللة وقد يتم ذلك عن طريق عرض الشوارع وتقليل المسافات بين المساكن وزيادة ارتفاعها، فالمساكن العالية توفر ظلًّا أكثر من المساكن الأقل ارتفاعًا. ويفضل أيضًا تحديد الأماكن العامة المستخدمة من السكان كالأرصفة ومناطق التسوق

والحدائق ومواقف السيارات. وفي الأقاليم الباردة، يمكن عمل عكس ما هو في المناطق الحارة. فيفضل زيادة سعة الشوارع وزيادة المسافات بين المساكن للحصول على قدر أكبر من الأشعة الشمسية ويمكن التحكم في ذلك أيضًا من خلال اختيار الاتجاهات المناسبة للشوارع بالنسبة للإشعاع الشمسي والذي سيكون له تأثير على توجيه المساكن والبنايات.

إنشاء المساكن:

منذ بدء الخليقة كان الإنسان (كبقية الكائنات الحية الأخرى) يعمل جاهدًا للتكيف مع البيئة ولقد سكن الكهوف والأكواخ لحماية نفسه من الأخطار البيئية والحيوانات المفترسة. ومع مرور الزمن، تمكن من تطوير مسكنه مستفيدًا من الخبرات المتراكمة لمن سبقوه.

ويحاول المهندس المعماري تصميم المسكن المريح لأفراد مجتمعه ويهتم بالحفاظ على معدل مناسب للحرارة والرطوبة داخل المسكن وكذلك حماية المسكن من تسرب مياه الأمطار داخله ويتحقق ذلك من خلال فهمه لمناخ المنطقة التي يعمل فيها، ومن ثم يستفيد من فهمه للعناصر المناخية في تصميم أجزاء المسكن من الجدران والأبواب والنوافذ والأسقف والأرضيات، وكذلك اتجاه المبنى بما يتناسب مع الرياح والإشعاع الشمسي. لهذا فإن تصميم المبنى يبدأ من لحظة رسمه على الورق. ومن ثم إنجاز مراحل البناء المختلفة والتي يفضل أن تلائم مناخ المنطقة.

ويؤثر على تصميم المبنى وطريقة البناء عوامل متعددة مثل العوامل الطبيعية والاقتصادية والدينية والاجتماعية. ويختص هذا الفصل بشرح أهمية العوامل المناخية.

اختيار موضع المبنى:

يرغب الناس بإنشاء مساكن لهم في الأماكن والمواضع الأقل تأثرًا بتقلبات المناخ خلال السنة، مثل الإشعاع الشمسي ودرجة الحرارة والرطوبة والهطول ويتحدد اختيار موضع المسكن في الأماكن المخصصة للبناء ضمن حدود المناطق العمرانية وتتعدد الخيارات حسب اتساع المساحة وتنوع الخصائص التضاريسية للمدينة أو القرية.

ويفضل الابتعاد عن مركز المدينة وخاصة في المدن الكبرى، حيث تسود في المدن الكبيرة ظاهرة الجزيرة الحرارية والتي تجعل مركز المدينة من ارتفاع درجة الحرارة وسوء التهوية. بينما المساكن على أطراف المدينة تكون ذات خصائص مختلفة، فتقل فيها درجة الحرارة وتحصل على تهوية جيدة. بالإضافة إلى أن أواسط المدن، خاصة الصناعية منها، تعاني من مشكلة التلوث، فيتزايد تركيز الملوثات في مركز المدينة ويكون تأثيرها سلبيا على السكان. بينما تتصف مناطق الريف بهواء أكثر نقاء ونظافة.

وللبنايات العالية تأثير على الرياح والإشعاع الشمسي، لذلك فإن اختيار السكن بجوار البنايات العليا يعني سوء في التهوية الناتج عن ضعف الرياح. بالإضافة إلى حصولها على كمية قليلة من الأشعة الشمسية، حيث

تطول مدة وقوع المسكن في الظل والذي قد يسهم في زيادة الرطوبة الجوية وخلق بيئة غير مناسبة.

ولابد من الاهتمام بعوامل المناخ الصغرى لمنطقة بناء المسكن من حيث درجة الحرارة التي تتأثر بعوامل متعددة من مظاهر السطح ودرجة انحدار السطح والغطاء النباتي من الأشجار والأعشاب. فهذه العوامل تؤثر أيضًا على توزيع الأشعة الشمسية وانعكاسها، ومن ثم على درجة الحرارة في المنطقة المحيطة بالمسكن وينصح بالابتعاد عن الأماكن التي تتعرض للرياح الشديدة وحدوث الصقيع بكثرة. ويفضل اختيار المسكن بعيدًا عن أماكن تجمع النفايات التي تكون مصدرًا للحشرات والأمراض بالإضافة إلى الروائح الكريهة. كما يفضل الابتعاد عن المصانع التي تزيد من تركيز الملوثات في البيئة وقد عمدت الجهات المسؤولة في المدن على الفصل بين المناطق السكنية والصناعية كحل لمشكلة التلوث.

لقد روعي في تصميم العمائر الإسلامية احترام الموروث في كل بيئة طبيعية بما يناسبها وكذلك احترام الأعراف البنائية المناسبة للبيئات. وجاء التكريس من خلال إشادة الحيطان من مواد محلية وبسمك يضمن صمودها وتحملها وزر أحمال البناء المحمول ومقاومتها للحرارة والرطوبة.

تعكس كتابات الجغرافيين المسلمين المعايير التي تميز المدينة عن غيرها من مراكز الاستيطان الحضري، فلها مسميات وأوصاف ترتبط برؤية واضحة تميزها وفق معايير محددة مثل: مدينة كبيرة، مدينة صغيرة، مدينة

متوسطة، كورة، قصبة، وقرية. وهي تصنيفات مرتبطة برؤية واضحة تميز كلا منها وفق معايير حضرية محددة كالمعيار السياسي وما يرتبط به من وجود السلطة الإدارية والقضائية وكبر المساحة وزيادة الكثافة السكانية ووجود الأسواق وتوفر الخدمات العامة والأسوار المحيطة بها. لذلك صنف الجغرافيون كتبهم حسب نوعية نشاطها كالمدينة الحصن والمدينة التجارية. وتكشف دراسة الجغرافيين عن تطور المدن وازدهارها وانحدارها وأحيان اندراسها؛ فكتاباتهم مرآة لأحداث المدن.

ارتبطت نشأة (المدينة الإسلامية) بالتحول الجذري الذي أحدثه الإسلام في نمط الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية. وكانت نشأة (المدينة) أو (المصر) مستندة، في جوانب منها، إلى ظروفِ الفتح والتوسع الإسلاميين في العالم القديم. كما ارتبطت أيضًا– في جوانب أساسية منها– برؤية متكاملة لما يجب أن تكون عليه "الحياة الطيبة" والعيش الكريم، في ظلال الشريعة ومقاصدها العامة.

وتجلى بعض معاني "الحياة الطيبة" في فنون التخطيط العمراني للمدينة وتقسيم أحيائها وفي تخصيص مساحاتها وساحاتها ومرافقها العامة وحصونها وأسوارها الدفاعية، وكذلك في توظيف الجماليات الهندسية وفنونها في تشييد الأبنية وتزيين تلك المرافق وتجميل الساحات العامة.

وقد اكتسبت (المدينة الإسلامية) شخصيتها وهويتها الخاصة بها من الرؤية العامة التي استندت إليها فنونها العمرانية. وثمة كثير من البحوث

والدراسات التي حسمت القول بأصالة (المدينة الإسلامية) وأنها تمتلك شخصيةً معمارية وجمإلية وهوية ذاتية خاصة بها ومستقلة عن غيرها من الطرز المعمارية والجمالية للمدن القديمة التي عرفتها حضارات ما قبل الإسلام: اليونانية، والرومانية، والهلينية، والفارسية. والمقصودُ بالاستقلإليةِ هنا: تلك السمةُ التي تجلت في: (المدينة الإسلامية المخططة والمصممة) وليست المدينة التي كانت قائمةً قبل الإسلام وتمت أسلمتها أو إعادة صوغها وفق معايير إسلامية، ولا تلك المدينة التي نشأت بطريقة عشوائية أو غير مخططة؛ حتى ولو نشأت في ظل الدولة الإسلامية.

علاقة المناخ بالتشكيل المعماري للمدن وتخطيطها

يعتبر الشكل من النواحي المهمة التي تتأثر بالمناخ والظروف السائدة. ومن القواعد العامة التي عرفت منذ مدة طويلة أنه من الأفضل أن تقام المدن في المناطق التي تهب منها الرياح وليس في مناطق التي تهب إليها الرياح. كذلك من الأمور التي تناولتها الدراسة في هذا المجال سعة الشوارع واتجاهاتها. فالمعروف في الأقاليم المعتدلة أن الأودية والمنخفضات ترتفع فيها درجات الحرارة ويكثر الضباب. كما أن المساكن المقامة على القمم المرتفعة تتعرض للرياح العنيفة والأمطار والثلوج وأنسب المواقع لإنشاء المساكن في تلك الجهات هي الارتفاعات المتوسطة في ظلال الجبال؛ حيث درجات الحرارة معتدلة وأشعة الشمس كافية ولا توجد رياح شديدة.

وفي تخطيط حاجة المنزل للتدفئة أو التبريد، يراعى موقعه بالنسبة للمنازل الأخرى من حيث تلاصقها أو تباعدها؛ إذ أن تلاصق المنازل يجعلها في حاجة أقل للتدفئة.

أما عن مناخ الحجرة، فهو يتوقف على طبيعة جدرانها وعلى اتجاه فترات نوافذها وأبوابها وطبيعة أرضيتها. وقد وجد أن حجرة صغيرة المساحة بها نافذة متوسطة الاتساع تفتح في اتجاه شمالي، تحتاج إلى قدر من التدفئة في الشتاء يبلغ خمسة إضعاف ما تحتاجه حجرة أخرى نافذتها

جنوبية. ويرجع ذلك إلى استفادة النافذة الجنوبية بقدر كبير من أشعة الشمس.

العوامل المناخية المؤثرة على الشكل المعماري:

إن التعرف على السمات التي يفرضها المناخ على شكل العمارة الإسلامية في المناطق الحارة، يفرض التعرف على العوامل المناخية المؤثرة على هذا الشكل وكيفية اختيار المعماري المسلم للحلول المناسبة بما يتلازم مع راحة الإنسان في المكان الذي يعيش فيه والتي تحقق توفير الحالات المناخية الملائمة له داخل المباني.

أهم العوامل المناخية المؤثرة على الشكل المعماري:

١- أشعة الشمس

٢- درجة الحرارة

٣- الرياح

٤- الإضاءة الطبيعية

٥- التبخر والرطوبة

١- أشعة الشمس:

استطاعت العمارة الإسلامية استغلال أشعة الشمس بأسلوب علمي؛ لتوفير حماية الإنسان والكائنات الحية من درجات الحرارة المرتفعة بالإضافة إلى إحداث القيم الوظيفية والجمالية. لذلك اعتمد التصميم المعماري الإسلامي على تأمين الانعزالية عن المحيط الخارجي؛ لإيجاد فضاءات داخلية باردة نسبيا وغنية بالظلال.

الحماية من أشعة الشمس:

تعتبر الحماية من أشعة الشمس القوية والحارقة في المناطق الإسلامية الحارة من الأمور الضرورية. فمنذ القدم وسكان هذه المناطق يعملون على حماية أنفسهم منه باستعمال طرق مختلفة؛ منها أغطية الرأس والمظلات ولبس الملابس الفضاضة. وقد انعكس هذا أيضًا على المحاولات الدائمة للوصول إلى طرق ناجحة في حماية المباني التي يستعملونها، ومنها:

أولا: الإقلال من الأشعة المباشرة والمنعكسة التي تسقط على واجهات المبنى.

ثانيا: حماية المبنى من الأشعة الساقطة.

يتأثر حماية المبنى الإسلامي من الأشعة الساقطة عليه بعدة عوامل، وهي:

١- كتلة المبنى وشكله: يكون لشكل المبنى وكتلته أهمية كبيرة في تحديد كمية الظلال به وتزداد كمية الظلال كلما أصبح شكل المبنى أكثر تعقيدًا ويلاحظ كثرة الظلال في المبنى ذو الفناء الداخلي، خاصة إذا كان هناك أجزاء ترتفع أكثر من طابق واحد. كما تأخذ المباني غير مستوية الأسقف كمية ظلال أكبر لعدم تعرض سطحها المنحني (مثل القبة والقبو) بالكامل لأشعة الشمس خلال ساعات النهار، خلافًا لما يحدث بالنسبة للسطح الأفقي.

٢- معالجة الجدران: تتعرض الجدران لكمية أشعة شمس أقل من السقف؛ نظرًا لاختلاف تعرضهما لأشعة الشمس حسب اتجاهها خلال ساعات النهار ولتغير زاوية ميل أشعتها باختلاف فصول السنة. علاوة على كونها عمودية فتكون الطاقة المكتسبة في هذه الحالة أقل مما يكتسبه السقف من الطاقة ذاتها. إلا أنها تتعرض للأشعة الشمسية المنعكسة خاصة في المناطق الصحراوية حيث تكتسب الرمال الناعمة خاصية السطح العاكس. تم اللجوء في العمارة الإسلامية إلى تظليل الواجهات بواسطة كاسرات الشمس كالمشربيات أو مظلات الفتحات أو البروزات بكتل من المبنى بذاته أو جعل الجدار سميكًا ومن مادة عازلة كالطين والطوب والحجر بأنواعه.

٣- معالجة الفتحات: تعد الفتحات مصدرًا رئيسًا لنفاذ الحرارة إلى داخل المبنى. لذا سيتم دراسة العوامل التي تتحكم في كمية النفاذ الحراري خلال الفتحات في العمارة الإسلامية.

٤- توجيه المبنى: يخضع اختيار التوجيه في العمارة الإسلامية لاعتبارات الشمس أكثر من خضوعه حركة الرياح؛ وذلك لضمان توفير أكبر قدر ممكن من الظلال والبعد عن الهواء الجاف الساخن الذي تتميز به مناطق العالم الإسلامي. حيث يمر الهواء على مناطق رطبة أو مظللة قبل وصوله إلى المبنى. من هذا المنطلق كان التوجيه الأفضل للفتحات هو الشمال، ويأتي التوجيه إلى الجنوب بعد ذلك حيث تكون عملية التظليل أسهل ما يمكن. وقد تلافت المباني الإسلامية في أكثر الأحيان الفتحات المواجهة للغرب كما تلافت وضع المسطحات المائية في الغرب أو الشمال لتفادي الانعكاسات المؤدية للزغللة. ويعطي الفناء الداخلي إمكانية أكبر لتوجيه الفتحات في الاتجاهات السليمة. كما ينظم عملية التبادل الحراري للمبنى.

٥- شكل المبنى: يتميز شكل المبنى في المدينة الإسلامية بعدم الاستطالة، مما يحقق أكبر قدر من الفضاءات الداخلية بعيدًا عن الأحوال المناخية الخارجية وبذلك يحقق الاستقرار الحراري الداخلي. يمتاز شكل المبنى أيضًا بالكتل المركبة المسقطة للظلال، حيث تزداد كمية الظلال في الأشكال الأكثر تعقيدًا. لذا يلاحظ كرة الظلال في البيت ذو الفناء الداخلي خاصة إذا كان هناك أجزاء ترتفع أكثر من طابق واحد. كما تأخذ المباني الإسلامية غير مستوية الأسقف كمية ظلال أكبر؛ بسبب عدم تعرض سطحها المنحني مثل القبة والأقبية بالكامل لأشعة الشمس خلال ساعات النهار. كذلك فضلت العمارة الإسلامية المنشآت القائمة مباشرة

على سطح الأرض وأسفلها وخاصة في البيوت السكنية أقيمت كلها أو جزء منها أو جميعها تحت الأرض، للتقليل بقدر الإمكان من الانتقال الحراري للداخل.

٦ـ مواد البناء: كانت مادة الطين أقدم مواد البناء في تاريخ العمارة العربية الإسلامية واستخدمت كتل الطين المهيئة للعمل والتي تعرف بالطوف في مدن الحضارات القديمة التي نشأت ثم اندثرت في وادي الرافدين في أقدم المباني والبيوت السكنية التي لا تزال آثار بعضها باقية إلى يومنا هذا مثل مدن أور والكوفة والفسطاط وغيرها من المدن العربية الإسلامية واستخدمت أيضًا في تشييد البيوت الريفية التقليدية.

وتطور استخدام كتلة الطين (الطوف) قديمًا بوضع كميات من الطين المخمر والمخلوط مع التبن (قطع من سنابل الحنطة) في قوالب مضلعة الشكل مختلفة الأبعاد وصولاً إلى أشكال منتظمة، للحصول على جدران مستقيمة قوة ومتانة في البناء. وتعرف هذه الكتلة الطينية المنتظمة الأبعاد المجففة طبيعيا بواسطة أشعة الشمس بـ(اللَبِن)، ولا يزال استخدام اللبن معروفًا في العراق على نطاق محدود في البيوت الريفية أيضًا، كما أنه يمثل مرحلة متطورة في صناعة الطابوق الطيني قبل إرساله إلى الكور أو الأفران لشيه بالنار وتحويله إلى الآجر.

ولم يتأخر توصل العراقيين لصناعة الطابوق الطيني المفخور (الآجر) كثيرا. فقد وصلتنا أبنية منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، استخدم

فيها الآجر بأحجام مختلفة وإن كان ظل محافظًا على شكل المضلع كما هو في الوقت الحاضر لعلاقة ذلك بدور الآجر في البناء.

وأصبح استخدام الطابوق (الآجر) شائعًا في عموم الأبنية العربية الإسلامية القديمة ولا يزار استخدامه كثيرًا إلى الوقت الحاضر ويعتبر حاليًا العنصر الرئيس في البناء، ولم تستطع مواد البناء الأساسية الأخرى أن تحل محله لوفرة مادته الأولية ولسهولة صناعته وكذلك سهولة استخدامه في البناء وقلة تكلفته. كما يمتاز بمقاومة جيدة وقدرة كبيرة على عزل الحرارة والصوت، بالإضافة إلى مرونته وانصياعه حسب رغبة المعمار بحيث يعطي تشكيلات زخرفية معقدة رائعة الجمال، كالحنيات والنتوءات والمقرنصات والزخارف الهندسية والكتابية البديعة.

وهيأ الآجر فرص التوصل لبناء القباب والأقبية والسقوف المعقودة وأقواس المداخل بمساعدة مادة محلية أخرى شائعة هي الجص التي تساعد في تماسك الآجر بصورة سريعة جدًّا، وسنأتي على ذكرها فيما بعد. وساعد ذلك في تلافي النقص المعروف في مواد البناء السقوف من ألواح الأخشاب المتينة والمستقيمة. لذلك فإن بناء السقوف المعقودة بطريقة الأقبية هو تواصل معماري قديم النشأة في العراق وأن أقدم المباني التراثية التي شيدت في العراق لا تزال آثار البعض منها باقية إلى يومنا هذا هي التي بنيت بهذه الطريقة. ومن هنا نرى أن العمارة الإسلامية فضلت استخدام مواد البناء ذات السعة الحرارية العالية كالطين والطوب والحجر بأنواعه، التي يمكن زيادتها بزيادة سمك الجدار؛ للتغلب على خاصية المدى الحراري الكبير

الذي تتميز به المناطق الحارة والجافة من العالم الإسلامي. واستخدام الخشب كمادة معمارية بنائية، فقد استخدم في عمل السقوف كما اتخذت منه الأوتار الخشبية التي كانت تربط السقف دونما اهتزاز أو انحراف.

٦- **نظام التسقيف**: في البلاد الحارة والجافة من العالم الإسلامي تنخفض درجة حرارة الهواء أثناء الليل. لذلك فقد حول الناس هناك السقوف أو السطوح إلى شرفات أو أروقة مفتوحة أو سقوف خفيفة من سعف النخيل، ممتلكة وظيفة ثنائية أولها تظليل السطح في أوقات النهار، وثانيها تأمين فضاءات ملائمة للنوم ليلا، كما هو في العراق ومصر وإيران وسوريا وغيرها من البلدان الإسلامية. أما شكل هذه السقوف، فهي ذات أهمية كبيرة في مناخ حار ومشمس معظم أوقات النهار؛ حيث إن لاستخدام القباب والأقبية عدة إيجابيات، هي:

- عدم الحاجة لبناء أعمدة وسط الفضاء.

- ارتفاع وسعة الفضاء الداخلي.

بالرغم من ازدياد المساحة الكلية للسقف، يمتلك الإشعاع الشمسي أماكن قليلة للتأثير المباشر. يكون في معظم أوقات النهار المشمسة جزء من السقف مظللا، بينما الجزء الآخر من القبة يمتص أشعة الشمس، وبذلك ينتقل الهواء الحار في الفضاء الداخلي إلى الفضاء الخارجي المظلل والبارد نسبيا.

السقوف المتكونة من قباب والأقبية تزيد من سرعة الهواء فوق سطوحها المنحنية.

٧ـ التنقل الداخلي في البيت الإسلامي: يمتاز سكان المدينة الإسلامية بالتنقل داخل البيت، وتتلخص فكرتها بأن أي جزء من البيت لا يسكن إلا لفترة معينة من اليوم أو الموسم ويتوقف استعماله على اتجاه هذا الجزء بالنسبة للشمس، ولكل نوع من التنقل أيضًا حركة أفقية وأخرى عمودية. ويمكن تقسيم نوع وطبيعة هذا التنقل كالآتي:

التنقل الموسمي:

أ. التنقل الموسمي العمودي: وهذا يعني ترتيب مناطق المعيشة الشتوية والصيفية فوق بعضها. ففي الصباح، يستعمل الطابق الأرضي وأحيانًا السرداب وفي الشتاء تستعمل الطوابق العلوية.

ب. التنقل الموسمي الأفقي: وفيها تترتب مناطق المعيشة الشتوية والصيفية على نفس المستوى الأفقي، فمثلًا تستعمل الجهة الشمالية صيفًا والجهة الجنوبية شتاءً، سواء في الغرف أو في الإيوان.

٨ـ المشربية:

المشربية أو الشنشول أو الروشان هو بروز الغرف في الطابق الأول أو ما فوقه يمتد فوق الشارع أو داخل الفناء المبني وهو مبني من الخشب

وعليه نقوش وزخارف ومبطن بالزجاج الملون. تعتبر المشربية إحدى عناصر العمارة التقليدية في الدول العربية. بدأ ظهورها في القرن السادس الهجري، الثالث عشر الميلادي، إبان العصر العباسي واستمر استخدامها حتى أوائل القرن العشرين الميلادي.

كان هناك أنواع متعددة من المشربيات بعضها مغلق والبعض الآخر مفتوح؛ حيث إن المفتوحة كانت بمثابة شرفة تطل على الشارع أو الفناء وكانت النقوش الخشبية تترك مفتوحة تسمح بدخول الهواء والضوء.

أما المغلقة، كانت تمثل امتدادًا للغرف بالطابق الأول وكانت الزخارف تبطن بالزجاج الملون وتجعل فيها نوافذ تفتح عموديًّا.

الفوائد والاستخدام:

- **اجتماعية**

إحدى أهم الفوائد الاجتماعية هي الحفاظ على الخصوصية. من خلال المشربيات، يستطيع الناظر مراقبة الشارع دون أن يراه من في الشارع أو من في المشربية المقابلة وذلك لعدة أسباب مجتمعة؛ فمن ناحية تكون الإنارة في الخارج خلال النهار أقوى من الداخل، ومن ناحية أخرى وجود الزخارف والنقوش في الخشب يجعل الرؤية من خلاله صعبة لمن يقف على مسافة بعيدة، أضف إلى ذلك أن الزجاج الملون نفسه كان يزيد من

تشويش الرؤية لمن في الشارع. هذه الميزات أتاحت للنساء أن يرين الشارع من نوافذهن دون أن يلمحهن أحد.

- **بيئية**

توفر المشربية الظل داخل المسكن بدون إغلاق كامل للنافذة، فتحافظ على حركة الهواء مما يساعد على تخفيف درجة الحرارة في الصيف ويفيد هذا البروز المارة أيضا حيث يستظلون به في الزقاق صيفا ويتوقون المطر شتاء. كما أن المشربية تغطي الجدار المواجه للشارع وتحافظ عليه من الشمس والمطر. ومن فوائدها أيضًا ضبط تدفُّق الهواء؛ فعن طريقها يمكن التحكُّم في سرعة الهواء وتدفقه داخل الحيِّز الداخلي للمنزل، فضلا عن ضبط رطوبة تيار الهواء المارّ من خلالها إلى داخل المنزل أو الحجرة لطبيعة المادة المصنوعة منها وهي الخشب، فهو مادة مسامية طبيعية مكوَّنة من إلياف عضوية تمتص الماء وتحتفظ به.

٢- درجة الحرارة:

يتم التحكم في الانتقال الحراري بين البيئة الخارجية والوسط الداخلي للمبنى في العمارة الإسلامية عن طريق نوع مواد البناء وطريقة الإنشاء المناسبة واستخدام العناصر المعمارية للمبنى بطريقة ملائمة. إن فاعلية الدور الذي يلعبه الغلاف الخارجي في تحديد كمية الحرارة المتنقلة من وإلى المبنى، تتوقف على اختيار مادته طبقًا لخواصها الحرارية وعلى طريقة تصميمه وقد تحكمت العمارة الإسلامية في هذا المجال على:

- زيادة المقاومة الحرارية للمادة.
- استخدام اللون الخارجي الفاتح.
- استعمال مواد بناء ذات كثافة عالية.
- زيادة مسطح الظلال على الواجهات.

٣- الرياح

١ـ عامل الشمس في تغيير حركة الهواء: يستخدم عامل الشمس كقوة فعالة في تغيير حركة الهواء. كانت هذه التقنية مطبقة في المساحات الكبيرة، كالأفنية الداخلية والأزقة الضيقة المفتوحة منها والمسدودة التي تعتمد على مبدأ "الحمل" يكون الهواء الحار أقل كثافة من الهواء البارد، لذلك يصعد إلى الطبقات العليا تاركًا الهواء البارد في الاسفل. ومن العناصر التخطيطية والمعمارية الإسلامية التي تستخدم على أساس هذا المبدأ، التخطيط المتراص والفناء الداخلي والتختبوش.

٢– إن لدراسة حركة الهواء في المدينة الإسلامية أهمية كبيرة في تحديد الخواص المناخية بالنسبة للمجمع الحضري ككل وكذلك بالنسبة للوحدة البنائية. مما يؤثر في حركة الهواء بأي موقع، علاقة كتل المباني ببعضها البعض، كذلك وضع النباتات والأشجار بالنسبة لتلك الكتل. تمتاز معظم المدن الإسلامية بخاصيتين تخطيطيتين رئيسيتين، وهما.

أ- شوارع متعرجة ضيقة، مفتوحة ومغلقة.

ب- أفنية داخلية مكشوفة ملحقة بحدائق داخلية.

٤- عامل الرطوبة

ترطيب الهواء:

من المعروف أنه إذا قلت نسبة الرطوبة في الجو عن الحد المناسب ولمدة طويلة، فإن ذلك يؤثر على البشرة الخارجية لجسم الإنسان، فتتعرض لجفاف شديد يؤدي إلى تشققات خاصة بالشفاه والأنف، كذلك تقل نسبة الهواء من الأتربة العالقة مما يؤثر على الجهاز التنفسي. ولهذا حافظت المناطق الحارة من العالم الإسلامي على توفير نسبة رطوبة في الجو بمستوى معقول يحقق الراحة ويتلافى نتائج الجفاف السلبية. استخدمت العمارة الإسلامية في هذا الصدد طرقًا طبيعية في التحكم البيئي، وتنقسم إلى مجموعتين.

١ . طرق تستخدم داخل المبنى: ترطيب الهواء بواسطة الملقف.

٢- طرق تستخدم خارج المبنى: وفيها يتم تزويد الهواء بالرطوبة قبل دخوله إلى المبنى ولا تخرج هذه الطرق في أساسياتها عن الطرق المستخدمة داخليًا للترطيب. ويتم الحصول على درجة من الرطوبة بواسطة رش النباتات المحيطة بالمبنى واستخدام أحواض المياه ووضعها في مسار الرياح السائق حيث تزود الهواء بالرطوبة قبل دخولها إلى المبنى.

عناصر المعالجات البيئية المختلفة:

١- **الفناء:** عبارة عن ذلك الفراغ المقفل أو شبه المقفل الذي تشكله حوائط مستمرة أو شبه مستمرة من جهاته الأربعة في حالة الشكل الرباعي أو أكثر في حالة الشكل المتعدد الأضلاع. وتطل على الفناء الداخلي عناصر المبنى الأخرى وهو مفتوح للهواء الخارجي من أعلى ويمكن أن يوجد في المنزل الواحد أكثر من فناء تتصل مع بعضها البعض عبر ممرات أو من خلال بعض الغرف. ومن أهم مميزات الفناء؛ أنه يساعد على توفير التهوية والإضاءة الطبيعية الضرورية للفراغات.

٢- **الملقف:** هو عبارة عن مهوى يعلو عن المبنى وله فتحة مقابلة لاتجاه هبوب الرياح السائدة لاقتناص الهواء المار فوق المبنى والذي يكون عادة أبرد ودفعه إلى داخل المبنى ويفيد الملقف أيضا في التقليل من الغبار التي تحملها عادة الرياح التي تهب على الأقاليم الحارة.

٣- **الإيوان:** قاعة مسقوفة بثلاثة جدران فقط ومفتوحة كليًّا من الجهة الرابعة وقد تكون مُقَنطرة وبلا أبواب وتطلّ على صحن مكشوف وقد يتقدّمها رواق. وربّما اتصلت بِقاعات وغرف متعدّدة حسب وظيفة البناء الموجودة فيه.

٤-**النافورة:** توضع النافورة في وسط الفناء الخاص بالمنزل وقد كانت تأخذ الشكل الدائري أو الثماني أو السداسي. ويقصد بالنافورة إكساب

الفناء المظهر الجمالي وامتزاج الهواء بالماء وترطيبه، ومن ثم انتقاله إلى الفراغات الداخلية.

٥- **السلسبيل أوالشاذروان**: هو لوح رخامي متموج مستوحى من حركة الرياح أو الماء، يوضع داخل فتحة من الجدار المقابل للإيوان أو موضع الجلوس؛ للسماح للماء أن يتقطر فوق سطحه لتسهيل عملية التبخر وزيادة رطوبة الهواء هناك ومن ثم تنساب المياه في مجرى رخامي حتى تصل إلى موضع النافورة.

٦- **التختبوش:** مساحة أرضية خارجية مسقوفة تستعمل للجلوس وتقع بين الفناء الداخلي والحديقة الخلفية وتطل بكاملها على الفناء الداخلي وتتصل من خلال المشربية بالحديقة الخلفية. وبما أن مساحة الحديقة الخلفية أكبر من مساحة الفناء، وبالتالي أكثر تعرضًا لأشعة الشمس، لذلك يسخن الهواء بسرعة ويرتفع إلى أعلى مما يدفع الهواء المعتدل البرودة إلى التحرك من الفناء إلى الحديقة الخلفية مرورًا بالتختبوش مؤديا إلى تكون نسيم معتدل البرودة.

٧- **الشخشيخة**: وتستخدم في تغطية القاعات الرئيسية وتساعد على توفير التهوية والإنارة للقاعة التي تعلوها وتعمل الشخشيخة مع الملقف والمشربية على تلطيف درجة حرارة الهواء؛ لسحب الهواء الساخن الموجود في أعلى الغرفة. حيث إن الهواء الساخن يصعد إلى أعلى والبارد يهبط إلى أسفل. كما أن حركة الهواء الخارجية بقمتها يخلق فرق ضغط

يساعد أكثر على سحب الهواء من الداخل، وبالتالي إن وجود هذه الشخشيخة مع المشربية التي تنفتح على الفناء الداخلي يضمنان التجديد المستمر لهواء الحجرات واحتفاظها أيضًا بهواء لطيف رطب معظم الوقت.

كما تساعد على توفير الإضاءة العلوية يمر المباشر وتكون الشخشيخة إما على شكل فيه أو دائرية أو مضلعة أو على رقية دائرية أو سداسية أو ثمانية.

٨- **المقعد:** عبارة عن شرفة تقع في الطابق الأول من السكن وتكون مواجهة للرياح السائدة ويتم الوصول إليها من خلال الفناء الداخلي عن طريق درج مباشر يصعد إليها وللمقعد واجهة مفتوحة على الفناء الداخلي مؤطرة بقوس أو قوسين.

٩- **الكلاوسترومر:** فتحات كبيرة تستخدم لغرض الإضاءة والتهوية. تقع في الأجزاء العليا من الغرفة، وهي عبارة عن شبكة زخرفية على شكل جدار. مخرمة بقطع جصية منحوتة. يستخدم الكلاوستروم لطرد الهواء الحار المجتمع في الأجزاء العليا من الغرفة. يقع الكلاوستروم أحيانًا في جدران الستارة؛ وذلك لزيادة سرعة الهواء فوق رؤوس النائمين على السطح (ليلا). يختلف الكلاوستروم عن المشربية بكون الأخيرة من مادة الخشب ويكون في مستوى أرض الغرفة.

أثر العوامل الاجتماعية في تخطيط وعمارة المدن العربية الإسلامية

تنقسم المدن الإسلامية من حيث التكوين إلى مجموعتين، هما مجموعة المدن التلقائية أو العشوائية ومجموعة المدن المبدعة أو المخططة، فمجموعة المدن العشوائية هي السائدة في العالم الإسلامي ومنها مدن الأمصار وهذه المدن التي من غير تخطيط. أما المدن المخططة، فهي على نوعين الأول العواصم المستحدثة كمدينة بغداد المدورة. أما النوع الثاني، فهي مدن الأمراء، وهي المدن التي تنشأ عندما يقرر الحاكم الرحيل من عاصمته إلى عاصمة جديدة، كما حدث في مدينة سامراء. والنوع الثالث: الأربطة على الثغور الإسلامية كمدينة سوسة بالمغرب. والنوع الأخير هي الأمصار ويمكن تسميتها بالمدن العسكرية.

١ – تخطيط المدن التلقائية (البصرة والكوفة):

لقد خطط العرب المسلمون مدنهم وفقًا لمعتقدات الدين الإسلامي ولمتطلبات الحالة النفسية والاجتماعية التي أصبحوا عليها، فكانت البساطة أولا والواقعية ثانيا وشروط وظائف المدينة الفعلية ثالثًا. وقد ثبت أن التخطيط قام على أسس نابعة من قيم الدين الإسلامي وهويته وانعكس تطبيق هذه الأسس والقواعد على صياغة وحدة المدينة التركيبية الإسلامية.

وتعد مدينة البصرة أول مدينة أقيمت في الإسلام خارج الجزيرة العربية في سنة ١٤هـ. ومن معسكر للجند إقامة عتبة بن غزوان إلى مدينة مبنية بالقصب والبردي وكان تخطيط المدينة بتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وجاءت خططه بتوسط المسجد الجامع في مركزها وإلى جانبه دار الإمارة، وتوسط المسجد الجامع هو شرط من شروط إقامة المدن الإسلامية ليكون قريبًا من جميع جهات المدينة. ومن خلال تخطيط المدينة، يبدو أنها قامت على أساس توزيع الخطط بين القبائل، أي وفق التخطيط التلقائي أو العشوائي.

ومن المدن الأخرى، الكوفة، تبين من خلال المصادر التاريخية التي وصلت إلينا بأن العرب المسلمين اتخذوا من الكوفة معسكرًا للجيش الإسلامي. فقد ذكر الطبري الرسالة التي بعثها سعد بن أبي وقاص إلى الخليفة عمر بن الخطاب: (إن العرب لا يوفقها إلا ما وافق قبلها من البلدان، فبعث سعد حذيفة وسلمان، فخرج سلمان فسار في غربي الفرات لا يرضى شيئًا حتى أتى الكوفة وخرج حذيفة في شرقي الفرات لا يرضى شيئا حتى أتى الكوفة، فأعجبتهما البقعة). ومن خلال هذه الرواية فإن مدينة الكوفة أسست لتكون مقرًّا للجيش الإسلامي وعوائلهم الذين جائوا معهم. ومن الجدير بالذكر أن شروط تأسيس المدن العربية الإسلامية الأولى، توحدت بعد أن وضع الخليفة عمر بن الخطاب شرطًا عند تخطيطها وإعمارها، ففرض على من يختط المدينة أن يكون الموقع ملائمًا للعرب وإبلهم وقريب من الماء والمراعي ولا تفصله عن الجزيرة العربية مركز الخلافة موانع طبيعية؛ وبذلك نستنتج أن الاختطاط هو تعليم الحدود

الخارجية للموقع وليس بالضرورة. كما أنه يتم من قبل المختط نفسه وفي حدود منطقة معينة.

٢ - المدن المخططة:

أ- بغداد: تعد مدينة بغداد المدورة ضمن المدن المخططة والعواصم المستحدثة، يلاحظ المتتبع اتجاه المجتمعات المتحضرة منذ ظهور الإسلام الذي كان له الأثر الواضح في ظهور مدن إسلامية، كانت بمثابة مراكز حضارية حملت لواء الحضارة وتمثل هذه المدن المستوى التطبيقي لتكثير العمارة ويؤكد كذلك اهتمام الحكام المسلمين بالعمارة والعمران ومشاركتهم أنفسهم في اختيار مواضع المدن؛ وأوضح مثال على ذلك ما فعله الخليفة المنصور عند إنشاء مدينة بغداد.

إن تخطيط المدينة بشكل مدور؛ ينم عن فكر حضاري متقدم في مجال العمارة العربية الإسلامية. وقد أشار اليعقوبي إلى (أن المنصور لما عزم على بنائها، أحب أن ينظر إليها عيانًا، فأمر أن تخط بالرماد ثم أقبل ليدخل من كل باب ويمر في فلاتها وطاقاتها ورحابها وهي مخطوطة بالرماد. إن نظرية المنصور في تخطيط مدينته هي نظرية الاستنباط الفكري في الجانب المعماري في بناء نمط جديد من المدن العربية الإسلامية، ووفق الشروط التي اعتمدت في بناء البصرة وغيرها من المدن ويبدو أن المنصور حرص على أن تكون خطط منازل أهل بيته والمرتبطين به ومواليه وأتباعه بالقرب منه، إذ كان اختياره لاتباعه قائمًا على خطة مرسوم لإسكان من

يثق بهم ويرتبطون به بواسطة المصلحة والإقرار بخلافته، وهو لم ينظمها على أساس قبلي وإنما أقام تنظيمه على أساس الأفراد والجماعات أو المدن التي جاءت منها الجماعات التي أوطنها فيها. لقد قسمت مدينة بغداد إلى ثلاثة مناطق دائرية وكل منطقة دائرية سكنية مقسمة إلى ثمان واثنتي عشرة مجموعة من الدور، تفتح على سكك لها أبواب وثيقة من الطرفين وتفتح أبواب السكك على طريقين دائريين، أحدهما داخلي والآخر خارجي ولا تفتح على الرحبة. وهذان الطريقان يفتحان على طريقين من الطرق الأربع الرئيسية ذات الطاقات والموصلة بين بوابات المدينة والرحبة. ومما ينبغي الإشارة إليه أن بوابات المدينة علامة من علامات التواجد المستقل؛ لأن البوابة على فم السكة تعني أن مسؤولية المنطقة الداخلية من البوابة ملقاة على الفريق المستوطن. ومن قراءة أسماء دروب وسكك المدينة، نجد أنها لم تقم على أساس قبلي؛ فقد ذكر الخطيب البغدادي (أن المنصور قد وزع سكك المدينة ودروبها على موإليه وقواده ومستشاريه والموظفين البارزين مثل سكة ابن عمير وسكة الزبيدية وسكة الشرطة). إن تنظيم خطط بغداد وتوزيعها بالصورة التي ذكرت أعلاه؛ تعبر عما وصل إليه التطور الاجتماعي في مجتمع الدولة العربية الإسلامية وأدى ذلك إلى ضعف الروابط القبلية وازدياد مكانة الأفراد وبروز أهمية الروابط المدنية.

ب- سامراء: تندرج مدينة سامراء تحت المدن المخططة التي تعرف بمدن الأمراء وهي التي تؤسس عندما يقرر الخليفة أو الحاكم ترك عاصمته وبناء عاصمة جديدة. وقد لعب واحد من العوامل الاجتماعية دورًا مهمًّا في تأسيس المدينة وهو التخطيط الاجتماعي الذي يشير إلى أن الحاكم عليه

أن يميز بين قبائل ساكنيها بألا يجمع أضدادًا مختلفة متباينة؛ فقد برزت في بغداد مشكلة صراع الأجناس المختلفة التي كان الترك من جند المعتصم محركًا رئيسًا لها، وخصوصًا بعدما أهمل الخليفة الجنسين العربي والفارسي وبعدما وجد الأتراك الحظوة. فبعد أن كثر جند المعتصم حتى بلغوا سبعين ألفًا، فمدوا أيديهم إلى حرم الناس وإذا ركبوا انحطم كثير من الصبيان والعميان والضعفاء من ازدحام الخيل. وعلى ذلك، عزم المعتصم الخروج من بغداد إلى عاصمته الجديدة وبنى المعتصم القصور والدواوين وثكنات الجيش وأقطع القطائع للقواد الذين بنوا فيها منازلهم بعيدًا عن منطقة سكنى العامة التي تركزت حول المسجد الجامع في الشمال، فكان الفصل الاجتماعي بين الأتراك والعامة واضحًا. ومما تقدم، نجد أن العامل الاجتماعي وهو عدم التكيف الاجتماعي، كان له دور مهم في نشأة مدينة سامراء. ومن اللافت للنظر، أن المدن الإسلامية عندما تضيق عليها أسوارها تضطر إلى التوسع خارج أسوارها. إن الجديد الذي أتت به المدينة الإسلامية المرونة في التوسع عبر المركز المتحرك عبر الزمن والذي يمكن التعبير عنه على شكل نقطة في الفراغ العمراني تتحرك لتنتج العنصر الخطي وهو ما نسميه بالمخطط الإيقاعي وبفضله أصبح من المستطاع استيعاب النمو والتغير كظواهر بشرية طبيعية، تشكل المدينة بمرور الزمن دون الإخلال بتناغم عناصرها وترتيبها وتعكس لنا مدينة سامراء ما يطلق عليه بالظهور ويعني التوجه بالعمارة نحو الخارج ويتخذ من الزمن والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية سببًا له. وتبقى سامراء المثل الأكثر وضوحًا على مفهوم الظهور في بناء المدن الإسلامية وهناك جملة من المعطيات، تجعل من سامراء مدينة الظهور، لقد بنيت المدينة على الضفة الشرقية لنهر دجلة بطول يصل إلى ٣٢ كم وعرض

٥ كم وهي هنا تأتي كاستجابة طبيعية للنهر، هذا الاتجاه الطولي للمدينة يجعلها تختلف تمامًا عن مدن الاحتواء التقليدية في العالم الإسلامي، وترتب على بناء سامراء بشكلها الطولي؛ كثرة هياكل المدينة وساحاتها والأطوال المفرطة لهذه الهياكل والساحات. ومدينة سامراء مدينة مفتوحة بلا سور يحيط بها في اختلاف جذري عن بقية مدن الاحتواء وباختفاء السور، تختفي منظومة العناصر المرتبطة به ودلالاتها المكانية، كالبوابات والأبراج.

٣- **مدن الأربطة:** وهي المدن أو البناء المحصن الذي يرابط فيه العربي المسلم؛ دفاعًا عن الأرض والوطن والعقيدة العربية الإسلامية احتسابًا لوجه الله تعالى دون طمع في مال أو مغنم أو جاه. ويبدو أن الجيوش العربية بعد الانتصارات التي حققتها ضد الفرس والبيزنطيين، كانت بحاجة إلى حماية نفسها من خطر الأعداء باتخاذ معسكرات متقدمة يرابط فيها الجند لمراقبة تحركات الأعداء، ويعد رباط سوسة أحد الأربطة التي أقامها الأغالبة على الساحل وكان في مقدمة العوامل التي دفعت الأغالبة إلى اختيار هذا المكان؛ هو حصانة الموقع وأهميته الاستراتيجية، لابد أن يكون نشأة الرباط العسكري ارتبط بحركة التحرر والفتوحات الإسلامية، ولابد من الإشارة إلى أن المدن العربية، بالإضافة إلى كونها مدن عسكرية، تطورت حتى أصبحت إدارية عسكرية. إن المدينة العربية نمت بشكل مضطرد بعد الإسلام وتوسع الفتوحات والبلدان والاحتكاك بالحضارات الأخرى وفي تطور الدولة الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي.

كيفية تخطيط الشوارع الإسلامية

كانت أول بداية لتخطيط المدن الإسلامية وعمارتها منذ الهجرة إلى المدينة المنورة وذلك بعد أن أصبحت مدينتهم الأولى، ونظرًا لأنها تقع على طريق التجارة إلى الشام وذات تربة خصبة ومياه وفيرة مقارنة بمناطق أخرى في الحجاز، فإن ليثرب هنا بنية اقتصدية جيدة حيث توفرت فيها الزراعة والتجارة. بالإضافة إلى بعض الصناعات الحرفية وكذلك التعدين وكانت أيضًا تتميز بتنوع ديموغرافي يمثله وجود إليهود بكثرة. كما كانت تفتقر إلى سلطة سياسية مركزية؛ ما أدى إلى استمرار الخصومات وتحولها إلى حالة دائمة فيها.

وعندما ظهر الإسلام، كان لظهور الرسول ﷺ الدور الكبير في إنهاء الخصومات بين الأوس والخزرج، مما أدى إلى ضعف تأثير اليهود الذي كان غالبًا فيما سبق.

نعود إلى التغيير العمراني، حيث كانت البداية بناء المسجد النبوي على أرض في وسط المدينة ابتيعت للمسجد ثم شقت طرق رئيسية تصل المسجد بالضواحي.

وتشير بعض الروايات التاريخية إلى طريق يمتد من المسجد ويتجه غربًا حتى يصل إلى جبل سلع وطريق من المسجد يخترق منازل بني عدي بن النجار ويصل إلى قباء جنوبًا. ومن قباء وجد طريق يتجه شمالًا إلى البقيع.

كانت الشوارع قياسية فقد كان عرض الشارع الرئيس سبعة أذرع ويتفرع منه خمسة أذرع والشارع الأصغر ثلاثة أذرع وقد غطيت شوارع المدينة في حينها بالحصى.

حين وصل المهاجرون إلى المدينة، وهب لهم الأنصار بعض الأراضي الفارغة ليسكنوا فيها وقسمت الأرض بطريقة قبلية؛ حيث إن كل قبيلة أعطيت أرضًا تخططها كما شاءت. ومن هنا أنشأت هذه الطريقة نواة لتخطيط المحلات السكنية طوال الفترة الإسلامية؛ فالمحلة نفسها تقتطع لها أرض محددة ويقوم ساكنوها بتنظيمها بما يرونه، فقال: (لقيت رسول الله بالسوق في أصحابه فسألتهم أين يريد، فقالوا: اتخذ لقومك مسجدًا، فرجعت، فإذا قومي فقالوا خط لنا مسجدًا وغرز في القبلة خشبة).

أما تنظيم السوق في المدينة، فقد كان تنظيمًا بلا مبان، حيث إن الأرض كانت تترك فضاء ويأتي التجار ببضائعهم، فيستخدمون الأرض للبيع والشراء حتى آخر النهار ولكنه ليس محجوزًا لهم دومًا.

وقد اهتم النبي ﷺ بتوفير المرافق العامة؛ حيث أقام خيمة بالمسجد لأجل التداوي. كما أقيمت دور الضيافة لاستقبال الوفود كان أهمها دار عبد الرحمن بن عوف واتخذت مواضع لقضاء الحاجات تسمى (المناصع). واختيرت مواضع للذبح بعيدًا عن السكان وتم إنشاء مكان لصلاة العيد.

وكما هو معروف، فإن للنبى ﷺ تأثيرًا كبيرًا على تخطيط المدينة، استمر هذا التأثير طيلة قرون طويلة؛ فالكثير من المبادئ التي اعتمد عليها

في تخطيط وإدارة المدن الإسلامية منذ ذلك الحين حتى نهاية القرن التاسع عشر كان يرجع في أساسه إلى هذا النموذج.

وفي نفس الوقت وبالموازاة مع البناء، قام النبى ﷺ بإعادة تنظيم المدينة إداريا واجتماعيا؛ حيث إن أول عمل هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والتي حققت الكثير من الأهداف؛ أهمها المساعدة على دمج المهاجرين في المجتمع الجديد وتقوية الأواصر بينهم وبين الأنصار والتأكيد على أهمية التكافل الاجتماعي.

وعندما اتسعت الدولة الإسلامية في صدر الإسلام، تم تأسيس العديد من المدن أو القواعد العسكرية التي تحولت إلى مدن أهمها (البصرة) في عام ٦٣٣ و(الكوفة) في عام ٦٣٨ و(الفسطاط) في عام ٦٤٢ و(القيروان) في عام ٦٦٥ ميلادي. وفي هذه المدن يتشابه التخطيط فيها إلى حد كبير مع تخطيط المدينة المنورة، مما يظهر تأثيرها على المدن الإسلامية الأولى.

وخلاصة القول، إن تخطيط شوارع المدينة الإسلامية تأثر بالفكر العمراني الأول للرسول ﷺ في المدينة ثم بنظام التحصينات والأسوار فيها؛ من حيث:

١) اختيار موقعها الحصين المرتفع أو المحاط بعوائق مادية انعكس على الطرق الموصلة إليها.

٢) إحاطتها بأسوار حدد مساحتها وامتدادها وبالتالي أرباضها، فكان للتحصينات أثر كبير على عدد ومقاييس واتجاهات شوارعها.

٣) تأثرت بمقاييس الأبواب، نظرا لإحاطة البوابات بأبراج زودت بالسقاطات وتخطيطها كان من الاتساع إلى الضيق ثم إلى الاتساع ثم الانعطاف يسارًا.

٤) ضيق الشوارع الجانبية أدى إلى الاستغناء عن الشوارع كعنصر تهوية وإضاءة والاعتماد على الفناء الداخلي.

٥) أثر نظام تأمين الخليفة أو الوالي في المدينة الإسلامية على وجود طرق أرضية "أنفاق" تربط بين القصور والمدينة.

٦) أثر تأمين الحاكم في تخطيط شوارع وسكك المدينة الفرعية، فقد عملت لها دروب تغلق عليها وقت الفتن والاضطرابات، ومثال ذلك بغداد.

٧) تأثير المسجد الذي يعتبر من المحاور الرئيسية في التخطيط وامتاز بوسطية مكانه وتفرعت إليه الشوارع الرئيسية؛ للتمكن من إلقاء الخطب الدينية، فأثر على الشوارع والأزقة الفرعية المتصلة به.

٨) إنشاء الأرباض خارج المدن الرئيسية وبناء المساجد بها أدى ذلك إلى تخطيط الشوارع وتوجيهها.

٩) الأسواق أثرت في تخطيط الشوارع، فأنشئت الأسواق الأسبوعية خارج المدينة، فأدى ذلك إلى إنشاء شوارع فرعية للتخفيف على شوارع المدينة الرئيسية.

١٠.) توصيل الماء أدى إلى التأثير على شوارع المدينة.

مقاييس الشوارع واتجاهاتها:

أسباب التنوع: هناك عوامل للتنوع في مقاييسها واتجاهاتها، فمنها متصل بتخطيط المدينة ومنها متصل بمناخها وأيضًا بتضاريسها وبالقيم الإسلامية.

الوصف العام للشوارع في المدن المستحدثة تشير إلى ضيق الشوارع والتوائها.

مدينة البصرة: كان شارعها الأعظم ٦٠ ذراعًا والشوارع الباقية ٢٠ ذراعًا وعرض الأزقة سبعة أذرع.

مدينة الكوفة: حدد الخليفة الفاروق شوارعها بسبعة أذرع ولا يرتفع البناء أكثر من طابق. وتحديد ارتفاع المباني بهذه الهيئة يزيد الإحساس باتساع شوارعها.

ولكن لم يكن هذا تقليدًا متبعًا في جميع تخطيطات المدن الإسلامية؛ فمع نمو المدينة الإسلامية وتحولها إلى مراكز حضارية عمرانية زاد الاهتمام بالشوارع الرئيسية فيها، مثل:

أ- **مدينة واسط:** عند تأسيسها، وجد بها أربعة شوارع رئيسية، عرض الواحد ٨٠ ذراعًا.

ب- **مدينة سامراء:** كانت شوارعها الرئيسية عرضها ١٠٠ متر وهي من أعرض الشوارع في العواصم العالمية حتى الآن وهذا يشهد بمدى الرقي المعماري للعمارة الإسلامية.

وظيفة الشوارع في المدينة الإسلامية:

١- الشوارع تمثل شرايين اتصال وحركة تربط بين تكويناتها المعمارية.

٢- ترتبط، بشكل مباشر، بوسيلة النقل المستخدمة وهي الدواب سواء في الركوب أو حمل الأثقال.

٣- ارتبطت كثافة المرور في الشوارع بكثافة السكان، فقد اشتملت على بعض المنشآت على جانبي الشوارع.

٤- لعب السقاؤون دورًا مهمًّا في حياة المجتمع الإسلامي؛ حيث كانوا ينقلون الأخبار بين أهل المنازل التي يتعاملون معها.

٥- دور الرحالة والوافدين في حركة المرور وحركة الحياة في شوارع المدينة.

٦- دور البائعين والجائلين وأصحاب الحرف، فهم يصلون إلى كل أجزاء المدينة.

٧- تتأثر الكثافة المرورية في المواسم والأعياد للرغبة في شراء المتطلبات.

٨- شهدت الشوارع جوانب من الاحتفالات في المواسم والأعياد والمناسبات السارة.

٩- دور الشوارع في مواكبة الاحتفالات الاجتماعية كاحتفالات الزفاف والاحتفال بالمناسبات الدينية كالإعلان عن مواكب رؤية هلال شهر رمضان وما يصاحب ذلك من ابتهاج، فتعلق الفوانيس المضاءة فرحًا بمقدم رمضان وحضور صلاة العيد يخرج السلطان والخليفة إلى مصلى العيد ويكون خارج المدينة، كذلك مواكب الإعلان عن قرب موعد الحج وموكب خروجه للبلاد المقدسة.

نظافة الشوارع والطرقات:

دور الحكام في الارتفاق بالشوارع والطرقات، حيث أمروا بالآتي:

- منع الحيوانات المكروهة من المرور كالكلاب لنجاستها.
- منع النساء من النياحة على الأموات في الشوارع.
- عملوا على مطاردة الشحاذين والمعدمين فيها.

دور المحتسب في الارتفاق بالشوارع والطرقات:

- يمنع احتمال الحطب والشوك وغيرها لأنها تؤثر في نظافة الشوارع.
- يراقب نظافة الشوارع ويمنع رمي النفايات على جوانبها.
- منع اختلاط الرجال بالنساء في الشوارع، وخصوصًا في تشييع الجنائز.
- يمنع الرجال من الجلوس في طرقات النساء إلا لحاجة.
- ينبه أصحاب المباني الآيلة للسقوط من أن تسقط وتتسبب في أذى المارة والجيران.

الأحكام الفقهية: دعت إلى إصلاح الطرق وتنظيفها.

أصحاب المباني: قاموا بتنظيف الشوارع التي تطل على مبانيهم وأسواقهم وحوانيتهم ورشها بالماء.

أهمية الشوارع في المدينة الإسلامية:

- مكان لإعلان النداء لأغراض اجتماعية شخصية تهدف إلى مشاركة فئات المجتمع في مناسباتهم الاجتماعية.
- مكان للإعلان عن زيادة فيضانات الأنهار كنهر النيل.
- مكان لإعلان دوران المحمل بحيث تخبر سلطات المدينة من يعتزم الحج للاستعداد له.
- استغل العامة مرور موكب الحاكم في شوارع المدينة للتعبير عن مشاعرهم وعرض مطالبهم.
- مكان لإعلان المراسيم العامة التي تريد السلطة إخبار العامة بها.
- مكان للتشهير بالخارجين على الدولة واستخدام الأجراس والنداء معا ليزيد من انتباه العامة بالشوارع، فيتحقق الغرض الإعلامي.

- عكست الشوارع أحداث الصراع السياسي؛ فكانت مكانًا لقتل الخارجين على السلطة والمجرمين بقتلهم وتعليقهم على الأبواب الرئيسية للمدن التي يمر العامة بها بصورة مكثفة.

مميزات الشوارع في المدينة الإسلامية:

١- اعتبرت الشوارع هي الأصل في تخطيط المدن الإسلامية وتتفرع منها الشوارع الفرعية.

٢- اختلفت مقاييس الشوارع سلبًا وإيجابًا تبعًا لمكانة المدينة وأهمية الشارع ذاته.

٣- تدرجت من الضيق إلى الاتساع.

٤- تنوع الشوارع؛ فمنها شوارع عامة وتكون مستقيمة متسعة وشوارع خاصة تتسم بالضيق والالتواء.

٥- مقاييس الشوارع: الشوارع الخاصة ترك تحديدها لأصحابها وإذا اختلف في تحديده، يرجع في ذلك لقول النبي عليه السلام: "إذا تدارأتم في شارع، فاجعلوه سبعة أذرع".

٦- أثر الظروف المناخية كحركة الشمس واتجاه الريح في الطرق والشوارع.

٧- اتخاذ الطرق الخاصة نافذة للمناطق السكنية كنوع من الخصوصية للبيوت المشتركة.

٨- أثر الشمس في اتجاه الشوارع؛ ففي المناطق الحارة تكون الشوارع من الشمال إلى الجنوب؛ لكي لا تتعرض الشوارع وواجهات البيوت للشمس.

٩- أثر التحول الإنشائي الوظيفي لبعض المدن؛ نتيجة لتغيير الأوضاع السياسية مثل مدينة القاهرة التي تحولت في العهد الأيوبي من مدينة ملكية إلى عامة؛ أدى ذلك إلى تحولات جذرية في عمران المدينة وتكويناتها وأزيلت القصور الفاطمية، فتطلب ذلك إنشاء شبكة جديدة من الطرق الفرعية والخاصة.

كما أن التسلط الشخصي لبعض الأفراد أدى إلى تغير هيئة بعض الطرق والشوارع كفتحها على بعضها البعض أو إلغاء لبعضها تحقيقًا لأغراض خاصة.

أبـرز المنـشآت والمرافـق العامـة فـي المديـنة الإسلامية

حفلـت المدينـة الإسـلامية بالعديـد مـن التكوينـات والمنشـآت العامـة المعماريـة تبعًـا لتنـوع الأغـراض في المدينـــة الإســـلامية وإن اختلفـــت في تطورهـــا تبعًـــا للمراحـل التاريخيـة الـتي مـرت بهـا المرافـق العامـة في المدينة الإسلامية.

أولًا- المنشآت الدينية:

تعددت المنشآت الدينية في المدينة الإسلامية وتنوعت بتنوع وظائفها والتي انبثقت من وظيفة المسجد الجامع وكانت تابعة له.

المسجد الجامع:

يعتبر المسجد من أهم المنشآت العامة في المدينة الإسلامية؛ لما له من دور أساسي في حياة المجتمع، قام بوظيفته الدينية كمركز لبحث الشؤون السياسية والدينية والتربوية والاجتماعية. ففيه يستقبل الوفود والسفراء وتخطب فيه الجمع والأعياد وينظم شؤونهم ويعلمهم أمور دينهم وكان الخلفاء يعلنون من منبر المسجد الأحداث التي تواكب الفتوحات الإسلامية ويلقي الخليفة أو الأمير خطابه السياسي الذي يوضح فيه كيفية

مسيرته السياسية ومسؤولياته وواجب الرعية نحوه؛ فالمسجد بمثابة جامعة وبرلمان ويقوم بوظائف متعددة.

١- تخطيط المساجد الإسلامية، (مسجد الرسول ﷺ كنموذج):

حثت العقيدة الإسلامية المسلمين على إعمار الارض؛ إذ حفلت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية بالعديد من الآيات التي تدفع المسلم إلى البناء وتعد عمارة المسجد واحدة من أهم العمائر الدينية التي حددت العقيدة معالمها الفنية. لذلك جاءت متطابقة مع رؤى العقيدة الإسلامية وكان مسجد الرسول وبحكم استخدامه الجماعي كملتقى للمسلمين الأوائل وموضع لصلاتهم الجماعية والتقائهم بالنبي ﷺ وقائدهم الروحي، قد تطور سريعًا بعد وفاة الرسول ليصبح النموذج الأمثل للمساجد معماريًّا ووظيفيًّا حتى اليوم، أي أن مسجد الرسول (ﷺ) على عكس بيت الله الحرام، قد صمم أساسًا وهيئ للاستنساخ والنقل والتقليد وهذا ما فعله المسلمون عندما اندفعوا شرقًا وغربًا في حركة الفتح الإسلامي، فكل مساجد المسلمين الأولى تنبع في عمارتها مسجد الرسول شكلا ومضمونا، ولم يكن اتباع هذه المساجد الأولى نابعًا حصرًا من القيم المثلية والتذكارية، بل إن عمارة مسجد الرسول في الأساس مهيأة وظيفيًا لتلبية حاجات الجماعة المسلمة الأولى الدينية والاجتماعية والسياسية. وبالتالي، فقد كان تقليد عمارة مسجد الرسول (ﷺ) في المناطق المفتوحة على الغالب تذكاريًّا وعمليًّا.

موقع المسجد وتخطيطه :

أراد الرسول ﷺ أن يتوسط المسجد المدينة ليكون نواة العاصمة والحاضرة الجديدة للدولة العربية الإسلامية وبمثابة القلب للمدينة المنورة. وجاء المسجد بسيطًا في تخطيطه، عبارة عن مساحة مستطيلة مكشوفة تحدها أربعة جدران تتمثل في جدار القبلة الذي يمتد من الشرق إلى الغرب في اتجاه بيت المقدس يقابله ويوازيه جدار آخر يماثله. أما الجداران الشرقي والغربي، فيمتدان من الجنوب إلى الشمال بهيئة متعامدة على طرفي جدار القبلة.

تخطيط المسجد:

١) كان المسجد يقع في وسط المدينة؛ باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها وتخطط حوله الخطط والشوارع والسكك والأزقة واتخذ بوسطية المدينة كمركزية لها ليكون قريبًا من كل أطراف المدينة؛ حتى يسهل على المصلين التوجه إليه سواء من أهل المدينة أو من المناطق المجاورة لها.

٢) مع نمو المدينة وتزايد سكانها أصبحت الحاجة مُلحة لتوسعة المسجد الجامع ليتسع لأعداد المصلين المتنامية، فأصبحت ظاهرة توسيع المساجد ظاهرة عامة في تاريخ الكثير من المساجد الجامعة في المدينة الإسلامية مثل مسجد البصرة والكوفة وبغداد.

٣) مع اتساع رقعة العمران في المدينة الإسلامية، أدى إلى الاتساع الكبير الممتد في أرباض عديدة اتخذت هذه الأرباض هيئة المدينة الأم وأنشئت فيها المساجد الجامعة.

٤) ومع امتداد عمران المدينة وكثافة سكانها مع مرور الزمن، باتت الحاجة مُلحة لإقامة عدة مساجد جامعة.

ثانيا ـ دار الإمارة:

١. الموقع: أوجبت الضرورة الوظيفية لدار الإمارة مجاورتها للمسجد الجامع لتكون في وسط المدينة؛ لأنها تمثل الجهاز الإداري الذي يشرف على جميع الشؤون الإدارية، كالوالي والقاضي وصاحب الشرطة.

الأسباب:

ـ اقتداء بالمصطفى: فقد بنى الرسول منزله ملاصقًا للمسجد الجامع.

ـ ما وقع في مدينة الكوفة في سنة ١٧هـ في ولاية سعد بن أبي وقاص، أن تسلل أحد اللصوص دار الإمارة بعد أن ثقب جدارها وسرق المال المحفوظ في بيت مال المسلمين، وشكا سعد إلى الفاروق، فأمره أن يجعل داره ملاصقة لجدار المسجد.

ـ ما حدث في مدينة البصرة في سنة ٤٤هـ، في ولاية زياد بن أبيه، فرأى ألا يمر بين يدي المصلين عند توجهه للمحراب، فحول دار الإمارة

إلى قبلة المسجد ليصل الوالي إلى قبلة المسجد مباشرة وأصبح ذلك تقليدًا معماريًّا في قصور الخلفاء ودور الإمارة في المدن الإسلامية ثم استتبع تأمين دار الإمارة عزلتها عن مساكن العامة والأسواق.

٢. وفي المدن التي انفصل فيها المسجد الجامع عن القصر أو دار الإمارة، ربطت بينها بشوارع متسعة تتسع لمواكب الخلفاء والولاة.

٣. ربط المسجد بدار الإمارة بساباط يؤدي إلى المقصورة مباشرة.

ثالثا- المدارس:

بدايتها: مع نهاية القرن الخامس الهجري، ظهرت إلى حيز الوجود منشآت دينية ارتبط ظهورها بأحداث العالم الإسلامي في حينها، فقد ظهرت المدارس على يد فقهاء السنة ثم تبنتها الدولة وأصبحت مؤسسات رسمية عنيت بإنشائها لتخريج أجيال المتفقهين بالمذهب السني لمقاومة التيار الشيعي الذي أخذ يهدد المذاهب السنية.

أمثلة: اهتم السلاجقة والأيوبيون والأتابكة بإنشائها ووصلت إلى أرقى مستوى من التنظيم والإدارة؛ حيث أرست تقاليد راسخة علمية تأثرت بها الجامعات الأوروبية.

أثر نظام الوقف: ساعد نظام الوقف على إنشاء العديد من المدارس وعلى استمراريتها في أداء وظيفتها من أراض وعقار للاهتمام

بعمارتها وأوقفت عليها الرباع والخانات والحوانيت، فانعكس ذلك على المظهر المعماري للمدينة الإسلامية خاصة في عصر السلاجقة والعثمانيين.

رابعا ـ الخانقاوات والزوايا:

انتشرت داخل المدينة الإسلامية منشآت دينية للتصوف من خانقاه وزوايا وأربطة تلازم ظهورها مع المدارس، فقد ظهرت فئة من العامة تدعو إلى الزهد والتقشف ونبذ الترف والرفاهية وقوي التصوف في العهد العباسي ودخلت الخلافة في صراع معهم بتحريض من الفقهاء، فتبلور النظام الصوفي وانتشر فكره وأتباعه، فأنشئت لهم مبان خاصة يختلون فيها للعبادة وانتشرت الربط بكثرة نتيجة لانتشار التصوف. والخانقاه بدأت في نهاية القرن "٥هـ" وأوقفت عليها الأوقاف واتخذت شكلًا سياسيًّا حيث أدخلها صلاح الدين مصر للقضاء على أتباع المذهب الشيعي بعد سقوط الفاطميين.

طرائقها: أنشئت لها زوايا بجانب الخانقاه ولكل طريقة شيخ ومذاهب وأتباع، منها: الرفاعية والتيجانية والكيلانية والنقشبندية.

آثار المرافق الدينية:

ـ زادت أعداد هذه المنشآت وأصبحت من التكوينات المعمارية الدينية في المدينة الإسلامية.

. ساهمت في استحداث مرافق عامة كالميضات والأسبلة والكتاتيب والمكتبات وتوفير الخدمات العامة للقاطنين والوافدين كإيجاد وحدات سكنية.

. كان لكل منشأة جهازها الإداري المستقل عن إدارتها ورعاية أمورها.

. كفلت الدولة بسلطتها القضائية والتنفيذية رعاية هذه المنشآت من خلال ديوان الأوقاف.

. شاركت هذه المنشآت في بناء حياة وحضارة المجتمع الإسلامي.

خامسا ـ الحمامات العامة:

أهميتها: أنشئت كحاجة وظيفية في الإسلام مرتبطة بدعوته للتطهر والنظافة.

تصميم الحمام: غالبًا يشمل على تصميم معماري، حيث المدخل الصغير المؤدي إلى غرفة المشلح لخلع الملابس وحفظها وبه مجلس معلم الحمام الذي يأخذ الأجور ويشرف على العمل بالحمام، وتتصل بها الحجرة الباردة مزودة بأحواض مائية عبر أنابيب فخارية ويتصل بها حجرة ثالثة هي الحجرة الساخنة وهي مزودة بمغطس والحجرات بها قباب تسمح بدخول الضوء دون الهواء.

الأرضية: مفروشة بالرخام ليسهل تنظيفها.

البناء: يستخدم الآجر والرخام والحجر لتتحمل الماء ليقوم الحمام بوظيفته.

آثارها:

. خضعت لإشراف المحتسب واستوجب تصميم أحواض الماء وقنواته لتغيير الماء.

. أنشئت حمامات للرجال وأخرى للنساء وبعضها استخدم للنساء بوقت وللرجال بوقت آخر، وكان يصرف للطلاب في بعض المنشآت الدينية مخصصات شهرية للاستحمام بالحمامات العامة.

. كثرت نتيجة لما تدره من ريع وفير نتيجة لازدياد المدينة، فزادت أعداد الحمامات.

سادسا ـ البيمارستانات:

تعد من المنشآت التي توفر الخدمات العلاجية والطبية للعامة وأول ظهور لها في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨هـ حيث اهتم بتخصيص مرتبات مالية لذوي الاحتياجات الخاصة.

تولى السلاطين والأمراء إنشائها وأوقفوا عليها الأوقاف لتستمر في أداء وظيفتها.

مثال: بيمارستان أحمد بن طولون بالقطائع، أتاحه للعامة غير قادرين على نفقات العلاج، فقد اشتمل على أقسام للعلاج متنوعة كقاعة لمرضى الحميات والرمد وللجراحة، وقسمه قسمين: للرجال والنساء وزوده بمطبخ وموضع للأدوية والأشربة ومكان للتدريس.

سابعا ـ الأسواق:

من الملامح للمدن الإسلامية أنها ذات طابع تجاري والأسواق مراكز للنشاط التجاري. وفي الإطار الزمني وجدت أسواق سنوية وأخرى أسبوعية.

وفي الإطار المكاني، وجدت أسواق داخل المدن تنوعت حسب مساحتها ونشاطاتها. وأسواق خارج المدن: تكون قريبة من أبوابها وأسوارها وتكون أوسع حيث يأتي سكان المدينة وخارجها للاتجار فيها؛ فالأسواق إحدى الركائز الاقتصادية وهي تعكس الازدهار المادي للمدن.

نشأت الأسواق في عهد الرسول وكانت عبارة عن مساحة خالية من البناء. وفي العهد الأموي في عهد معاوية بن أبي سفيان، بدأ بالبناء في سوق المدينة. أما في عهد عبد الملك بن مروان، فقد بنيت عدة قيساريات.

والقيسارية: عبارة عن وكالة تجارية أو تجمع تجاري كقيسارية العسل وقيسارية الحبال.

تبلور فكرة الأسواق:

في العهد الأموي: ظهرت فكرة الأسواق المغطاة. ففي عهد هشام بن عبد الملك، عمم هذه الفكرة على معظم أسواق المدن الإسلامية وكان عامله على العراق خالد القسري أول من بنى الأسواق وسقفها وحدد مواضع لكل مجموعة من البائعين المتخصصين في تجارة معينة.

في العهد العباسي: تطور نظام تخطيط الأسواق، فكانت بغداد تشتهر بأسواقها في كل حي من أحيائها في عهد الخليفة المنصور.

وفي القرن الثاني الهجري، أنشأ المنصور مدينة الكرخ وعند تخطيطها طلب قطعة من القماش ورسم السوق عليها، وخصص لكل حرفة منطقة معينة خاصة بها.

وفي عهد المعتصم، أصبح إنشاء الأسواق المتخصصة نمطًا تقليديًا في تخطيط المدينة الإسلامية.

ـ اتجاه الأسواق في المدينة الإسلامية: اتخذت اتجاهين رئيسين، هما:

١) **التكوين المعماري الأول:** تبلور بنائيًا في العهد الأموي عندما بنيت الأسواق وكانت عبارة عن مجموعة من الحوانيت تطل على مساحة مكشوفة في الوسط وتعلوها وحدات سكنية تؤجر لمن يريد.

٢) **التكوين الثاني:** هو نمط الحوانيت المتراصة على جانبي الشارع الرئيسي أو الشوارع الفرعية وصنفت حوانيته تصنيفًا تجاريًّا يمنع وقوع الضرر وهذا يساعد على مراقبة الأسواق.

ثامنا- المنشآت المائية:

تعتبر المنشآت المائية من العمائر التي لها صلة مباشرة بالعمائر الدينية لأنها كانت تبنى من قبل القادرين من الناس؛ ابتغاءً لوجه الله وكسبًا لثوابه وطمعًا في مغفرته. والإسلام دين الطهارة وتعتمد شعائره على الماء بشكل أساسي، وبالتالي فإن المنشآت المائية تعد عنصرًا يتحكم في اختيار موقع المدينة منذ نشأتها وتنوعت أساليب تغذية المدينة بالماء بتنوع مصادره: كالأنهار والعيون والآبار.

لذا حرص المسلمون على بناء هذه المنشآت التي بقيت منها نماذج رائعة في الآثار الإسلامية، من أهمها: الأسبلة والحمامات والآبار والقناطر والسقايات وأحواض الدواب وبرك تخزين المياه، وغيرها الكثير مما يشهد على عظمة المسلمين ومحبتهم للإنفاق في وجوه البر والأعمال التي تنفع الناس. ومن أشهر الأسبلة والسقايات في العالم الإسلامي مجموعة أسبلة

السلطان قايتباي بالقدس والقاهرة والحجاز وأسبلة محمد علي باشا بالقاهرة وسبيل السلطان أحمد في إسطنبول بتركيا.

. هناك مدن تعتمد على الأنهار وإنشاء القنوات، فقد مد المنصور قناة من نهر دجلة والفرات إلى مدينة بغداد في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر وتنفذ في الشوارع والأرباض صيفًا وشتاء. كذلك شق المتوكل قناتين إلى مدينة سامراء.

. مدن تعتمد على مياه الأمطار، فقد عملت بها مصايد الماء والصهاريج والمواجل كمدينتي تونس والمهدية.

. مدن تعتمد على الآبار والعيون والأنهار شقت لها قنوات إلى المدن والتكوينات المعمارية بها كالفنادق والبيمارستانات والمدارس، مثل قناطر ابن طولون، فقد شقت القنوات على هيئة عقدية تجتمع عند كل عقدة مجموعة من القنوات بني عليها خزان، وهي بمثابة نقطة التحكم في توزيع المياه.

ولقد أنشئت للمجموعات المعمارية الكبيرة شبكات تغذي وحداتها المختلفة بالماء من مصادر مختلفة، كمجموعة السلطان قلاوون في القاهرة التي حفر لها بئرًا خاصة وأنشئت لها ساقية إلى مصنع كبير مرتفع يغذي المدرسة ووحداتها والبيمارستان ووحداته في نظام هندسي. وقلد هذا النظام في منشآت المماليك في القاهرة.

وبالتعاون شاركت الدولة والعامة في تأمين مصادر الماء إلى منشآتهم.

وهناك صهاريج عامة لسقيا العامة يوجد بعضها فوق سطح الأرض والآخر تحت الأرض، وانتشرت كذلك الأسبلة في ربوع المدن الإسلامية. ومن أشهر الأسبلة في الحجاز التي شيدها الملك عبد العزيز آل سعود على طريق الحجاج الواقع بين مكة وجدة. وفي سوريا يوجد سبيل ساحة مزة وسبيل اشتقتمر الواقع أمام جامع السكاكيني بحلب. وقد شيد السبيل بالحجر المنقوش وما زال يحتفظ بتاريخ تأسيسه من قبل السلطان اشتقتمر سنة ٧٧٣ هـ (١٣٧١م) وقد جرت العادة أن يبنى فوق السبيل كتاب لتعليم الأطفـال. وكانت الأسبلة تزود بالماء عن طريق الصهاريج التي كانت تبنى في أسفل كتلة السبيل.

ومن المنشآت التي لها صلة بالماء، الحمامـات، وهي من الأبنية المهمة في مختلف العصور الإسلامية؛ نظرا لأهميتها في التطهر والنظافة. وكان يراعى في تخطيطها أن تصمم بحيث تتيح للمستحم أن ينتقل تدريجيا من الجو الحار إلى الجو البارد حتى لا يصاب بأذى. ومن أشهر الحمامات التي ما زالت قائمة وأقدمها حمام الصرح وحمام قصير عمره الواقعان في بادية شرق الأردن ويعود تاريخ إنشائهما إلى العصر الأموي. أما القاهرة، فأشهر حماماتها يعود إلى عصر المماليك ومن أمثلتها حمام بشتاك وحمام السلطان المؤيد. وفي سوريا يوجد حمام بزة الذي يقع بمدينة حلب.

ومن المباني التي لها صلة بالمنشآت المائية بئر الرملة وتعد من أشهر الآثار المائية في الآثار الإسلامية بعد مقياس النيل بالقاهرة، وقد شيدها الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي ما زال اسمه محفورًا على نقش أسسها المؤرخ في عام ١٧٢هـ، ٧٨٨م. والبئر محفورة تحت سطح الأرض وكسيت جدرانها بالحجارة المغطاة بطبقة من الملاط. ويوجد بالبئر حوائط ساندة قوية تمتد من الشرق إلى الغرب وأخرى تمتد من الشمال إلى الجنوب. وتعد بئر يوسف من الآثار المائية التي يعود تاريخها إلى عهد الأيوبيين وتقع بقلعة الجبل التي شيدها السلطان صلاح الدين الأيوبي بالقاهرة. وقد حفرت البئر في الصخر بعمق يتجاوز أكثر من ٨٠م، وأشرف على حفرها الوزير بهاء الدين قراقوش، وكان الماء يستخرج من عمق البئر على مرحلتين.

يعد مقياس النيل من أشهر الآثار المائية في الحضارة الإسلامية ويقع بجزيرة الروضة بمدينة القاهرة. والمقياس عموما يعتبر من المباني المعمارية الوثيقة الصلة بحضارة مصر؛ إذ كانت تحدد من خلاله مناسيب المياه في نهر النيل، وذلك لعلاقتها المباشرة بمواسم الزراعة و جباية الخراج وقد شيد مقياس النيل بأمر من الخليفة العباسي المتوكل على الله عام ٢٤٧هـ، ٨٦١م. وهو ثالث مقياس في مصر في العصر الإسلامي.

وكذلك القناطر من المباني التي لها صلة أيضا بالمنشآت المائية، حيث حظيت من المسلمين بعناية كبيرة وكان بناء مثل هذه المباني يتطلب نفقات كبيرة، حيث كانت تبنى بغرض حمل الماء من أماكن بعيدة وتوصيله إلى مناطق تفتقر إلى وجود الماء. ومن أشهر ما شيد من هذه القناطر في الآثار

الإسلامية وأقدمها قناطر أحمد بن طولون التي شيدها بمنطقة البساتين بالقاهرة في القرن الثالث الهجري، التاسع الميلادي. وفي المغرب الأقصى، شيد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي قناطر كانت تمتد إلى أكثر من اثني عشر ميلا لتحمل الماء إلى مدينة رباط الفتح. ومن القناطر المشهورة أيضًا بفنها الإنشائي والهندسي قناطر مُحَمَّد علي بالقناطر الخيرية.

كما تعد أحواض الدواب من المباني التي لها صلة وثيقة بالماء. وقد شيدت من أجل توفير الماء لشرب الدواب. وفي هذا رحمة كبيرة بالحيوان الذي أوصى به الله سبحانه و تعالى في كتابه الكريم وكذلك رسولنا الكريم صلى الله عليه و سلم في أحاديثه الشريفة. ومن أشهر أحواض الدواب في الآثار الإسلامية تلك التي بناها السلطان قايتباي بجوار مدرسته بصحراء المماليك بالقاهرة في عام ٨٨٣هـ، ١٤٧٨م. وفي المغرب الأقصى، شيد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي بمدينة الرباط سقاية لشرب الدواب.

أما النواعير (السواقي) فتعتبر مدينة حماة الأولى في العالم المشهور بكثرة نواعيرها الموزعة على ضفاف نهر العاصي وما زال عدد كبير منها قائمًا اليوم وقيد العمل، غير أنها لم توصل المياه إلى الأحياء لخدمة البيوت والحمامات والمساجد وأصبحت مقتصرة اليوم على ري البساتين.

أما المواجل (الفسقيات) فهي صهاريج كبيرة تجمع فيها المياه. ومن أشهر المواجل في الآثار الإسلامية مواجل الأغالبة بتونس التي شيدت في

عهد الأغالبة وهي صهريج كبير كانت تتجمع فيه مياه الأمطار ليشرب منها أهل القيروان.

تاسعا ـ المنشآت الدفاعية:

ترتبط العمارة العسكرية الإسلامية بالتّاريخين، السياسي والعسكري، لدولة الإسلام التي شهدت فترات متنوّعة من طبيعة العلاقات الداخلية والخارجية. ففضلًا عن الحروب والمعارك الطويلة التي شهدتها منذ بداية عصر الفتوحات الإسلامية، كان على الدولة الإسلامية أن تدخل في طور التحدي الكبير لتثبيت أمن الدولة والدفاع عن حدودها ضدّ القوافل الداخلية التي كانت تنبعث بين حين وآخر بحكم التنوع الكبير الذي ضمته هذه الدولة من شعوب وبلدان وأعراق وديانات، وما ينجم عن ذلك من بقاء كامن لنزعات وأهداف تحاول التعبير عن ذاتها من حين لآخر.

تفنن المسلمون في إنشاء تحصيناتهم الدفاعية لحماية الدولة من هجمات الأعداء والتّصدي لهم، فبنوا على طول الحدود تحصينات أطلقوا عليها اسم "الأربطة" وهي أبنية عسكرية تمثل خط دفاع متقدم عن البلاد، حيث كان يقيم فيها الجنود وعائلاتهم بشكل دائم، فيمارسون حياتهم الدينية والمدنية. إضافةً إلى استعدادهم وجاهزيتهم الدائمة لمواجهة أي عدوان خارجي أو السيطرة على أيّ فتنةٍ أو خلخلةٍ داخلية.

تبنى الأربطة على هيئة نسق معماري متماثل، فيغلب على تخطيطها الأشكال المستطيلة، الجدران الحجرية المنتظمة المزدوجة المزوّدة بالأبراج

الدفاعية. أما في الداخل، فكان هناك فناء واسع تحيط به غرف لسكن الجنود ومسجد ومرافق عامة.

والشكل الآخر من التحصينات العسكرية كان يشمل الأسوار العالية المدعّمة بالأبراج والمجهزة بوسائل الدفاع والمراقبة وقد بنيت هذه الأسوار حول المدن لحمايتها وصدّ الحصارات عنها. ويعد السور من أهم الأبنية العسكرية التي أنشأها المسلمون في مدنهم.

كان لطبيعة الأرض والمكان والموقع الدّور الأساس في تحديد شكل السور ولكن السمات في الأسوار كانت تتمثل في وجود الأبراج المجهزة بنقاط المراقبة ومرامي السهام والنوافذ لقذف السوائل المحرقة. وهناك نقاط متعددة من السور جعلت فيها أبواب محكمة الإغلاق، يحميها برجان أو تكون ضمن برج واحد. ويعود ذلك لأهمية الباب وما يشكله من نقاط قوة وضعف.

يعد تحصين المدن الإسلامية أمرًا أساسيًّا عند الولاة والحكام لصد هجمات المعتدين وحماية للبلاد من المؤامرات الخارجية برفع أسوارها ونصب أبراجها وإحكام أبوابها وبناء الحصون والقلاع والثغور المحصّنة على حدود الدولة من جهة البر والبحر، حتى تحرّرت القدس من الصليبيّين ولم تكن الأندلس وحواضر العالم الإسلامي في المشرق والمغرب بمنأى عن العدوان الخارجي الحاقد. ومن أجل ذلك، لم يتوان المسلمون عن إعداد القوّة وإرهاب الأعداء المتربّصين، فكانت عوامل مساعدة على تحصين

المدينة وفق تلك الآليات الآتية من بناء (الأسوار، القلاع، الحصون، الخنادق، أبراج المراقبة) ثم تطورت الدفاعات حسب العصور الإسلامية الأخرى.

وذكر ابن بطوطة أن الغرناطيين قاموا بوضع سلسلة من التحصينات على سواحلهم وخاصّة أبراج الطليعة ووضعوا في قمّتها ناظور البرج وكانت مهمّة الناظور تنبيه الحامية الساحليّة إذا أغار الأعداء بإثارة الدخان في النهار وإضرام النار في الليل.

وذكر الخطيب أن الحاجب رضوان شيد أربعين من هذه الأبراج في عهد يوسف الأول على امتداد الساحل بين بيرة وغرب مملكة غرناطة.

ولقد أخذت المدن الإسلامية الناشئة مظهرًا حربيًّا، فكانت بمثابة معسكرات حربية تفي بمتطلبات الجيوش الفاتحة ومراكز الانطلاق نحو فتوحات أخرى. وكانت استرتيجية اختيار مواقع هذه المدن هي أن تكون على اتصال مباشر بمركز القيادة في المدينة المنورة، لا يفصلها عنها موانع مائية. وكانت هذه رؤية الخليفة عمر بن الخطاب الذي أكد هذا الأمر في اختيار موقع البصرة والكوفة والفسطاط. ثم اتبع نهج الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ عقبة بن نافع في اختيار موقع مدينة القيروان، فجعلها بعيدة عن البحر داخل الصحراء حتى لا تكون في مرمى الأساطيل المعادية، ولاسيما أن المسلمين في ذلك الوقت لم تكن لهم القوة البحرية التي تمكنهم من الدفاع عن مدن ساحلية. ولكن بعد أن توفرت هذه القوة وأنشئت

الأساطيل، اختلف الاتجاه ولم تكن الحاجة مُلحة لإنشاء الأسوار حول هذه المدن الأولى، ولاسيما أن دواعي الأمن في أقاليم الدولة الإسلامية كانت متوفرة. كما أن قوام سكان هذه المدن كانوا من الجند الفاتحين.

الوسائل الدفاعية في مدينة بغداد:

كان التخطيط الحربي لمدينة بغداد يقوم على عدة خطوط دفاعية متتابعة، تحقق إعاقة المهاجمين وتمكن المدافعين من ضربهم. فقد حفر حول المدينة خندق يحيط بأسوارها بعمق ٦ أمتار واتساع مثل ذلك كان يملأ بالماء عن طريق قناة في وقت الخطر. وكان أمام كل باب من أبواب المدينة الأربعة قنطرة تمكن من عبور هذا الخندق في حالة السلم وكانت ترفع في أوقات الحرب. ومع رفعها، تصبح المدينة معزولة لا يصل إليها أحد إلا بعبور الخندق الذي يملأ بالماء أثناء الحرب. كما أن سور المدينة الخارجي المجاور للخندق بني لحماية أساسه من الماء (مسناة) يصعب التسلق عليها من قاع الخندق. وكان هذا الخندق بمثابة أول عائق أساسي لمن يهاجم المدينة. ومن المعروف أن هذه الفكرة استخدمت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة، أشار عليه بها سلمان الفارسي عندما أراد الرسول ﷺ تحصين المدينة ضد المشركين وأطلق اسم الخندق على تلك الغزوة.. وهي فكرة قديمة استمرت في العصر الإسلامي واتبعت في كثير من المدن الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ. ويلي الخندق السور الخارجي الذي يمثل خطًّا دفاعيا واقيا وكان بهذا السور أربعة مداخل منكسرة (باشورة) اتخذت تصميمًا معماريًّا يضطر الداخل في أي منها إلى الانعطاف

يسارًا، فتكشف يمينه وهي نقطة الضعف التي يمكن إصابتها لعدم حمايتها بأدوات الحماية المستخدمة باعتبارها الذراع الضاربة المتحركة ويمكن إصابتها إصابة مباشرة.. أما المداخل، فكان لها أبواب صفحت مصاريعها بالحديد لمقاومة ضربات العدو، إذا ما استطاع الوصول إليها وهو أسلوب شاع استخدامه في جل أبواب المدن الإسلامية من أمثلتها أبواب المهدية والقاهرة. وكان بين السورين الخارجي والداخلي الكبير مساحة خالية تصلح للدفاع عن السور الأخير وهذه المساحة تسمى الفيصل ويمكن اصطياد العدو فيها إذا ما استطاع اجتياح السور الخارجي.

أما السور الداخلي الكبير فهو أكبر الخطوط الدفاعية قوة، تؤكد ذلك مقاييس بناءه. يبلغ سمك السور عند قاعدته ٣٥ مترًا وعرضه في أعلاه ١٢ مترًا وزود بأبراج عددها ١١٣ برجًا نصف مستدير، وأبواب هذا السور مزودة بسلالم يصعد منها إلى مجلس يعلو كل باب يمكن من خلاله مشاهدة المنطقة خارج المدينة ومراقبتها باعتبار ارتفاعه وإشرافه على الساحات خارج المدينة. وخططت مداخل المدينة الأربعة تخطيطًا حربيًّا دقيقًا يمكن من خلاله التحكم الجيد في الدخول والخروج والسيطرة على كل جزء منها. وكان يشرف عليها الجند والحرس وزودت هذه المداخل بغرف بلغ عددها في كل مدخل ١٠٨ غرف. أما قلب المدينة الذي احتوى على الدواوين وقصر الخلافة والمسجد الجامع، فكان محاطًا بسور داخل مركزي يعد الخط النهائي لحماية مركز السلطة داخل المدينة.

الوسائل الدفاعية في مدينة القاهرة:

وتكشف دراسة أسوار القاهره الباقية، التي ترجع إلى أعوام ٤٨٠/ ٤٨٥هـ، عن تدور عمارة أسوار المدن وتحصينها سواء من ناحية تزويد السور بخطين لدفاع في وقت واحد بعمل خط دفاعي داخل السور. بالإضافة إلى الخط الدفاعي أعلاه أو بتطوير تصميم المزاغل ودراسة حركة الاتصال بين الجند والقادة ومراعاة إجراءات التزويد والإمداد بصفة مستمرة للجند عن طريق عناصر الاتصال المختلفة. إلى جانب البراعة في استخدام الحجر في بناء الأسوار واستخدام عناصر إنشائية قوية كالتغطية بالأقبية الطولية والمتقاطعة والقباب الضحلة واستخدام الروابط الرخامية على ارتفاع معين من أساس السور؛ لتمنع انهيار السور في حالة ثقبه من أسفله وهو أسلوب استخدم قبل ذلك في مدينة المهدية ولم نر له مثيلًا قبل ذلك في أسوار المدن. وتكشف دراسة السور الشمالي من أسوار القاهرة عن التركيز الواضح في الإجراءات الدفاعية في صد أي هجوم عن غيره من أضلاع السور الأخرى؛ وكان ذلك لتوقع الهجوم من هذا الاتجاه. فضلًا عن توفير المواقع الطبيعية والبشرية في الاتجاهات الأخرى وهو أمر يكشف عن تأثر تخطيط الأسوار بمؤثرات تتعلق بظروف الموقع وطبيعته. وكان لتخطيط أسوار القاهرة أثر واضح في أسوار مدن المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس. وفي قلعة صلاح الدين نرى تطورًا أكثر، فقد استخدمت المداخل المنكسرة استخدامًا شائعًا لميزاتها الحربية وتطور شكل المزاغل، حيث أصبحت المزاغل في الخط الدفاعي في قلب السور تمتد فتحاتها إلى أرضية الممر؛ لتمكن الرامي من رمي سهامه إلى

أسفل لإصابة من يلتصق بالسور. بالإضافة إلى إمكاناتها بالضرب باتجاه الأمام والجنب وتكشف دراسة الأبراج في هذه القلعة عن مكر حربي متقدم؛ حيث إن الأبراج بدت مستقلة في الدفاع عن نفسها كما أن الوصول إليها كان من أبواب في الطابق الثاني يصعد إليها بسلالم متحركة. وكان الوصول إلى الطابقين السفلي والعلوي من سلالم داخلية؛ وفي هذا حيلة حربية لضرب العدو الذي ربما يحاول غزو هذه الأبراج وتظل حصينة كنقاط دفاعية مستقلة حتى في حالة اختراق الأسوار.

الوسائل الدفاعية في شمال أفريقيا:

ويلاحظ في أسوار المدن والقلاع في الشمال الأفريقي، أنماط متعددة من الأبراج التي اشتملت على الكثير من الحيل المعمارية التي تساعد على ضرب العدو؛ ما يكشف على براعة المخطط. فقد تم تحصين المدن ببناء أبواب لها لتسهيل الدفاع عنها وإتاحة الفرصة للحراس لمضاعفة الحراسة. ومن هذه الحيل ما استخدم في أبراج أبواب المدن في عهد المرابطين والموحدين، ومن أبرز أمثلتها ما يطلق عليها الأبواب ذات المرافق وتعتبر من الأمثلة المبتكرة التي ابتدعها المرابطون. فقد اختلفت عن نظام تخطيط أبواب المدن البيزنطية ذات العقدين المتقابلين اللذين يفتح أحدهما إلى داخل المدينة والآخر إلى خارجها. فهذه الأبواب المبتكرة تجعل الممر الواصل بين فتحتي الباب منحنيا بزاوية منكسرة قائمة في شكل المرفق. ويمتاز هذا التخطيط بأنه يضع العراقيل والعقبات وراء انحناء الممر أمام المهاجمين، وقد عقد الموحدون هذا النظام إذ أنشأوا أبوابًا ذات مرفقين

وأخرى ذات ثلاثة مرافق ولم يسقفوا أجزاء من الممرات الواقعة بين مدخل الأبواب ومخارجها؛ حتى يساعد ذلك المدافعين على قذف المهاجمين بالنبال أو النار الإغريقية. ومن أروع الأمثلة الباقية التي تمثل هذه المراحل، باب إغناو بسور مراكش وباب الرواح بسور رباط الذي يلتوي الطريق بمدخله التواءات أربعة وباب قصبة رباط الفاتح..

أما الوسائل الدفاعية في العصر العثماني:

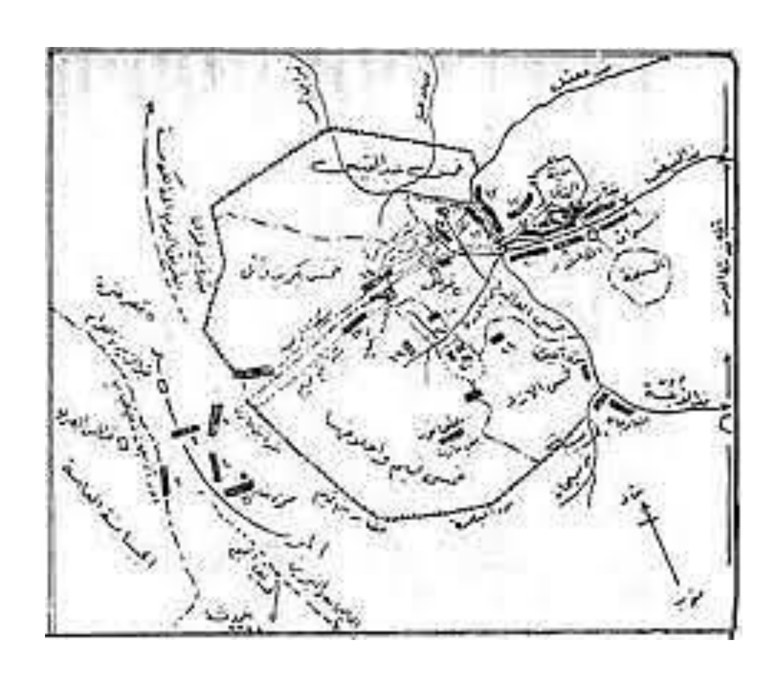
ومع استخدام أسلحة متطورة في العصر العثماني، أخذت ملامح العمارة الحربية تتواءم وهذا التطور الجديد في التسليح عكس ما كان عليه الحال في العصور السابقة، فأصبحت ارتفاعات الأسوار والأبراج أقل، بعد أن أصبح في استطاعة آلات الحرب الحديثة هدم الحصون والأسوار المرتفعة مهما بلغت من الارتفاع والضخامة. ومع بداية القرن العاشر الهجري– السادس عشر الميلادي– حدث تحول كبير في بناء الحصون بسبب انتشار المدفعية وإتقان فنها في فرنسا وتركيا وبعد انتشار المواد المفرقعة في إيطإلىا أيام النهضة الإيطإلىة. وتطورت المفرقعات تطورًا بالغًا أصبحت معها المدفعية من الأسلحة الرئيسة التي انزوت بجانبها أسلحة العصور الوسطى من مجانيق وسيوف وغيرها وأصبحت المدفعية أساسًا قويًّا في التعامل الحربي والمحك الرئيس في إحراز النصر، وكان لهذا أثره على التحصينات التي يتم إنشائها لحماية المدن، فلم تعد الأسوار الحجرية العالية قادرة على تحمل ضربات المدفعية وكان لابد من تقوية هذه الجدران بميل كثير من الرمال. وإمعانًا في حمايتها، خفضت ارتفاعاتها لحجبها بقدر

الإمكان عن العدو. كما اتجه التخطيط إلى تعميق الخندق أمامها. وهكذا بدأت تزول أهمية الحصون المرتفعة لتصبح فيما بعد حصونًا أرضية مختبئة ويمكن مشاهدة ذلك فيما تخلف من قلاع واستحكامات حربية سارت على هذا النمط، كما في طوابي مدن الساحل بمصر وما أنشيء من استحكامات في منطقة عسير التي يرجع إنشاؤها إلى العصر العثماني. ومع استخدام البنادق والمدافع بدلًا من أسلحة الرمي التي شاع استخدامها في السابق، أخذت فتحات الرمي في الأسوار والأبراج أشكالًا تتناسب وهذه الأسلحة، فأصبحت فتحات هذه المدافع ضيقة من الداخل متسعة من الخارج عكس المزاغل لتسمح بحرية الحركة لتوجيه فوهة المدفع. كما أن الفتحات التي زودت بها الأبراج للقناصة المسلحين بالبنادق أصبحت فتحات دائرية صغيرة تسمح فقط بالحركة لفوهة البندقية. ونرى أمثلة واضحة في أبراج العمارة العثمانية وما عاصرها من منشآت حربية انتشر بناؤها في المدن والبلاد الإسلامية.

ولم تكتف بذلك لجأت الحكومات إلى مضاعفة وسائل الحماية والزود عن أراضيها وسواحلها من مهاجمة القراصنة والأعداء وذلك بحماية المدن الساحليّة والسفن التجاريّة وزوارق الصيادين التي تلجأ إلى موانئها من العواصف البحرية، بل قامت بحمايتها من القراصنة والمغيرين عليها وذلك ببناء الأسوار من جهة البحر وحفر الخنادق من جهة البر وشد السلاسل في مداخل الموانئ. ومن الموانئ التي وصفها الرحّالة طرابلس وعكا. يصف صاحب سفر نامة طرابلس بأنها: مدينة مشيدة بحيث أن ثلاثة من جوانبها مطلة على البحر، فإذا ماج علت أمواجه السور. أما الجانب المطلّ على

إلابس فيه خندق عظيم عليه باب حديدي محكم، وفي الجانب الشرقي من المدينة قلعة من الحجر المصقول عليها شرفات ومقاتلات من الحجر نفسه، وعلى قمّتها عرّادات لوقايتها من الروم فهم يخافون أن يغير هؤلاء عليها بالسفن. ومساحة المدينة ألف ذراع مربع وأربطتها أربع أو خمس طبقات ومنها ما هو ست طبقات. ويصف عكا فيقول: عكة قلعة غاية في الإحكام يطل جانباها الغربي والجنوبي على البحر وعلى الأخير ميناء ومعظم مدن الساحل كذلك، والميناء اسم يطلق على الجهة التي بنيت للمحافظة على السفن وهي تشبه الإسطبل وظهرها ناحية المدينة وحائطاها داخلان في البحر. وعلى امتدادهما مدخل مفتوح طوله خمسون ذراعًا وقد شدت السلاسل بين الحائطين. فإذا أريد إدخال سفينة إلى الميناء، أرخيت السلسلة حتى تغوص في الماء، فتمر السفينة فوقها ثم تشد حتى لا يستطيع عدو أن يقصدها بسوء.

أهم المدن الإسلامية



(شكل ١)

لقد أنشأ العرب المسلمون عدة مدن خارج شبه الجزيرة العربية، منها ما يلي:

مدينة البصرة (١٤هـ/ ٦٣٦م):

تعد أول مدينة أنشأها المسلمون خارج شبه الجزيرة العربية، تقع في جنوب العراق. بنيت عام ٦٣٦م على يد القائد المسلم عتبة بن غزوان، حينما توجهت الجيوش الإسلامية لتحرير العراق من الفرس في عهد الخليفة

عمر بن الخطاب ﷺ؛ كان الهدف من إنشائها لتكون مركزًا عسكريًّا للجيوش الإسلامية الفاتحة التي قامت بفتح بلاد فارس. البصرة أشهر مدن العراق وأول مدينة إسلامية بنيت خارج الجزيرة العربية زمن الفتوحات الإسلامية، كانت تدعى قبة الإسلام ومقر أهله بالعراق، بناها عتبة بن غزوان سنة ١٤هـ وصارت مصر الإسلام ومحل الصحابة والتابعين والمجاهدين.

البصرة قبل الإسلام:

كانت البصرة في الجاهلية من ثغور العراق، فيها خليط من أمم شتى فرس ويونان أحلهم فيها الإسكندر وهنود انتشروا في بطائحها وقد نزلها العرب منذ القديم، كما فيها أنباط غير قليلين. وكانت هي والأبلة مركزين للتجارة الداخلية والخارجية وكان يرتادها تجار العرب وتردد عليها أبو بكر الصديق في الجاهلية عدة مرات.

تسمية البصرة:

البصرة في كلام العرب: الأرض الغليظة التي فيها حجارة صلبة بيضاء ومدينة البصرة مدينة عراقية عظيمة، كان العرب يسمونها (أرض الهند)، تقع على الضفة الغربية (اليمنى) لنهر شط العرب الذي يتكون من التقاء نهري دجلة والفرات ويصب في الخليج العربي. ولم تكن البصرة في أيام الفرس، وإنما مصرها العرب أنفسهم، فكانت أول مدينة عربية أُنشئت في العصر الإسلامي وقد مصرت قبل الكوفة.

سميت البصرة قديمًا بالكثير من الأسماء وذكرت في أمهات الكتب. ومن هذه الأسماء: الخريبة وذلك قبل الفتح الإسلامي وسميت أيضًا بأم العراق وخزانة العرب وعين الدنيا وذات الوشامين والبصرة الزاهرة.

قيل إنها سُميت البصرة نسبةً إلى المكان الذي بنيت فيه حيث يتكون من حجارة رخوة بيضاء اللون وقيل إنها سميت بصرة لأنها تقع على مرتفع يستطيع من يقف في ذلك المكان أن يرى ما حولها.

وجاء في "معجم البلدان"، لياقوت الحموي، عن تسميتها الآتي: "قال ابن الأنباري: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة، وقال غيرهُ: البصرة حجارة رخوة فيها بياض، وقال ابن الأعرابي: البصرة حجارة صلاب. وذكر الشرقي بن القطامي أن المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها، نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها، فقالوا: إن هذه أرض بَصَرةُ، يعنون حصبة، فسميت بذلك وذكر بعض المغاربة أن البصرة الطين العلك، وقيل: الأرض الطيبة الحمراء".

وأول إنشائها كان في زمن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ، بناها الصحابي القائد عتبة بن غزوان ﷺ وهناك اتفاق بين المؤرخين أن أول من بناها عتبة بن غزوان ﷺ. غير أنهم يختلفون في زمن بنائها، بين سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م، أو ١٥هـ، أو ١٦هـ، أو ١٧هـ، ومراد ذلك اختلافهم هل كان بناؤها قبل فتح المدائن ١٦هـ أو بعدها؟

اقتضت الضرورة التي فرضتها الفتوحات الإسلامية على العرب إنشاء مدن عسكرية أو معسكرات سكنية للجنود المحاربين لتخدم عدة جوانب؛ أهمها أنه أصبح من غير المنطقي على الجندي المقاتل أن يذهب لزيارة أهله في فترات معقولة لبعد المسافة، فالمجاهد الذي قدم من اليمن أو سلطنة عمان يحتاج إلى أشهر طويلة لكي يصل إلى موطنه ويحتاج إلى نفس ذلك الوقت للعودة وهذا يعني أنهم سيضيعون نصف وقتهم وجهدهم في مثل هذه الأسفار الطويلة الشاقة، مما يحرم جبهات القتال من فترات غيابهم الطويلة، كذلك كان لا بد من إيجاد معسكرات ثابتة للتحرك منها لضرب قواعد العدو أو طرق وقوافل إمداداته أو شن الحملات السريعة المفاجئة عليه أو لصد هجمات العدو أو لنجدة بقية الجبهات عند الحاجة. كذلك إيجاد مقرات بعيدة على حافة الصحراء لا يجرؤ العدو من الوصول إليها لمعالجة المصابين وقضاء فترة النقاهة بعيدا عن الخطوط الأمامية الخطرة والمتحركة دائما. كما يستطيع أن يترك بها المقاتل زوجته أو ما يحصل عليه من الغنائم كي لا تعيق حركته أثناء القتال. كل هذه الأسباب وغيرها جعلتهم يفكرون بإنشاء هذه المدن.

وخلاصة أمرها أن خالد بن الوليد لما تقدم لفتح العراق عام ١٢هـ سار إليه والبحر ونزل في موضع يسمى (الأبلة)، وكان بلدا عظيما في زاوية الخليج الفارسي يتخذه الفرس مسالح لهم. فلما ولي عمر بن الخطاب الخلافة وتقدم المسلمون في بلاد العراق، ولي عتبة بن غزوان تلك الأطراف.

قال الطبري نقلًا عن المدائني: "وفي هذه السنة -١٤هـ- وجه عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان إلى البصرة وأمره بنزولها بمن معه وقطع مادة أهل فارس عن الذين بالمدائن ونواحيها منهم". ويتفق هذا مع رواية الشعبي أنه لما قُتل مهران قائد الفرس صفر ١٤هـ، بعث عمر إلى عتبة: "قَدْ فَتَحَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْحِيرَةَ وَمَا حَوْلَهَا وَقُتِلَ عَظِيمٌ مِنْ عُظَمَائِهَا، وَلَسْتُ آمَنُ أَنْ يَمُدَّهُمْ إِخْوَانُهُمْ مِنْ أَهْلِ فَارِسَ، فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أوجِّهَكَ إلى أَرْضِ الْهِنْدِ، لِتَمْنَعَ أَهْلَ تِلْكَ الْجِيزَةِ مِنْ إِمْدَادِ إِخْوَانِهِمْ عَلَى إِخْوَانِكُمْ وَتُقَاتِلَهُمْ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْكُمْ فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ". وزاد أبو حنيفة الدينوري: "وقاتلهم مما يلي الأبلة"، فتقدم إليها عتبة في خمسمائة وقيل ثمانمائة مقاتل، فنزلها في ربيع الأول- أو الآخر- ١٤هـ.

وعند البلاذري: "لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة (مسالح الفرس قريبة من الأبلة) كتب إلى عُمَر بْن الخطاب يعلمه نزوله إياها وأنه لا بد للمسلمين من منزل يشتون به إذا شتوا ويكنسون فيه إذا انصرفوا من غزوهم، فكتب إليه اجمع أصحابك في موضع واحد وليكن قريبًا منَ الماء والرعي واكتب إلى بصفته، فكتب إليه: إني وجدت أرضا كثيرة القصبة في طرف البر إلى الريف ودونها مناقع ماء فيها قصباء. فلما قرأ الكتاب، قَالَ: هَذِهِ أرض نضرة قريبة منَ المشارب والمراعي والمختطب، وكتب إليه أن أنزلها الناس، فأنزلهم إياها..، وذلك في سنة ١٤هـ".

وفي رواية أن عمر بعث لعتبة يقول: "انْطَلِقْ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي أَقْصَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأَدْنَى أَرْضِ الْعَجَمِ، فَأَقِيمُوا". فنزلوا موضع

البصرة. فأقام عتبة شهرًا، ثم خرج إليه أهل الأبلة، فناهضهم عتبة، فمنحه الله أكتافهم وانهزموا.

وفي رواية سيف بن عمر أن البصرة مصرت في ربيع سنة ١٦هـ، وأن عتبة بْن غزوان إنما خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد بن أبي وقاص من جلولاء وتكريت والحصنين، وجهه إليها سعد بأمر عمر.

وذكر اليعقوبي في البلدان وغيره أن عتبة بن غزوان مصَّر البصرة سنة ١٧هـ، وقال ياقوت: "قال الأصمعي: لما نزل عتبة بن غزوان الخريبة، ولد بها عبد الرحمن بن أبي بكرة وهو أول مولود ولد بالبصرة، فنحر أبوه جزورًا أشبع منها أهل البصرة، وكان تمصير البصرة في سنة أربع عشرة قبل الكوفة بستّة أشهر، وكان أبو بكرة أول من غرس النخل بالبصرة وقال: هذه أرض نخل، ثم غرس الناس بعده، وقال أبو المنذر: أول دار بنيت بالبصرة دار نافع بن الحارث ثم دار معقل بن يسار المزني".

ولما نزل المسلمون البصرة، كان أول ما شيده عتبة بن غزوان في هذه البقعة مسجدًا من قصب مع دار إمارة ثم صار المسلمون ينشئون المنازل من القصب أيضاً حتى إذا غزوا محلا نزعوا القصب وحزموه حالا. فإذا عادوا من الغزو سالمين آمنين، أعادوا المنازل إلى ما كانت عليه.

فوقع الاختيار على موضع البصرة. وفي لفظ "البصرة" ثلاثة أوجه: بضمِّ الباء وفتحها وكسرها؛ ويلفظها أهل العراق بفتح الباء. وتعني "البصرة" باللغة العربية الأرض الغليظة الرخوة الضاربة إلى البياض بسبب

وجود أحجارٍ أو جصٍّ فيها. وقد سُمِّيت بالآرامية (بصرياثا أو بصريافا) ومعناها منطقة الصرايف (باصريفي). والصريفة في العراق هي بيت أو كوخ من القصب أو الطين أو جريد النخيل؛ وفي الكلدانية (باصرا) أي محل الأكواخ

ووقع الاختيار على موقع البصرة لبناء المدينة لأسباب عسكرية وجغرافية واقتصادية وبيئية.



(شكل ٢)

العامل العسكري في أن البصرة تشكل قاعدة في جنوب العراق لمهاجمة القوات الفارسية في شرقه ويتمكّن المسلمون في ذلك الموقع من قطع المؤن والإمدادات العسكرية القادمة من فارس والأحواز وميسان إلى المدائن، العاصمة الشتوية للإمبراطورية الفارسية آنذاك. ومن ناحية أخرى

يسهل على المسلمين في ذلك الموقع الاتصال بمركز الخلافة في المدينة المنورة وتلقي الإمدادات منها، إذ لا يفصلهما بحر ولا نهر.

أما العامل الجغرافي، فيكمن في أن البصرة محاطة بأراض خصبة صالحة للزراعة تكثر فيها الأنهار والقنوات والجداول وتحيط بها غابات النخيل المثمر. وتقع البصرة على هضبة، فهي أعلى من مستوى الفيضان. كما أن موقعها يسهل الدفاع عنه، لأن الصحراء تحده من الغرب والخليج العربي من الجنوب وشط العرب من الشرق ونهر الفرات من الشمال.

وتتمتع منطقة البصرة بأهمية اقتصادية؛ لأنها تقع على تقاطع الطرق البرية والبحرية، فتسيطر على طرق التجارة بين العرب والفرس والهند. والأبلة هي مرفأ السفن القادمة من الصين والهند وفارس وعُمان.

ويكمن العامل البيئي في أن المسلمين عند بنائهم مدينتهم في تلك البقعة الخالية من النبات، لم يضطروا إلى قلع الأشجار أو حرق المزروعات. وهي خالية من الحشرات وغير موبوءة وصحية الهواء ومحاطة بمناظر طبيعية جميلة ترتاح لها النفس. إضافة إلى أنَّ الأهوار القريبة منها تزخر بالقصب الذي استخدم في بنائها.

تخطيط مدينة البصرة:



(شكل ٣)

تمتاز بعض المدن العراقية التي مصرت في العصر الإسلامي بشكلها المستدير غير المنتظم، كما هو الحال في تخطيط مدينتي الكوفة وواسط. بينما اتبع الأسلوب الطولي (المستطيل) في تخطيط مدينتي البصرة وسامراء، وبينما كان تخطيط بغداد دائريا كامل التدوير.

وقد أقيمت البصرة في منطقة يحدها من الجنوب الخليج العربي ومن الشمال بحيرة مائية هو هور الحمار الذي يتمدد على جانبيه نحو الشرق إلى شط العرب وإلى الغلاة من ناحية الغرب. وكان لهذا الموقع أثره في التحكم وتخطيط البصرة طوليا.

عند تخطيط الشوارع، روعيت أوامر عمر بن الخطاب في تحديد شكل الشوارع والعمارة في بناء المدينة:

شكل الشوارع: إذ أمر أن يكون عرض شارعها الكبير أربعين ذراعًا (٢٠ مترا)، وعرض المتوسط منها عشرين ذراعًا (١٠ أمتار)، وعرض الأزقة سبعة أذرع (٣،٥م) ووسط كل محلة رحبة (ساحة) تكون مربطًا للخيل مربعها ستون ذراعًا (٣٠ مترا)، ولقد تعددت شوارع ودروب البصرة سواء الرئيسية منها أو الفرعية، حتى قيل: إنه كان من الصعب التجول في دروبها دون دليل.

شكل البناء والعمارة:

حدد عمر بن الخطاب ـ ﷺ ـ شكلها في الآتي:

قال: "افعلوا ولايزيدن أحدكم على ثلاث أبيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة". كما أمر بتعريض الحيطان وإطالة السمك والتقريب بين الخشب.

- وأمر واليه بأن يوزع القبائل التي تسكن البصرة إلى خطط لكل قبيلة خطة خاصة بها وتحديد مواضع نزولها.

كما أمر بحفر نهر، فحفر نهر الأبلة وجره (ثلاثة فراسخ) حتى وصل به إلى البصرة.

- كان بناؤه من القصب ثم استبدل بعد حريق البصرة إلى بنائه باللبن بعد سقفها بالعشب.

- وقال أيضا: "وألا ترفعوا بنيانا فوق قدره". وعندما سئل عن القدر. قال: "ما لا يقربكم من السرف ولا يخرجكم من القسط".

لقد سن عمر بن الخطاب ﷺ ثوابت لتخطيط المدن الجديدة، تحفظ للعمارة الإسلامية الناشئة هويتها، فكانت منهجًا للفكر العمراني الإسلامي.

وكما أسلفنا سابقًا بأن الهدف العسكري كان الدافع وراء التحرك لتأسيس مدينة البصرة، حيث كانت غير محاطة بأسوار، إلا أنه نتيجة التوسع السريع الذي تعرضت إليه المدينة في القرن الأول الهجري وصارت لها أهمية معينة بعد إحاطتها بسور خلال فترة المنصور، إذ أمر ببناء جدران حولها ليكون حاجزًا يمنع الغزاة من دخول المدينة يمثل أول سور يحيط بالمدينة.

وقد أصبحت المدينة مقسمة إلى خمسة أقسام إدارية تدعى الأخماس ووزعت الخطط على الناس بحسب انتماءاتهم. وعند تأسيس العرب المدينة، اتبع عتبة بن غزوان تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب في اختيار موقع البصرة وتخطيطها، خاصة ما يتعلق بكون المسجد الجامع في الوسط وتقسيم المدينة إلى محلات كل محلة تسكنها جماعة تربطهم صلة الرحم والقربى. وهكذا بُني المسجد الجامع في وسط المدينة ويُلحق به دار الحكم الذي يسكنه الوالي عتبة بن غزوان ويكون بحجم أصغر بكثير من المسجد (يلاحظ هنا أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور عندما بنى بغداد جعل قصره في الوسط والمسجد بحجم أصغر بكثير ملحقا به؛ لأن بغداد مدينة ملكية وليست عسكرية ولأن مفهوم الحُكم تغير بعد الخلفاء الراشدين). وبالقرب من المسجد يُبنى السوق الرئيسي ثم يتم تخطط الشوارع الرئيسية بحيث تؤدي كلُّها إلى المسجد الجامع، وكان عرض الشارع الرئيسي ٦٠ ذراعًا وتتصل بالشوارع الرئيسية الشوارع الثانوية وكان عرضها ٢٠ ذراعًا وتتفرع من الشوارع الثانوية الأزقة التي كان عرض الواحد منها ٧ أذرع. وعندما توسعت المدينة، أصبح لكل محلة مسجد خاص بها، يقوم بواجباته

الدينية والتربوية والاجتماعية وهذا يعني أن التعليم قريب من جميع أطفال كل حي.

وقد بنى عتبة بن غزوان مدينة البصرة في بادئ الأمر بالقصب؛ لتوافره بكثرة في الأهوار القريبة من الموقع كما أن البناء به لا يستغرق وقتًا بالمقارنة مع البناء باللبن المجفف أو الآجر اللذين يحتاجان إلى صنع يستغرق وقتًا لتجفيف الطوب اللَّبِن أو لفخره بالنار في حالة الآجر. وكان عتبة بن غزوان بحاجة ماسة إلى مكان يأوي إليه جنوده.

وعندما احترقت البصرة، استأذن واليها الثاني أبو موسى الأشعري، الخليفة عمر بن الخطاب في بنائها بالطوب اللَّبِن المجفف، فأذن له، فتم بناؤها به سنة ١٧ هـ.

أهمية تخطيط البصرة:

تكمن أهمية تخطيط مدينة البصرة في كونها أول مدينة اختطها المسلمون تخطيطًا كاملًا منذ نشأتها الأولى بالمقارنة مع المدينة المنورة التي كانت قائمة وأُجريت عليها تعديلات لتكون مدينة إسلامية، وفي كون تخطيطها تمَّ من أجل إيواء المجاهدين، فهي تختلف عن تخطيط مدينة بغداد التي شيّدها الخليفة أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ لتكون مقرَّ سكناه وأهله وقواده، فهي مدينة ملكية وليست لجميع الناس.

كما تكمن أهمية تخطيط البصرة، في كونها أول ثلاث مدن شُيدت إبان خلافة الفاروق عمر بن الخطاب وبتعليمات منه. وهذه المدن هي:

* البصرة: أنشأها عُتبة بن عدوان سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م.

* الكوفة: شيَّدها سعد بن أبي وقاص سنة ١٧هـ/ ٦٣٨م، (وتولى التخطيط أبو الهياج الأسدي).

* الفسطاط: شيَّدها عمرو بن العاص سنة ٢١هـ/ ٦٤١م.

وجميع هذه المدن ذات طابع عسكري؛ إذ شُيدت لإيواء المجاهدين المسلمين ولتكون قواعد لانطلاقهم في فتوحاتهم. ويمكن تلخيص تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب لولاته الذين اضطلعوا بتشييد هذه المدن في أن يختاروا مكاناً بالقرب من الماء والمرعى، و"ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر..". (يلاحظ أن الطريق بين المدينة المنورة ومصر عموما، والفسطاط خصوصا، كان صحراويًّا في أغلبه قبل شق قناة السويس سنة ١٨٦٠م).

أحوال البصرة بعد بنائها:

ولم تكن على عهد الراشدين بالمدينة الكبيرة؛ لحداثة نشأتها العربية وكانت مستوخمة رديئة الهواء والماء، ليست بالخصبة ولا الغنية، حتى اضطر عمر إلى أن ينظر إلى أهلها نظر رحمة، حينما شكوا إليه أمرهم، فقد ذكر البلاذري في فتوح البلدان:

"قدم الأحنف بن قيس على عمر في أهل البصرة، فجعل يسألهم رجلًا رجلًا والأحنف في ناحية البيت" في بتٍ لا يتكلم، فقال له عمر: "أما لك حاجة؟ " قال: "بلى يا أمير المؤمنين. إن مفاتح الخير بيد الله، إن إخواننا من أهل الأمصار نزلوا منازل الأمم الخالية بين المياه العذبة والجنان الملتفّة، وإنا نزلنا سبخة بشاشة لا يجف نداها ولا ينبت مرعاها، ناحيتها من قبل المشرق البحر الأجاج ومن قبل المغرب الفلاة، فليس لنا زرع ولا ضرع، يأتينا منافعنا وميرتنا في مثل مريء النعامة، يخرج الرجل الضعيف فيستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة لذلك فتربق ولدها كما تربق العنز يخاف بادرة العدو وأكل السبع، فإلا ترفع خسيستنا وتجبر فاقتنا نكن كقوم هلكوا". فألحق عمر ذراري أهل البصرة في العطاء وكتب إلى أبي موسى يأمره أن يحتفر لهم نهرًا.

هذه بداية أمر البصرة وقد ظلت على حالها، لم تترق منها إلى خير منها، حتى صدرا من أيام الأمويين ومضت خلافة معاوية ولم ينفرج ضيق أهلها تمام الانفراج، فقد قدم الأحنف أيضا على معاوية وافدًا لأهل البصرة يستعطفه لهم وكان فيما وصف به أهلها قوله: "أهل البصرة عدد يسير وعظم كسير مع تتابع من المحول واتصال من الذحول، فالمكثر فيها قد أطرق والمقل قد أملق وبلغ منه المخنق".

أما الهواء فيها رديء وكذلك الماء فهو غير عذب، حتى أنهم كانوا ليجلبونه من المسافات البعيدة.

بداية عهد ازدهار البصرة:

وبانقضاء عهد الفتن فيها واستقرار الأمر بمثل زياد وابنه والحجاج، انصرف أهلها لشؤونهم، فعكفوا على الزراعة والتجارة وانتعشوا واستفاض لهم زرع ونخيل وتجارات ومن ثم عدت البصرة من أكبر ثغور الإسلام قاطبة.

وقد حفرت فيها أقنية وجداول كثيرة تتشعب عن النهر الأعظم ووصف الأقدمون كثرتها وصفًا نكاد لا نصدقه. جاء في مسالك الممالك للإصطخري:

"البصرة مدينة عظيمة لم تكن في أيام العجم، وإنما اختطّها المسلمون أيام عمر ومصّرها عتبة بن غزوان وهي خطط وقبائل كلها ويحيط بغربيّها البادية وليس فيها إلا أنهار. وذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبي بردة فزادت على "١٢٠٠٠٠" نهر تجري فيها الزوارق. وقد كنت أنكر ما ذكر من عدد هذه الأنهار في أيام بلال، حتى رأيت كثيرًا من تلك البقاع، فربما رأيت في مقدار رمية سهم عددًا من الأنهار صغارًا تجري في كلها زواريق صغار ولكل نهر اسم ينسب إلى صاحبه الذي احتفره أو إلى الناحية التي يصب فيها وأشباه ذلك من الأسامي، فجوزت أن يكون ذلك في طول هذه المسافة وعرضها وأكثر أبنيتها بالآجر".

البصرة.. قبة الإسلام:

ازدادت أهمية البصرة التي صارت مركزًا إداريًّا وعسكريًّا مهمًّا في العراق، مما شجع هجرة الكثير من السكان إلى البصرة وازداد عدد سكان المدينة من ٨٠٠ نسمة في بداية نشأتها إلى ٢٣٠ ألف نسمة في نهاية الحقبة الأولى من العصر الإسلامي.

وفي العصر الأموي، ازدادت أهمية البصرة كثيرا؛ إذ غدت العاصمة الإقليمية للدولة الأموية في العراق وتوسعت المنطقة المعمورة للمدينة لتشغل مساحة مقدارها ٥٧ كم٢.

وفي العصر العباسي، وصلت البصرة إلى قمة ازدهارها، فصارت مدينة كبيرة فيها أسواق واسعة ومناطق سكنية كثيرة، مشهورة بجوامعها ومكتباتها العامة ودور النسخ والحدائق الجميلة، وكانت ثان مدينة في العراق بعد بغداد التي أصبحت عاصمة الدولة العباسية.

يومًا بعد يوم غدت البصرة من الحواضر المهمة التي قل أن تماثلها بلدة بحسن عمارتها وعظمة بنائها وبهائها؛ من أشهر المدن وأكثرها أدبًا وعلمًا وتجارة وأجلها شأنًا وأبهجها مركزًا، ولا سيما أيام العباسيين الذين زادوا في عمارتها وشادوا فيها الأبنية الجميلة من صروح ومقاصير ومساجد. وكانت بعد بغداد في الأهمية والذكر ومركز التجارة بين العراق والبلاد الأخرى.

قال الحميري: "فالبصرة والكوفة مصرا الإسلام وقرارة الدين ومحال الصحابة والتابعين والعلماء الصالحين وجيوش المسلمين والمجاهدين ثم نشأت بين أهل المصرين مفاخرة ومفاضلة، فقال من فضل البصرة: كان يقال الدنيا والبصرة".

وفي موضع آخر: "ولأهل البصرة ثلاثة أشياء ليس لأحد من أهل البلدان أن يدعيها ولا يشركهم فيها، وهي: النخل والشاء والحَمَام الهدي، أما النخل: فهم أعلم قوم بها وأحذقهم بغراستها وتربيتها وإصلاحها وإصلاح عللها وأدوائها وأعرفهم بأحوالها من حين تغرس إلى حين تكمل وتستوي وأبصرهم بالتمر وخرصه وتمييزه وحزره وخزنه، وهي تجارتهم العظمى وعدتهم الكبرى. وفي البصرة من أصناف النخيل ما ليس في بلد من بلاد الدنيا. وأما الشاء فإنهم اصطفوا منها العبدية المنسوبة إلى عبد القيس، وأما الحمام فالأمر بالبصرة جل فيه وتجاوز الحد وبلغت الحمام عندهم في الهدي أن جاءت من أقاصي بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة وتنافسوا في اقتنائها ولهجوا بها حتى بلغ ثمن الطائر منها سبعمائة دينار".

كما عُرفت البصرة أيضا بدورها الكبير الذي أدته في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، فقد كانت مساجدها ومدارسها تعج بحركة العلماء والفقهاء والأدباء وخرج منها فطاحل علماء المسلمين وكبار فقهائهم واشتهرت بأئمة المعتزلة وظهرت فيها في القرن الرابع للهجرة مدرسة شهيرة ذاع صيتها في الآفاق وعرف أصحاب هذه المدرسة بإخوان الصفا. انظر: إخوان الصفا. ودعيت البصرة قبة الإسلام وكانت تناظر الكوفة في

المذاهب العربية وهو أمر مشهور في كتب النحاة. ولذلك كانتا أشهر من أن تذكرا في صحة العربية وثقتها. وقال بعضهم حيثما وجد اختلاف بين البصريين والكوفيين، فمذهب البصريين أصح من جهة اللفظ ومذهب الكوفيين أصح من جهة المعنى.

ومن هنا أصبحت مدينة البصرة قاعدة للفتوحات الإسلامية في المشرق والخليج، حيث منح وإلى البصرة صلاحيات ذلك، كان والي البصرة مسؤول عن أقاليم المشرق والخليج كالبحرين وهجر وغيرها.

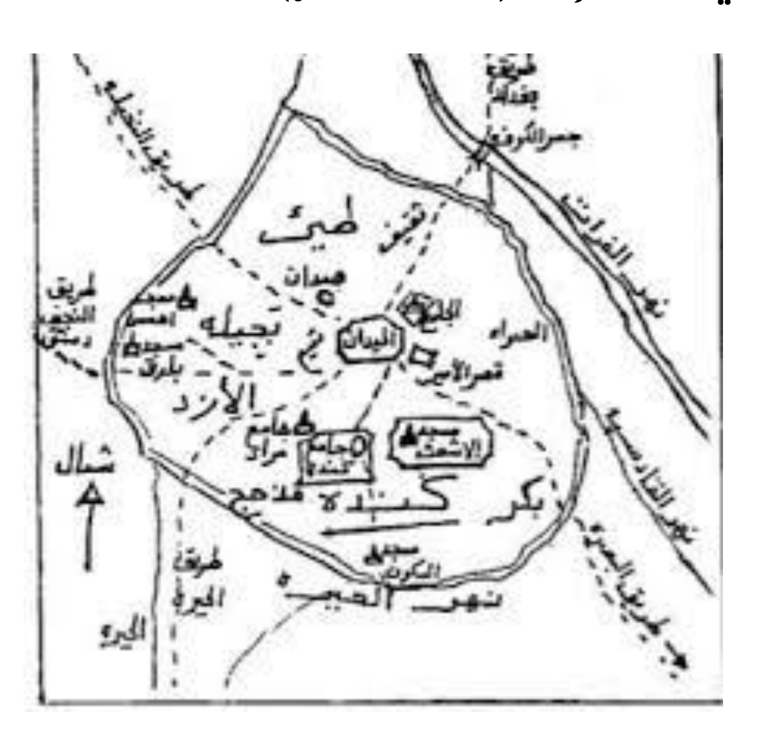
ومن أهم معالم المدينة مسجد الإمام علي بن أبي طالب ﵇، دار الإمارة وأسواقها وحماماتها.



(شكل ٣– ٢)

وتحتوي مدينة البصرة على كثير من مشاهد وقبور بعض الصحابة رضوان الله عليهم. فمن المشاهد مشهد طلحة بن عبيد الله، ومشهد الزبير بن العوام. وفي البصرة قبر حليمة السعدية مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر أنس بن مالك وفيها كذلك قبر الحسن البصري ومُحَمَّد بن سيرين ومالك بن دينار وغيرهم من مشاهير هذه الأمة. وفي البصرة أيضًا قبور الصحابة الذين استشهدوا في واقعة الجمل.

مدينة الكوفة (١٧هـ/ ٦٣٨م):



(شكل ٤) خارطة لمدينة الكوفة

تقع مدينة الكوفة في العراق على ساحل نهر الفرات الأوسط (شط الهندية القديم) مصرها القائد العربي المسلم سعد بن أبي وقاص بعد موقعة القادسية.

أُنشئت مدينة الكوفة عام ٦٣٨م على يد القائد المسلم، كان السبب الرئيسي لإنشائها لتكون مركزًا عسكريًّا وإداريًّا للجيوش الإسلامية التي انتصرت على الفرس في معركة القادسية. ارتفعت مكانة الكوفة في عهد الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب، إذ اتخذها مقرًّا لخلافته. الكوفة مدينة إسلامية عريقة، تعتبر واحدة من أهم المدن العراقية على مر التاريخ؛ لما لعبته من دور محوري في العديد من الأزمات التي عصفت بالمنطقة العربية، سواء ما كان منها في غابر التاريخ أو المعاصر منه، ما منحها هذه الشهرة والمكانة.

ويمكن تحديد موقعها بالضبط، حيث تقع في الجهة الغربية من نهر الفرات عند مدينة النجف الأشرف، يحدها من الشمال ناحية الكفل التابعة لمحافظة بابل ومن الغرب كري سعد ومن الشرق ناحية السنية وناحية الصلاحية التابعتان لمحافظة الديوانية، ومن الجنوب قضاء أبي صخير وناحية الحيرة.

وتبعد عن العاصمة بغداد بما يقارب (١٥٦) كم حيث الجنوب منها، في حين أنها تبعد حوالي (٩) كم من مدينة النجف الأشرف حيث ضريح الإمام علي رضى الله عنه.

وقد أسهمت الكوفة عبر تاريخها الطويل وما تمتلكه من مقومات بشرية وحضارية؛ في صناعة عقل الأمة الإسلامية وثقافتها على كافة الصعد، فضلًا عمّا كان لها من أثر فاعل في ثقافات الأمم الأخرى وحضاراتها، حيث يرجع تاريخها إلى عصور قديمة. ولحد اللحظة فإنها تحتوي على بقايا وأطلال لمعابد وأديرة وكنائس وقلاع وقصور كالقصر الأبيض التابع للنعمان بن المنذر.

كما يذكر المؤرخون بأن الملك البابلي بختنصر (٦٢٦ ق. م) كان قد اتخذ منها ومن الحيرة بظهرها قلاعًا لمملكته وحدودًا آمنة لعاصمته بابل، فضلًا عن اتخاذها عاصمة من قبل ملوك المناذرة والحيرة فيما بعد.

تعتبر مدينة الكوفة ثان مدينة إسلامية مصّرها وشيدها المسلمون بعد البصرة، وذلك سنة ١٧ هـ، ليتخذها بعد ذلك الإمام علي عليه السلام عاصمة لخلافته.

وتمثل الكوفة المركز الرئيسي للتشيع حاليًا، ما جعل منها مصر علمي وحضاري وثقافي.

ويمتاز خطها المعروف بـ(الخط الكوفي) بمواكبته للعصر حيث يُستخدم إلى الآن؛ ما جعل من شركات تصنيع أنظمة البرامج ومنها مايكروسوفت أوفيس أن تعتمده ضمن باقة خطوطها فيه.

التسمية:

حينما مصرها العرب، عرفت بالكوفة من التكوف (التجمع) وسميت كوفاني (المواضع المستديرة من الرمل)، وكل أرض فيها الحصباء مع الطين والرمل تسمى كوفة، وسميت كوفان بمعنى (البلاء والشر) أو (ما بين الدغل والقصب والخشب) وسميت كوفة الجند؛ لأنها أسست لتكون قاعدة عسكرية تتجمع فيها الجند ومهما يكن، فإن اسمها اسم عربي، وقيل: إن اسمها سرياني.

معنى الكوفة:

ويأتي اسمها من كوفان، أي المواضع المستديرة من الرمال وبعضهم يسمّي الأرض التي فيها الحصباء مع الطين والرمل كوفة. في حين يرى البلاذري: التكوّف يعني الاجتماع، حيث يجتمع فيها الناس بعمران حضري عكس ما يتشتتون فيه بالبيادي والصحاري. وأورد ياقوت الحموي نفس ما ذكره البلاذري في معنى الكوفة، مضيفًا إليه: والكوفان الاستدارة، وكوفان اسم أرض وبها سمّيت الكوفة وكوفان والكوفة واحد.

وقد ذكرت المصادر التاريخية والجغرافية، وأوردها الباحثون، أسماء عديدة لمدينة الكوفة وأسباب هذه التسمية قيل إنها سميت بالكوفة نسبة إلى تل صغير في وسطها يقال له كوفان، وقيل: سميت بهذا الاسم نسبة إلى تل (ساتيدما) التي تحيط بها كالكخافة عليها وقيل أيضا إنها اختطت في منطقة اسمها كويخة بن عمر.

تخطيط مدينة الكوفة:

من الملاحظ أن العرب المسلمين خطوا مدينة الكوفة في بداية نشأتها على شكل دائري؛ لتشكل المركز لها من قصر الإمارة والمسجد الجامع وبيت المال والأسواق لتتفرع منه الشوارع والأزقة.

وسكنوا المقاتلين في مرحلة نشأة مدينة الكوفة في فساطيط وبعدها وجد القائد (سعد بن أبي وقاص) أن الحياة في الخيام التي يعيشها العرب المسلمون من المقاتلين لا تلائم هذا المجتمع الجديد.

وقد قسمت مدينة الكوفة إلى سبع مناطق عسكرية سميت (الأسباع) وتم توزيعها على القبائل وفقًا للقيادات وتيسيرًا للتعبئة العامة ولمواجهة القلائق والمؤامرات الداخلية والخارجية.

وهنا يمكن القول إن المدينة نشأت على شكل معسكر في بدءها مع تطور العمران وانتعشت الحياة فيها أصبحت دائبة الحركة وقبلة للعلم، وكانت بمسجدها الجامع الأثر الكبير في بروزها العلمي، إذ يعد من أكبر معاهد العلم في العالم الإسلامي.

وهذا يعد من أهم ملامح المدينة اليوم هو مسجدها المعروف بمسجد الكوفة، حيث كان الإمام علي يلقي خطبه ويدير دولته من بيت الإمارة المجاور له، فضلًا عن كونه ـ مسجد الكوفة ـ موضع استشهاده.

كما تحتوي الكوفة على مسجد السهلة الذي يضم مقام النبي إبراهيم عليه السلام ومقام الخضر عليه السلام ومقام النبي صالح عليه السلام ومقام النبي إدريس عليه السلام ومقام الإمام السجاد ومقام الإمام الصادق ومقام الإمام المهدي ومساجد أخرى كمسجد صعصعة بن صوحان العبدي ومسجد زيد بن صوحان العبدي ومسجد الحمراء ومسجد النبيّ يونس بن متي عليه السلام ومسجد جعفر ومسجد غني ومسجد جذيمة ومسجد بني عتر.



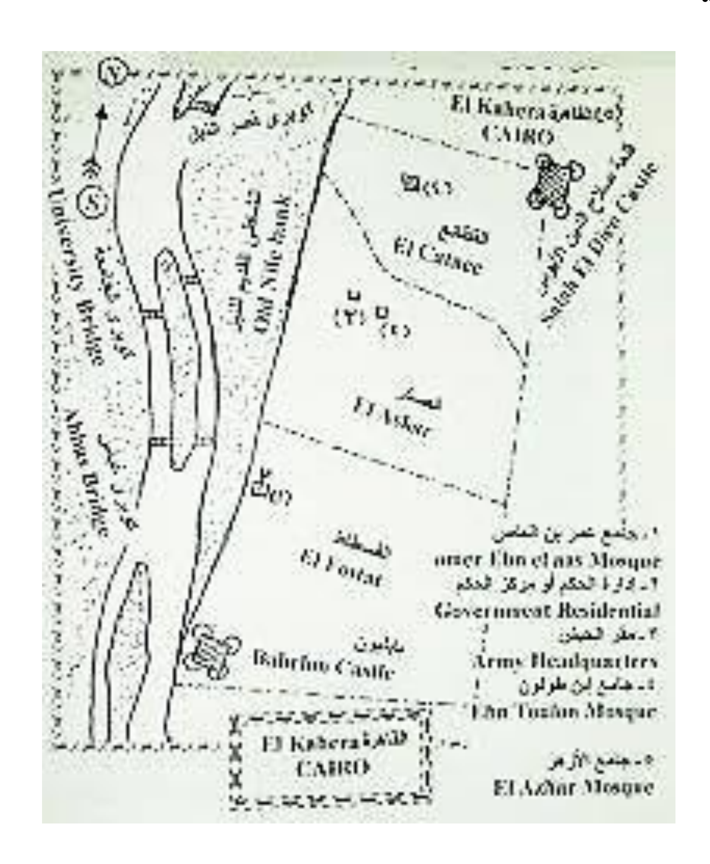
(شكل ٥)

وتحتوي الكوفة أيضًا على بقايا من دار الإمارة وضريح مسلم بن عقيل، فضلًا عن ضريح الصحابي الجليل خبّاب بن الأرت وضريح هاني بن عروة وضريح ميثم التمار ومرقد السيد إبراهيم (الملقب بإبراهيم الغمر)

بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم.

فهكذا تعتبر مدينة الكوفة من أهم المدن الشيعية. أهم معالمها المسجد ودار الإمارة.

مدينة الفسطاط (٢٠هـ/ ٦٤١م):



(شكل ٦)

الفسطاط كانت عاصمة مصر الأولى أثناء الحكم العربي لمصر. بناه القائد العربي عمرو بن العاص بعد الفتح الإسلامي لمصر في ٦٤١م. وأسس مسجد عمرو بن العاص، أول مسجد بني في مصر وأفريقيا.

إن تأسيس مدينة الفسطاط فرضته ظروف حربية عاجلة؛ هي حرص الخليفة عمر بن الخطاب على سلامة جيش المسلمين، مما منع من اتخاذ مدينة الإسكندرية مستقرًّا للمسلمين، على الرغم من رغبة القائد عمرو بن العاص اتخاذها مستقرًّا لهم.

وقد اختلفت طبيعة الفسطاط نسبيا عن سابقاتها من المدن من حيث بنائها بجوار مناطق معمورة والرغبة القوية في الهجرة إليها باعتبارها حاضرة مصر وكذلك الحاجة إلى تأمينها.

شيد عمرو بن العاص مدينة الفسطاط كمدينة حصن وبها حصن بابليون لتكون مدينة للجند العرب وأقام بها المسجد الجامع (مسجد عمرو بن العاص) أول مسجد أقيم بمصر الإسلامية وبجواره دار الإمارة. وكانت في تخطيطها على غرار تخطيط الرسول ﷺ للمدينة المنورة وكانت تبدو من بعيد كأنها جبل شامخ كما وصفها الرواة والمؤرخون.

وعن سبب التسمية نشير إلى أن عمرو بن العاص كما يذكر الطبري وبعد فتح حصن بابليون، أراد رفع الفسطاط والمسير إلى الإسكندرية تمام فتح مصر، فإذا يمام قد فرخ في أعلاه فتركه على حاله وأوصى به صاحب الحصن و القصر..

فلما فتح الإسكندرية وأراد الاستقرار بها، نهاه عمر بن الخطاب عن ذلك وأوصاه باختيار موضع وسط يتيسر الاتصال به، فلم يجد عمرو أنسب من اختيار الموقع الملاصق لحصن بابليون لحصانته وموقعه وسأل أصحابه: أين تنزلون؟ قالوا: نرجع إلى موقع فسطاطه لنكون على ماء وصحراء. فعاد إليها ومصرها وأقطعها للقبائل التي معه، فنسبت المدينة إلى فسطاطه، فقيل: فسطاط عمرو. فالفسطاط على هذا النحو معسكر أو مخيم أو بيت من الشعر.

وكانت مدينة الفسطاط تؤدي دورها الحضاري في تاريخ مصر والعالم الإسلامي ووفد إليها الشعراء من الجزيرة العربية. ويصف الاصطخري في القرن الرابع الهجري الفسطاط بأنها مدينة مصر العظمى، وبأنها في غاية العمران والخصب، ومبانيها قد تبلغ الواحدة منها ثماني طبقات. ويُنوه كذلك ابن حوقل بأهميتها الحضارية، ويقول عنها المقدسي (ت ٣٩٠هـ): إن الفسطاط هي "عاصمة مصر، ومفخرة الإسلام ومتجر الأنام، وهي أجل من مدينة دار الإسلام". ويقول: إن حلقات مسجدها الجامع ليس في عواصم الإسلام أكبر منها.

ويذكر ابن قتيبة في كتابه (عيون الأخبار)، أن العرب يقولون لكل مدينة: الفسطاط، ولذا سموا مصر بالفسطاط، ويستشهد على ذلك بحديث للرسول ﷺ رواه أبو هريرة، قال فيه: (عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط، أي المدينة).

تقع الفسطاط في إقليم مصر على ساحل النيل في طرفه الشمالي الشرقي، قبل القاهرة بحوالي ميلين، وكان النيل عندها ينقسم إلى قسمين. وموضعها كان فضاء ومزارع بين النيل والجبل الشرقي ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون الذي يطل على النيل من بابه الغربي الذي يعرف بباب الحديد. واستفادت الفسطاط من موقعها على النيل بنتيجتين؛ فقد يسر النيل للأهالي سبل الحصول على الماء من جهة وخدم توسعها العمراني من جهة ثانية، فتحكمت بطرق المواصلات التجارية الداخلية والخارجية بين مصر والشام وبين مصر والحجاز. وقد اكتشف هذا الموقع الاستراتيجي الفراعنة والبابليون والرومان، فاتخذ منه الفراعنة مكانًا لمدينة كبيرة جعلها البابليون مكانًا لاستقرارهم عند نزولهم في مصر، ثم اتخذه الرومان مقرا لدفاعهم يصلون به الوجهين البحري والقبلي ويدفعون منه كل معتد خارجي على مصر. والفسطاط من حيث المناخ، تتبع المناخ شبه الصحراوي، فهي حارة نهارا وباردة ليلا، لا ينزلها المطر إلا نادرًا كما هو الحال في باقي إقليم مصر ما عدا الإسكندرية.

وكان تخطيط الفسطاط يقوم على إعطاء كل قبيلة قطعة من الأرض تقيم فيها مساكنها ويفصل بينها وبين غيرها مساحة من الأرض الفضاء التي طواها فيما بعد التوسع العمراني الذي زحف على هذه الفراغات.

ولقد تعاقب على حكم مصر في مدة قرنين و نصف ٩٨ واليا. وكان من الواضح أن لكثرة تقلب أو عزل هؤلاء الحكام أن انشغل كل حاكم أو وإلى منهم في جمع المال أو الثورة في أقصر وقت ممكن، فلم يجدوا

من الوقت للإنشاء أو التعمير أو التحسين، حيث كانت العمارة منسية في هذه المرحلة سواء كانت بقيام الدولة الأموية بدمشق أو الدولة العباسية ببغداد، ويستثنى من ذلك جامع عمرو الذي أنشأه الفاتح بمدينة الفسطاط.

الأهمية الاستراتيجية:

تعتبر كل من مدينة الفسطاط وجامع عمرو أول أثرين إسلاميين بمصر وأفريقيا ويرمزان لمرحلة محورية، بل بداية عصر بكامله ما زلنا نعيش فيه وهو العصر الإسلامي. وكانت الإسكندرية عاصمة مصر منذ بناها الإسكندر عام ٣٣٢ ق.م. مرورًا بالإغريق البطالمة والرومان والبيزنطيين الروم. وكان عمرو بن العاص بين أمرين هما لو أبقى على الإسكندرية كعاصمة، فوجوده بها سيجعله معرضًا من البحر لأي غزو وهذا ما حدث فعلًا عندما غزا البيزنطيون المدينة من البحر بإسطولهم عام ٦٤٦م. مما جعل المصريون يطلبون إعادة عمرو بن العاص بعدما كان الخليفة عثمان قد عزله.

والأمر الثاني الذي جعله يختار مكان الفسطاط بالإسكندرية؛ لأنه سيكون بعيدًا عن المدينة المنورة عاصمة الخلافة الإسلامية مما يصعب نجدته. وكان قرار الخليفة عمر لعمرو بعدم عزل القوات بمانع مائي وهو الفيضان والنيل وعدم سكناها المدن حتي لا يتقاعسوا عن مواصلة الفتح. لهذا اختار ابن العاص هذا المكان الصحراوي الذي يعتبر عسكريًّا موقعًا

استراتيجيًّا شمال حصن بابليون وأقام فيه مدينة الفسطاط فوق عدة تلال يحدوها جبل المقطم شرقًا وخلفه الصحراء التي يجيد فيها العرب الكر والفر والحرب والنيل غربًا ومخاضة بركة الحبش جنوبًا وهما مانعان طبيعيان.

الأهمية التجارية:

كانت الفسطاط والتي شيدت بالقرب من حصن بابليون مركزًا رئيسيًّا للتجارة البحرية الخارجية، لوقوعها على النيل في موقع متوسط بين الوجهين البحري والقبلي ولاتصالها بثغور مصر الشمالية ومدن الصعيد الجنوبية عن طريق النيل. تأكد هذا الدور في العصر الفاطمي لاتصالها بالقاهرة، مقر الخلفاء الفاطميين وأصبحت الفسطاط ميناء للتجارة القادمة من الصين والهند واليمن وأوروبا. كما أصبحت المركز الرئيس لحركة النقل المائي. وقد وصفها المقريزي بانخفاض أسعارها عن القاهرة ووجدت المحال التجارية على ساحل الفسطاط، حيث تفرغ البضائع مباشرة على أبوابها. وكان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب نظرًا لازدحام مدينة الفسطاط، حتى أن الرحالة المقدسي الذي زار مدينة الفسطاط تعجب من كثرة السفن والمراكب التي رآها بميناء الفسطاط. كما أن الرحالة ابن سعيد الذي زار الفسطاط، قال: "لئن قلت إنني لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل، فإني أقول حقًّا".

وعندما كانت ترسو المراكب الواصلة إليها والمحملة بأصناف الغلات المختلفة، كان الحمالون يقومون بحمل ذلك إلى أماكن التخزين الخاصة بها التي تقوم في عدة أماكن بالقاهرة.

ونلاحظ أن مركز الفسطاط التجاري لم يهتز بشدة عقب المجاعة والشدة التي حدثت في عصر الخليفة المستنصر بالله الفاطمي.

وقد قام أحمد بن طولون ببناء ترسانة في جزيرة الروضة بالقرب من الفسطاط. وعندما تولى مُحَمَّد بن طغج الإخشيدي الحكم حول منطقة ترسانة الفسطاط إلى حديقة وأنشأ ترسانة جديدة سنة **٣٢٥**هـ/ **٩٣٧**م.

ويقال إنها ظلت تعمل أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك. كما ذكر في المصادر التاريخية أن هذه المدينة مركز تصنيع الأسطول الذي استخدمه صلاح الدين في البحر المتوسط لمحاربة الصليبيين كما حدث في عهد الملك الكامل مُحَمَّد وولده الصالح نجم الدين أيوب. وكانت هذه السفن تجهز بالأسلحة والمحاربين ثم كان يتم إرسالها من الفسطاط عن طريق النيل إلى الموانئ الشمالية مثل الإسكندرية ورشيد ودمياط. وكان للترسانة أيضا دور حيوي في بناء المراكب البحرية في عصر المماليك، فقد منع السلطان الظاهر بيبرس الناس من التصرف في خشب السفن وأمر بإنشاء عشرين مركبًا. كما كان السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأخوه السلطان الناصر مُحَمَّد بن قلاوون من كبار صناع السفن في الفسطاط. ويفهم من

كتب المؤرخين أن دار صناعة الفسطاط قد توقفت عن العمل في عصر الناصر مُحَمَّد بن قلاوون.

عاصمة مصر:

بعد الفتح سار المسلمون إلى الإسكندرية وعاونهم القبط في أعمالهم ورحبوا بهم. وعند حصن الإسكندرية، اقتتلوا قتالًا شديدًا ثم تم لهم فتحها بعد حصار دام بضعة أشهر وقبل أهل مصر الصلح. وعليه نشير إلى أن عمرو بن العاص حينما عزم على التوجه إلى الإسكندرية، أمر بنزع فسطاطه الذي ضربه قرب حصن بابليون. فإذا فيه يمام قد فرخ فأقره كما هو. وحينما فتح المسلمون الإسكندرية، أراد ابن العاص اتخاذها عاصمة ودار هجرة للمسلمين. فكتب إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في ذلك، فسأل عمر رسول عمرو بن العاص: هل يحول بيني وبين المسلمين الماء؟ فأجابه: نعم. فكتب عمر إلى ابن العاص أن يرحل عن هذا المكان لأنه لا يريد أن يحول بينه وبين المسلمين الماء، لا في الصيف ولا في الشتاء. فتحول عمرو بن العاص إلى موضع فسطاطه القديم، وذلك حينما استشار أصحابه أين ينزلون، فأشاروا عليه بالنزول في هذا الموضع، وكان مضروبًا في موضع الدار التي تعرف بدار الحصى عند دار عمرو الصغري ثم انضمت إليه القبائل وتنافست في المواضع واختط عمرو المسجد الجامع الذي عرف بتاج الجوامع وكان حوله حدائق وأعناب، وقام عمرو بنصب الحبال مع أصحابه حتى استقامت وقد اشترك في وضع قبلة المسجد من

ثمانين صحابيًا واتخذوا فيه منبرًا ثم اختط الناس بعد اختطاط المسجد الجامع ونزل المسلمون الفسطاط بعد تمصيره سنة ٢١هـ.

هذا وقد أنزل عمرو بن العاص القبائل العربية بالفسطاط. وبعد أن اختط المسجد الجامع، بنى للخليفة عمر دارًا عند المسجد، فكتب إليه عمر قائلًا: أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر؟! وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين، وتم ما أراده أمير المؤمنين وأصبحت هذه الدار تسمى بدار البركة.

وسرعان ما اتخذت الفسطاط مظهر المدينة بجامعها الكبير وبأسواقها التجارية التي أحاطت به وبدور السكن التي ارتفعت بمرور الزمن إلى خمس وسبع طبقات، وعظم أمرها واغتنت وكثر ساكنوها حتى قاربت ثلث بغداد مساحة، أي حوالي فرسخ على غاية الخصب والعمارة والحضارة. وبقيت دار الإمارة حتى سقطت الدولة الأموية وبنيت المعسكرات بظاهرها.

وقد وفق عمرو بن العاص في اختيار الموقع الاستراتيجي بناء الفسطاط سياسيا وجغرافيا، فالموقع الذي ضرب عليه عمرو فسطاطه كان موضعًا لمدينة قديمة اندثرت ثم ازدهرت ثانية مع دخول الإسلام لمصر، وإنما بنمط معماري جديد وبحياة وحضارة جديدتين، حتى أصبحت الفسطاط مع هذا كله مدينة جديدة زاهرة بكل ما يجعل شأن العواصم كبيرًا.

وكان ذلك إيذانًا بدخول وادي النيل في الإسلام لتسطع من الفسطاط فيما بعد أنوار الحضارة العربية الإسلامية وأنوار الدين الإسلامي، ولتصبح فيما بعد قاعدة الفتوح الإسلامية في المغرب.

والآن نمضي إلى تحديد موقع العاصمة الجديدة وذكر كلمة عن خططها ومبانيها واتساع رقعتها وذيوع شأنها وليس من شك في أنه من الصعوبة بمكان أن يحاول المرء رسم حدود دقيقة لمدينة انقضى على إنشائها نيف وثلاثمائة وألف سنة، مثل: مدينة الفسطاط لسببين رئيسين:

أولًا: أن المدينة لم تظل على حالها الأول حين خططت في عهد عمرو بن العاص، فلم يكن عمرو يبغي منها سوى أن تكون مقرًّا لعسكره ومقامًا لقواده وأعوانه ولم يدر أنه يضع أساسًا لعاصمة جديدة للبلاد ما لبثت أن صارت مقر الحكومة ومبعث النشاط الاقتصادي في القطر كله ومركزا مهمًّا من مراكز الحياة العلمية والفنية في العالم الإسلامى بأسره، فأخذ هذا المعسكر بطبيعة موقعه الجغرافي يمتد شمالًا إذ كان الجبل يحول دون امتداده شرقا كما يحول النيل كذلك دون امتداده غربًا.

ثانيا: اندثار كثير من المعالم التي يمكن الاستدلال بها على تحديد موقعها؛ فالروايات التاريخية التي تحدد موقع مدينة الفسطاط وفي رواية المقريزي إنما تحدد موقعها بعد إنشائها بقرون عدة تزيد على ستة قرون وبعد أن وصلت إلى أوج عزها ثم توالت عليها صروف الزمان ونوائبه ومع بعد الشقة بين عصر المقريزي والعصر الذي بنيت فيه المدينة، فقد كانت

روايته في تحديد موقع الفسطاط وما زالت أساسًا لجميع من حاولوا الكشف عن آثارها، وفي مقدمة هؤلاء المرحوم علي بهجت سنة ١٩١٤م.

أسباب اختيار المكان:

أما عن الأمر الأول، فيقول المقريزي في خططه: (اعلم أن موضع الفسطاط الذي يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقي الذي يعرف بجبل المقطم ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة ينزل به شحنة المتولي على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من مدينة الإسكندرية يقيم فيه ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة).

من هذا يبدو أن العرب أنشأوا مدينتهم (الفسطاط) في الفضاء المجاور لحصن بابليون– مقر الدفاع الروماني . وهنا نجد اختلافًا آخر بين المؤرخين بشأن كلمة (بابليون)، فالبعض يطلقها على الحصن فحسب والبعض الآخر يقول بوجود مدينة حول الحصن كانت تسمى بهذا الاسم، وزعيم الفريق الثاني هو الدكتور بتلر، وقد لخص رأيه في هذه الفقرات:

١– كانت تقوم في زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية مثل (سرية أبي الهول) وأن بعضًا من هذه التماثيل بقي حتى زمن الخليفة الحاكم الفاطمي.

٢– وفي القرن السادس قبل الميلاد، اتخذ البابليون لهم في هذا المكان معسكرا حربيا وأنشأوا هناك حصنًا على المرتفعات الصخرية التي سماها العرب فيما بعد (الرصد).

٣– ومن هذا المعسكر انتشر اسم (بابليون) حتى شمل الإقليم المجاور وأصبح الاسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيدا شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة العظيمة المنحلة وقتذاك (هليوبوليس أو عين شمس).

٤– وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عند رأس الدلتا واعتزم أن يبني حصنًا قويًّا كقلعة لبابليون، ترك حصن الفرس القائم على الرصد وأنشأ قلعته على شاطئ النيل؛ ليضمن وجود الماء بالقرب من حاميته وليستطيع تلك الحامية الاتصال– بواسطة النيل– بسائر وجهات القطر المصري. وسمي هذا الحصن بحصن بابليون (أي حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر وقد حرف العرب هذا الاسم فيما بعد، فسموه قصر الشمع.

٥– وبذلك هجر حصن الرصد الفارسي واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان، حتى إذا كان الفتح العربي بعد ذلك بخمسة قرون ونصف، كانت الأخبار عن وجوده عامة لا تكاد تذكر.

٦– أن اسم بابليون الذي وجده العرب عند قدومهم يطلق على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن وحل مكانه الاسم العربي

الجديد (الفسطاط) حتى إذا ابتدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم (بابليون) قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب بعد أن انتزع من المدينة التي أصبحت بعد اتساعها ونموها تسمى بالفسطاط.

٧- ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتدأ كذلك يتلاشى في مصر في الأزمنة الحديثة وغادر الاسم لأنقاض الباقية من قصر الشمع وتضاءل حتى غدا يطلق على دير قبطي صغير يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى (دير بابليون). وعند ذلك الدير الصغير، استقر ذلك الاسم التاريخي القديم بعد أن خلفه في تسمية المدينة (لفظ الفسطاط) وبعد أن خلفه في تسمية الحصن لفظ (قصر الشمع).

ونحن لا يهمنا من هذا التحليل كله لتطور استعمال كلمة بابليون، إلا أن نعرف أن المكان الذي أنشئت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة مدينة كبيرة ذات شأن؛ اتخذها البابليون مكانًا لاستقرارهم ثم اتخذها الرومان مقرًّا لدفاعهم يصلون به الوجهين البحري والقبلي ويدفعون منه كل مغير على مصر.

وهذا ما يؤيد الرأي الذي نريد أن نذهب إليه من أنه كان في مصر وقت الفتح مدينتان هامتان: إحداهما الإسكندرية وتعتبر العاصمة الأولى لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك، ولإشرافها

على البحر الأبيض المتوسط، وبابليون أو (مصر) وتعتبر العاصمة الثانية وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلي والبحري ولوقوعها على الشاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال- بواسطة هذا النهر- بكل أطراف القطر المصري ولتوسطها بين النيل غربًا (وهو مورد من الماء لا ينفد) وبين جبل المقطم شرقًا- وهو حد طبيعي لحمايتها؛ ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقرا لحكمهم للأسباب المتقدم ذكرها، فاتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة، وكانت هليوبوليس (عين الشمس) كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين.

ويؤيد هذا الرأي القائل بوجود هذه المدينة أيضًا قول المقريزي:

(وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحرية وهي الجهة الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى في الموضع الذي يعرف اليوم براشدة. وبجانب الحصن فيما بين الكروم التي بجانبه وبين الجرف الذي يعرف اليوم بجبل يشكر حيث جامع بن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى في الموضع الذي كان يعرف في أوائل الإسلام بالحمراء)؛ وقول ابن سعيد في كتبه المغرب: (وأما فسطاط مصر، فإن مبانيها كانت في القديم متصلة بمبان عين شمس، وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن) لأننا نعرف أن المعابد عامة- من هياكل وبيع وكنائس وأديرة ومساجد- منذ أقدم العصور إلى اليوم لا تبنى إلا في المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان؛

فوجود هذه الكنائس والديارات في الأماكن التي يذكرها المقريزي يثبت إثباتا قاطعا وجود مساكن آهلة ومبان عامرة في هذه المدينة القديمة وقت الفتح؛ وقول ابن سعيد لا يحتاج إلى هذا الاستنتاج، إذ يقول في عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام (وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن).

من هذا كله نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطًا، بل كان اختيارًا طبيعيًّا؛ كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها غير أنه ما كان يريد أن يبذل جهدًا جديدًا في إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته في اتخاذ الإسكندرية حاضرة، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله: (مساكن قد كفيناها). ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الإسكندرية، فكان لزامًا على عمرو أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وهي (بابليون) أو (مصر)، فذهب إليها واتخذ الفضاء المجاور لها مقرا له ولجنوده.

هذه هي الأسباب الطبيعية التي دعت عمر لاختيار هذا المكان غفل عن ذكراها مؤرخو العرب ولم يعرها اهتمامًا مؤرخو الفرنج.

ويقول المقريزي: (إن مدينة مصر محدودة بحدود أربعة فحدها الشرقي اليوم– أي سنة ٨٢٠هـ (١٤١٧م)– من قلعة الجبل وأنت آخذ إلى باب القرافة، فتمر من داخل السور الفاصل بين القرافة ومصر إلى كوم الجارح وتمر من كوم الجارح وتجعل كيمان مصر كلها عن يمينك حتى تنتهى إلى الرصد حيث أول بركة الحبش تحت الرصد حيث انتهى الحد الشرقي.

فهذا عرض مصر من جهة الجنوب التي يسميها أهل مصر القبلية وحدها البحري من قناطر السباع، حيث ابتدأ الحد الغربي إلى قلعة الجبل حيث ابتدأ الحد الشرقي. فهذا عرض مصر من جهة الشمال التي تعرف بمصر بالجهة البحرية وما بين هذه الجهات الأربع يطلق عليه الآن مصر).

وللوقوف على بقايا الفسطاط ومقارنة المباني التي وجدت في وسطها بتلك التي وجدت في أطرافها إلى تحديد الفسطاط على النحو الآتي:

الحد الشمالي: ويقع بين كوم الجارح وقنطرة السد.

الحد القبلي: ويمتد بين الرصد– وكان قائمًا على ذروة الشرف المطل على بركة الحبش– وشاطىء النيل غربًا.

الحد الغربي: الشاطىء الأيمن للنيل وهذا الحد كان ينتقل على تتابع السنين مع تنقل الجسر نحو الغرب.

الحد الشرقي: وكان يمتد فيما وراء الحد الذي عينه المقريزي، أي إلى حدود القرافة الحالية ويسير جنوبًا حتى الرصد.

شوارع الفسطاط:

وتتخلل مدينة الفسطاط طرق ضيقة تتفرع من بعضها على غير نظام معين وفي تعرجات لا ضابط لها، وكان بعضها ينتهي أحيانًا بانسداد في أخره وكأنها حارات غير نافذة. وكانت أغلب الشوارع والحارات مهما

كانت مبنية غير منتظمة العرض ويتفاوت عرضها بين ثلاثة أو أربعة أمتار. وعليه فإن تخطيط المدينة في عصر الولاة كان يسير من حيث عدم الخضوع لتنظيم مبنى أو فكرة تخطيطية معينة.

إن العمائر المدنية بأنواعها المختلفة لم يكن يعني بأسلوب بنائها عناية كبيرة مثلما كان يبذل في تشييد العمائر الدينية.

أما نظم توزيع الماء في المنازل، فكان يوزع في أنابيب فخارية ابتكرها العرب.

وكانت خطط الفسطاط يحددها من الغرب مجرى النيل الذي كان يسير في ذلك الوقت بجوار الجانب الغربي لحصن بابليون إلى جامع عمرو، حيث يمر في غربيه مباشرة ثم يتجه إلى موقع مشهد السيدة زينب الحالي، وكان يحدها من الشرق عين الصيرة ومن الشمال الشرف المطلة على بركة الحبش عند دير السلام حاليا ومن الجنوب يشكر الذي بُنِيَ فيه فيما بعد جامع ابن طولون؛ أي أن الفسطاط كانت تشغل مساحة طولها من الشمال إلى الجنوب حوالي خمسة آلاف متر وعرضها من الشرق إلى الغرب نحو ألف متر.

ظلت الفسطاط محتفظة بأهميتها التجارية والصناعية، ومما يدل على ذلك أن الرحالة ناصر خسرو الذي زارها (٤٣٩هـ/ ١٤٠٧م) كتب وصفًا شاملًا عنها وعن مبانيها وذكر ما فيها من بيوت شاهقة وجوامع كبيرة وحدائق غناء، كما يطنب في وصف غنى أسواقها وازدحامها وما

فيها من محال وحوانيت. وقد لفت نظره أن التجار كانوا يبيعون بأثمان محددة ويضعون ما يبيعونه في أوان من الخزف بدلاً من الورق وهذا مجانًا دون مقابل؛ وهذا يدل على تقدم صناعة الخزف. وذكر أنه كان بها حينذاك سبعة مساجد أشهرها المسجد العتيق ـ مسجد عمرو. وكانت عامرة بالناس والبضائع والأسواق.

وهكذا بدأت حلقة جديدة في تاريخ مصر والعرب وأخذت الحضارة الإسلامية ترتكز على أسس ثابتة قوية. كما أخذ صرح بنائها يرتفع بمرور الأيام وازداد العرب المسلمون الذين أخذوا يتدفقون عليها ويمتزجون بأهلها ويصاهرونهم ويكتسبون عاداتهم وأصبحت العلاقة بين العرب المسلمين وسكان مصر علاقة صفاء ومودة تزداد ترابطًا كلما تزايد عدد المسلمين في مصر.

ولقد استمرت الفسطاط عاصمة للديار المصرية ودارًا للإمارة ينزل بها أمراء مصر، حتى بنيت العسكر بظاهر الفسطاط سنة ١٣٣هـ (٧٥١م)، فنزل فيه أمراء مصر وسكنوها. فلما شيد أحمد بن طولون مدينة القطائع سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) وأقام فيها، سكنها أمراء مصر أيضًا وظلوا يسكنونها إلى أن انقرضت دولة بني طولون، فعادوا إلى العسكر وأقاموا به إلى أن قدم إلى مصر جوهر الصقلي، قائد المعز لدين الله الفاطمي وشيد القاهرة. غير أن الرعية استمرت تسكن الفسطاط التي بلغت من وفرة العمارة وكثرة السكان ما جعلها من أكبر المدن العالمية آنذاك.

جامع عمرو بن العاص:



(شكل ٧)

أول جامع أقيم في مصر ويعرف بالجامع العتيق وكان موضعه جبانة. وعندما نزل المسلمون في مكانه، حاز موضعه قيسبة بن كلثوم التجيبي ونزله وحينما رجع المسلمون من الإسكندرية إلى هذا المكان، سأل عمرو قيسبة في منزله هذا أن يجعله مسجدًا فتصدق به على المسلمين، فبُنِيَ في سنة ٢١هـ وقد وقف على تحرير قبلته جمع كبير من جِلَّة الصحابة رضوان الله عليهم. قال المقريزي: إنهم ثمانون رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت، أبو الدرداء وأبو ذر الغفاري، وغيرهم، وكان طوله خمسين ذراعًا في عرض ثلاثين ثم توالت الزيادات، إلى أن كانت سنة ٢١٢هـ، إذ أمر عبد الله بن طاهر، والي مصر من قبل المأمون بتوسيعه، فزيد فيه مثله.. وكانت تقام فيه حلقات الدروس بعضها للإرشاد والبعض الآخر لدروس الفقه والحديث وعلوم القرآن والأدب، فكان جامعة إسلامية ذاع ذكرها

في الآفاق وصار يقصدها الطلاب من الأقطار المختلفة. ويروي ابن إسحاق أن عمر بنى بعد فتح الإسكندرية مسجدًا كان لا يزال باقيًا إلى عصره.

دار عمرو الكبرى وداره الصغرى:

وكان عمرو قد بنى لنفسه دارًا شرقي المسجد عرفت باسم دار عمرو الكبرى وبنى عبد الله بن عمرو لنفسه دارًا أخرى تلاصق دار أبيه من جهة الشمال. وقد عرفت بدار عمرو الصغرى. وفي غربي هذه الدار، بنى الزبير بن العوام لنفسه دارًا ولكنها هدمت جميعا ودخلت في مساحة المسجد عندما ضاعف عبد الله بن طاهر من مساحته.

ظلت الفسطاط عاصمة للديار المصرية منذ نشأتها سنة ٢١هـ (٦٤١م) حتى سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية سنة ١٣٣هـ (٧٥٠م) وقد نشأت الفسطاط في أول أمرها بسيطة التخطيط والمباني ولكنها ما لبثت أن ازداد عمرانها وكثرت دورها وحسنت عمارتها وتعددت شوارعها وطرقاتها وعمرت أسواقها وتقدمت صناعاتها وحفلت بالفقهاء والمحدثين وأهل العلم؛ فقد أصبحت مدينة عامرة ذاع صيتها واجتذبت إليها الزائرين والسائحين من مختلف أنحاء العالم.

المبـاني:

وكانت الدور في أول الأمر تبنى من اللبن ومن طبقة واحدة كما هو الحال اليوم في كثير من ريف مصر. ويحكى عن خارجة بن حذافة أنه بنى غرفة فوق داره، فنهاه الخليفة عمر بن الخطاب عن ذلك وكتب إلى عمرو بن العاص يقول: (سلام أما بعد، فإنه بلغني أن خارجة بن حذافة بنى غرفة، ولقد أراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه، فإذا أتاك كتابي هذا، فاهدمها إن شاء الله.. والسلام)

ثم أخذت عمارة الدور في التقدم بالتدريج متمشية مع مقتضيات الأحوال وسنة التقدم والرقي وحاجيات السكان. وقد دلت أعمال التنقيب التي قام بها المرحوم علي بهجت سنة ١٩١٤م في حفائر الفسطاط أن الدور (قوامها الآجر– الطوب المحروق تتخللها لحامات ثخينة ومونة متخذة من الجير وبلاط من الحجر الجيري وأنابيب مصنوعة من الفخار وشباك من المجارير المنقورة في الصخر)، وتشمل بعض هذه الدور على أفنية بوسطها فسقيات تصل إليها المياه وتنصرف منها في مجار مبلطة وتحيط بتلك الأفنية أروقة وقاعات وغرف بعضها لسكنى الحريم والبعض الآخر للاستقبال. كما يحددها من الجنوب أحواض الزهور وتظللها من جهة الغرب الأشجار، ولكن يجب أن يكون مفهومًا أن الدور التي كشفت عنها هذه الحفائر لا يمكن أن ترجع إلى عصر الفتح، وإنما إلى عصر ازدهار الفسطاط وبلوغها أوج عزها حوالي القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادي) وكانت المباني تزخرف بوضع الآجر على هيئات

مخصوصة ومن ألوان مختلفة، فيوضع الحجر الأبيض والآجر الأحمر على هيئة تعاريج ومشبكات وكحلة اللحامات بمونة بيضاء ناصعة بارزة قليلا من وجه الجدار. ولقد استعيض عن هذه الطريقة في العصرين الطولوني والفاطمي بطلاء الأبنية بالجص من الداخل والخارج. فلما استخدم الحجر بدل الآجر في أبنية القاهرة منذ أواخر العصر الفاطمي، قضى بطبيعة الحال على هذه الطريقة وصارت الزخارف تحفر في الأحجار وازدانت الفسطاط بكثير من الدور والقصور والبساتين، من ذلك دار عمرو الكبرى ودار ابنه عبد الله التي عرفت بدار عمرو الصغرى وكانتا شرقي جامع عمرو كما أسلفنا ودارالزبير بن العوام غربي دار عبد الله بن عمرو، وشيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح لنفسه قصرا كبيرا كان يعرف بقصر الجن لكبره وضخامته. كما أمر مروان بن الحكم ببناء الدار البيضاء التي سكنها أثناء إقامته بمصر، كذلك أمر عبد العزيز بن مروان ببناء الدار الذهبية سنة ٦٧هـ (٦٨٦– ٦٨٧م) غربي المسجد الجامع وكان يطلق عليها المدينة لعظمها. ومعروف أن الإسلام قد حض على النظافة حتى أنه اعتبرها من الإيمان [النظافة من الإيمان]، فأمر بالوضوء قبل كل صلاة خمس مرات في اليوم والاغتسال. لذلك كثرت بالفسطاط الحمامات ويذكر المقريزي أنه كان يوجد بالفسطاط ألف ومائة وسبعون حمامًا وكانت حمامات القاهرة في عام ٦٨٥هـ (١٢٨٦م) ثمانين حمامًا فقط وبلغ عدد الطبقات في الدور بالفسطاط وهي في أوج عزها ثمانين دورًا، فبدت كالمنائر وأسفل الدور غير مسكون وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس؛ وهذا يدل على سعتها وعظم ارتفاعها. ويقول ناصر خسرو الرحالة الفارسي المشهور:

(وترى مصر من بعيد كأنها جبل وبها بيوت من أربع عشرة طبقة وبيوت من سبع طبقات وبها أسواق وشوارع توقد فيها القناديل لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها لأنها مسقوفة) وكان الحمالون يحملون الماء من النيل إلى المنازل في الروايا [القرب] ويصعدون الدور كل طبقة بنصف دانق، ويحكي ناصر خسرو أنه كان بمصر عام ٤٤٠هـ (١٠٤٨- ٤٩م) اثنان وخمسون ألف جمل لحمل قرب ماء الشرب في هاتين المدينتين. ومما ذكره أيضا أن ركوب الخيل كان وقفًا على الجند والمتصلين بالجيش، بينما كان سائر الآهلين ينتقلون على حمير ذات سروج جميلة. وكان في الفسطاط والقاهرة نحو خمسين ألف حمار للتأجير يشاهد المرء عددًا كبيرًا منها عند مداخل الشوارع والأسواق

الحالة الاقتصادية:

كانت الفسطاط مركزًا اقتصاديًّا عظيمًا وسوقًا تجاريًّا كبيرًا. بالإضافة إلى أنها قصبة الحكم وعاصمة البلاد ولم تفقد شهرتها كسوق تجاري عظيم حتى بعد بناء القطائع والعسكر بل والقاهرة أيضًا، فظلت مركز الحركة التجارية والاقتصادية؛ لسهولة اتصالها بداخل البلاد وبالعالم الخارجي، فقد كانت على اتصال وثيق بداخلية البلاد بواسطة النيل، فترد إليها الحاصلات والسلع من الوجهين القبلي والبحري. وفي ذلك يقول ابن بطوطة الرحالة المشهور:(وإن بنيل مصر من المراكب ستة وثلاثين ألفًا للسلطان والرعية تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الإسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق). كما ذكر ناصر خسرو أنه (كان للباعة

[بالقطاعي] دكاكين بمدينة مصر [الفسطاط] على ساحل النيل وكانت البضائع تفرغ على أبوابهم وكان الازدحام من الشدة بحيث كان يستحيل نقل البضائع على ظهور الدواب). كانت الفسطاط تغص بالأسواق المليئة بمختلف السلع والمتاجر فقد بنى عبد العزيز بن مروان قيسارية العسل وقيسارية البال وقيسارية الكباش وقيسارية البز [المنسوجات] وقد أسهب ناصر خسرو في الكلام عن الفسطاط وعظمتها وبيوتها الشاهقة وجوامعها الكبيرة وحدائقها الغناء وصناعاتها الزاهرة ووصف الثروة في أسواقها والازدحام فيها، حيث قال: إن الحوانيت مملوءة بالسلع المختلفة والأقمشة الثمينة والذهب وسائر الحلى، حتى أن المشتري لا يجد فيها محلا يجلس فيه. وكان شديد الإعجاب بسوق القناديل بجوار جامع عمرو، فقال إنه لم يعرف مثله في أي بلد آخر، وأن التحف النادرة والثمينة كانت تحمل إليه من أصقاع العالم كله؛ وترجع هذه التسمية إلى أن سكان هذا الحي كان لكل منهم قنديل على باب مسكنه كذلك تفد على الفسطاط السلع والمتاجر من بحر الروم (البحر المتوسط) بواسطة النيل أيضًا ومن بحر القلزم (البحر الأحمر) بواسطة الدواب أو خليج أمير المؤمنين. ومما تشتمل عليه سلع بحر الروم الجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف، ومما تشتمل عليه متاجر بحر القلزم المسك والعود والكافور وغير ذلك مما يحمل من السند والهند والصين.

التطور العمراني لمدينة الفسطاط:

عندما وصل الفتح الفاطمي إلى مصر، كانت الفسطاط أو مصر الفسطاط تمتد جنوب المنطقة التي عرفت في القرون الأولى للإسلام باسم الجرف أو الشرف (وعرفت ابتداء من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بالرصد بسبب المرصد الذي أقامه هناك الوزير الأفضل) والمعروفة الآن باسم إسطبل عنتر. وتمتد شمالاً حتى جبل يشكر. وكانت تنقسم جغرافيا إلى قسمين: عمل أسفل وعمل فوق. وكان بكل قسم منها مسجد جامع: جامع عمرو في عمل أسفل وسمي لذلك "بالجامع السفلاني" وجامع ابن طولون في عمل فوق وسمي لذلك "بالجامع الفوقاني". كان "عمل أسفل" يمثل المنطقة الجنوبية الغربية للفسطاط، ورغم أنه أكثر رطوبة وأقل صحية، كان يحوي أغلب العمائر الهامة للمدينة. ففيه كان المسجد الجامع ودار الضرب والأسواق والقياسر. وظل هذا الحي الغربي للمدينة شاهدًا على الأحداث الأليمة التي عرفتها الفسطاط طوال تاريخها.

أما الجزء الآخر للمدينة فكان يشمل مساحة كبيرة في اتجاه الشرق ويمتد حتى المقابر القديمة في سفح المقطم. وتمثل بركة الحبش الحد الطبيعي الجنوبي لهذا القسم من المدينة، حيث توجد اليوم ضاحية القاهرة الجنوبية: البساتين. بينما لم يكن للجزء الشمالي لهذا القسم حدًّا معينًا أو أنه على الأقل لم يكن واضح التحديد كبقية الأجزاء.

وفي ذروة ازدهار ونمو الفسطاط خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة/ العاشر والحادي عشر للميلاد، كان هذا القسم يمتد إلى ما يلي الخليج في منطقة يصعب تحديدها تعادل ميدان السيدة زينب الحالي فيما وراء جبل يشكر، حيث يوجد منذ القرن الثالث الهجري جامع ابن طولون. ولأن هذه المنطقة بصفة عامة أكثر ارتفاعًا من المنطقة الغربية، فقد أُطلق عليها طوال العصر الإسلامي "الموقف" و"عمل فوق". وكان كذلك أوسع كثيرا من عمل أسفل وكانت في الأساس حيا سكنيا رغم خلوها من المراكز التجارية والحرفية التي كانت مركزة كلها في القسم الآخر للمدينة بالقرب من مجرى النيل.

وتجدر الإشارة إلى أن عمل أسفل كان يعد المدينة بمعنى الكلمة، بينما عمل فوق أشبه ما يكون بحزام يُطوّق المدينة في الشرق والجنوب الشرقي، والحد بين أسفل وفوق مسجد عبد الله.

ورغم أن القسم الغربي للمدينة أو عمل أسفل قد دُمّر أكثر من مرة، إلا أنه كان يعاد بناؤه دائمًا ولم يفقد أهميته الاقتصادية والحرفية والإدارية، وظل باقيا حتى نهاية العصر المملوكي، حيث كان يعتبر المدينة الثانية للإقليم، بعد القاهرة، بسبب قربه من النيل.

أما القسم الشرقي للمدينة أو عمل فوق، فقد دمر تمامًا منذ النصف الثاني للقرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ولم يعاود سكنه بعد ذلك؛ بسبب الأوبئة والمجاعات والاضطرابات التي اجتاحت

مصر في هذه الفترة. وبسبب ذلك فقد تخرب القسم الشرقي كله، فيما عدا منطقة المقابر وأعيد استعمال أحجاره في تعمير مناطق أخرى خاصة منطقة المشاهد بين المشهد النفيسي وباب زويلة شمالًا التي تمثل الضاحية الجنوبية للقاهرة الفاطمية.

مدينة القيروان (٥٠هـ/ ٦٧٠م):

تقع مدينة القيروان في تونس، أسسها القائد المسلم عقبة بن نافع عام ٦٧٠م في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، بعد انتصاره على البربر في شمال أفريقيا. كان الهدف من إنشاء مدينة القيروان؛ لتكون ملجأً وحصنًا آمنًا لجند المسلمين من هجمات البربر.



(شكل ٨)

يعتبر إنشاء مدينة القيروان بداية تاريخ الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربى، لذا تعد أقدم وأهم المدن الإسلامية، بل المدينة الإسلامية الأولى في منطقة المغرب العربي؛ فهي تحمل في كل شبر من أرضها عطرًا ومجدًا شامخًا وإرثًا عريقًا يؤكده تاريخها الزاهر ومعالمها الباقية التي تمثل مراحل مهمة من التاريخ العربي الإسلامي ولقد بقيت القيروان حوالي أربعة قرون عاصمة الإسلام الأولى لأفريقيا والأندلس ومركزًا حربيًّا للجيوش الإسلامية ونقطة ارتكاز رئيسية لانتشار اللغة العربية.

عندما نتحدث عن القيروان، نذكر القائد العربي الكبير عقبة بن نافع ومقولته المشهورة عندما بلغ في فتوحاته المحيط الأطلسي وهو يرفع يده إلى السماء ويصرخ بأعلى صوته: "اللهم أشهد أني بلغت المجهود، ولولا هذا البحر، لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحدًا دونك".

كلمة القيروان كلمة فارسية دخلت إلى العربية، وتعني مكان السلاح ومحط الجيش أو استراحة القافلة وموضع اجتماع الناس في الحرب ويعود تاريخها إلى عام ٥٠ هـ /٦٧٠م، عندما قام بإنشائها عقبة بن نافع وكان هدفه من هذا البناء أن يستقر بها المسلمون؛ إذ كان يخشى إن عاد المسلمون، أن يعود أهل أفريقيا إلى دينهم. وقد جمع عقبة بن نافع بعد انتهائه من بناء مدينة القيروان وجوه أصحابه وأهل العسكر فدار بهم حول مدينة القيروان وأقبل يدعو لها ويقول في دعائه: اللهم املأها علمًا وفقهًا وأعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزًّا لدينك وذلًّا لمن كفر بك وأعز بها الإسلام.

إن اختيار عقبة بن نافع مدينة القيروان كان اختيارًا موفقًا، فالقيروان توجد على مسيرة يوم من البحر الذي كان البيزنطيون يسيطرون عليه، وهى تبعد بمثل ذلك عن الجبال حيث كانت آنذاك تعتصم القبائل البربرية المناوئة للإسلام وتمثل القاعدة المحدثة رأس الحربة وسط خط المواجهة المتخذ بين المسلمين والبيزنطيين، بعد انهزام ملكهم جرجير في سبيطلة أمام جيوش معاوية بن حديج سنة ٤٥هـ، ٦٦٥م وتراجع سلطانهم وانحصاره في شمال البلاد.

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان؛ فقد تميز موقع القيروان بالآتي:

أ- لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أي بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب. ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات، بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب- موافقة الموضع لذهن العرب ومتطلباتهم الضرورية. وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريبًا من السبخة: فإن أكثر دوابكم الإبل تكون على بابها في مراعيها... وكذلك في الكلمات التي عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم

في الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر.

ج– يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية؛ فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهًا لجبال أوراس، معقل قبائل البربر. إذًا، فإنه كان في بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التي تكفل للمجاهدين المسلمين موردًا غذائيًّا مهمًّا.

د– صحيح أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثِّلة في الموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار، غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب، فكانت تعتمد على مصدرين، الأول: الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل). وثانيها: مياه وادي السراويل في قبلة المدينة؛ لكنه كان مالحًا. لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان، قائلًا: وشربهم من ماء المطر. إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها (الموجل) ولهم وادٍ يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه، ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجيًّا إلى حد ما.

بالإضافة إلى ذلك، فالقيروان في منبسط من الأرض مديد يسمح باستنفار الفرسان في غير صعوبة، فقد كانت الخيل قوام جيش المسليمن في

جل معاركهم وحروبهم المصيرية وقد راعى عقبة في اختياره لموقع مدينته الجديدة تقريبها من السبخة؛ ليوفر ما تحتاجه الإبل من المراعي. وتتفق المصادر على أن معاوية بن حديج قد عسكر خلال إحدى حملاته الثلاث في أفريقيا بالموضع المعروف بالقرن على بعد عشرة كيلو مترات شمال غربي القيروان. كما تذكر كتب الطبقات أن الصحابي أبا زمعة البلوي استشهد خلال غزوة معاوية بن حديج الأول العام ٣٤هـ، ٦٥٤م وهو محاصر لجلولة، فدفن بموضع القيروان.

في سنة ٥٠هـ بدأت أفريقية الإسلامية عهدًا جديدًا مع عقبة بن نافع، المتمرس بشؤون أفريقية منذ حداثة سنّه؛ فقد لاحظ كثرة ارتداد البربر ونقضهم العهود وعلم أن السبيل الوحيد للمحافظة على أفريقية ونشر الإسلام بين أهلها هو إنشاء مدينة تكون محط رحال المسلمين ومنها تنطلق جيوشهم، فأسس القيروان وبنى جامعها وقد مهد عقبة قبل بناء المدينة لجنوده، بقوله: إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام. فإذا خرج منها، رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًا للإسلام إلى نهاية الدهر.

فاتفق الناس على ذلك وأن يكون أهلها مرابطين، وقالوا: نقرب من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط، فقال عقبة: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكها؛ ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون. ولم يعجبه موضع القيروان الذي كان بناه معاوية بن حديج قبله، فسار والناس معه حتى أتى موضع القيروان

اليوم وكان موضع غيضة لا يرام من السباع والأفاعي، فدعا عليها، فلم يبق فيها شيء وهربوا حتى أن الوحوش لتحمل أولادها.

وعن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب، قال: يا أهل الوادي! إنا حالون إن شاء الله، فظعنوا ثلاث مرات. فما رأينا حجرًا ولا شجرًا، إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي، ثم قال للناس: انزلوا بسم الله وكان عقبة بن نافع مجاب الدعوة وقد رأى قبيل من البربر كيف أن الدواب تحمل أولادها وتنتقل، فأسلموا ثم شرع الناس في قطع الأشجار وأمر عقبة ببناء المدينة، فبنيت وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم ومساكنهم وتم أمرها سنة ٥٥هـ وسكنها الناس، وكان ذلك أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا، فتُغير وتنهب ودخل كثيرًا من البربر الإسلام واتسعت خطة المسلمين وقوي جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان وآمنوا واطمأنوا على المقام، فثبت الإسلام فيها.

وتم تخطيط مدينة القيروان على النمط الإسلامي، فالمسجد الجامع ودار الإمارة توأمان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما دائمًا إلى جوار بعضهما ويكونان دائمًا في قلب المدينة التي يخطتها المسلمون ويرتكزان في وسطها، وبينهما يبدأ الشارع الرئيسي للقيروان الذي يسمى باسم السماط الأعظم، ثم ترك عقبة فراغًا حول المسجد ودار الإمارة في هيئة دائرة واسعة ثم قسمت الأرض خارج الدائرة إلى خطط القبائل، ليكون استمرارًا للشارع الرئيسي في الاتجاهين إلى نهاية المدينة، وانجفل البربر من نواحي أفريقية إلى القيروان وسكنوا حولها وكان الكثير منهم دخل في الإسلام

وشرعوا في تعلم اللغة العربية والقرآن الكريم وأمور دينهم. وهكذا نشاهد فيما بين عامي ٥٠- ٥٥هـ حركة قوية بدأت في تعريب الشمال الأفريقي.

١ - الخصائص المتوفرة في موضع القيروان:

كانت الدوافع السياسية والعسكرية والإدارية والدعوية دوافع قوية في قرار عقبة في اتخاذ موقع القيروان، فقد تميز موقع القيروان بالآتي:

أ- بأنه لا يفصله عن مركز القيادة العسكرية في الفسطاط أي بحر أو نهر، فهو يقع على الطريق البري الذي يربط بين الفسطاط (بمصر) وبين المغرب، ويبدو أن عقبة رحمه الله أخذ بنظرية عمر بن الخطاب في بناء الأمصار والمعسكرات بألا يفصلها فاصل من نهر أو بحر أو جسر عن المدينة أو مركز القيادة وأن تكون على طرف البر أو أقرب إلى البر والصحراء.

ب- موافقة الموضع لذهنية العرب ومتطلباتهم الضرورية وتتجلى هذه الخصوصية من خلال قراءة توصية عقبة بن نافع في أن يكون الموضع قريبًا من السبخة: فإن أكثر دوابكم الإبل تكون إبلكم على بابها في مراعيها... وكذلك في الكلمات التي عبر عنها أصحاب عقبة عندما استجمع رأيهم في الموضع المنتخب، إذ قالوا: نحن أصحاب إبل ولا حاجة لنا بمجاورة البحر.

جـ- يتمتع ببعض الإنتاجات والموارد الذاتية، فالمنطقة التي كان فيها موضع القيروان عبارة غيضة، كما أورد الجغرافيون، وكان مواجهًا لجبال أوراس، معقل قبائل البربر، إذن، فإنه كان في بقعة زراعية تتضمن بعض المحاصيل التي تكفل للمجاهدين المسلمين موردًا غذائيًّا مهمًّا.

د- صحيح أن المشكلة الرئيسية التي جابهتها القيروان بعد اتخاذها كانت متمثِّلة بالموارد المائية، كما هي الحال في مدينة البصرة، مع وجود فارق بين المصرين، فإن مياه البصرة كانت مع الأنهار غير أنها مالحة. أما مياه القيروان الصالحة للشرب فكانت تعتمد على مصدرين، الأول منهما الأمطار حيث كانت تخزن في صهاريج يطلق عليها اسم (المواجل)، وثانيها مياه وادي السراويل في قبلة المدينة؛ لكنه كان مالحًا؛ لذلك فإن بعض المؤرخين حدد مصدر مياه القيروان قائلاً: وشربهم من ماء المطر إذا كان الشتاء ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها (المؤجل).. ولهم وادٍ يسمى وادي السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء مالح.. يستعملونه فيما يحتاجونه. ومع ذلك، فإن هذه المشكلة المعقدة يبدو أنها أخذت تتضاءل تدريجيًّا إلى حد ما.

٢- القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمتها العلمية:

لم تبدأ الحياة العلمية المركزة إلا بعد تأسيس القيروان سنة ٥٠هـ، فسرعان ما أصبحت القيروان مركز الحضارة الإسلامية بالمغرب وعاصمته

العلمية، منها انطلق الدعاة وإليها رحل طلاب العلم من الآفاق؛ وما رشح القيروان لهذه المكانة ما يلي:

*** إنشاء مدينة القيروان يعني أن أفريقية أصبحت ولاية إسلامية جديدة وجزءًا لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، والقيروان مدينة رسالة وعلى أهلها تلقي مسؤولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها.**

*** لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء تأسيس القيروان ثمانية عشر صحابيًّا وقد مكثوا فيها خمس سنوات كاملة كان عملهم فيها، ولا شك، نشر اللغة العربية وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان أثناء بناء مدينة القيروان؛ حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غيابًا طويلاً عن القيروان. أما في غزوة عقبة الثانية، فقد كان معه خمسة وعشرون صحابيًّا وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة مما دعا عقبة أن يوصي أولاده جميع المسلمين بتحري حديث الثقاة وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن.**

* لقد استقطبت القيروان أعدادًا هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد. قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: فدخل أفريقية وأضاف إليها مسلمي البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام ورسخ الدين، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة. ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك صاحبه شاكرًا في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام. ولما جاء أبو المهاجر دينار لولاية أفريقية تألف كُسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجًا ودعّم حسان بن النعمان– فيما بعد جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر. حيث خصص ثلاثة عشر فقيهًا من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نُصير هذه المهمة حيث أمر العرب أن يعلّموا البربر القرآن ويفقّهوهم في الدِّين وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيهًا لتعليم أهله.

* كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بأفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب: روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمر بن الخطاب لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية من أم الولد وماتت، فدفنها في مقبرة قريش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية. ومن هنا كان لابُدَّ من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية. ولذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جدًّا، فقد روي عن غياث بن شبيب أنه قال: كان سفيان بن وهب صاحب رسول

الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان، فيسلم علينا ونحن في الكُتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاهما سنة ٦٠هـ أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة ٧٨هـ.

* إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها؛ فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمرّ بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون من علمائها. وكثير منهم يصبح أهلاً للعطاء عند عودته فيسمع منه أهلها، كما كان يدخلها من يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق.

ش- لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة ولذلك أمّها كبار التجار من المشرق والمغرب وكثير منهم من المحدّثين والفقهاء، فكان ذلك عاملاً مهمًّا في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان.

* ومما أسهم في شراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك أنّه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما أن كثيرًا من المحدثين والفقهاء يفدون إلى العاصمة الأفريقية ضمن الجيوش القادمة من المشرق التي استمر مجيئها إلى بعد منتصف القرن الثاني، بالإضافة إلى من كان يقصد الأمراء للمدح والتسلية من أهل الشعر والأدب.

* اكتسبت القيروان نوعًا من الاحترام والتعظيم؛ باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ وظهر بها على أيديهم كثير من الكرامات واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، كل هذه الأمور هيأت القيروان لدور الريادة العلمية في أفريقية والمغرب حتى وصفها أبو إسحاق الجبنياني في قوله: القيروان رأس وما سواها جسد وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها ولا قاتل ولا قتل على إحياء السنة إلا أئمتها، وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي من ذلك ما وصفها به ما قد يشي بأنها: منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا ولا فرع في جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا؟ ومنها خرجت علوم المذهب وإلى أئمتها كل علم ينسب ولا ينكر هذا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام. وهكذا أصبحت القيروان دار العلم الأفريقية وبرز فيها كبار المحدثين والفقهاء والقراء ورحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف، فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب. لقد قامت القيروان بدور كبير في فتح شمال أفريقية كله والأندلس ونشر الإسلام في المغرب وأصبحت من أهم مراكز الحضارة الإسلامية.

وقد لعبت مدينة القيروان دورًا رئيسيًّا خلال القرون الإسلامية الأولى، وذلك يرجع لكونها كانت العاصمة السياسية للمغرب الإسلامي،

بل مركز الثقل الرئيسي فيه منذ ابتداء الفتح الإسلامي و حتى أخر دولة الأمويين في دمشق بل وخلال جزء من تاريخ الدولة العباسية.



(شكل ٩)

ومن أهم معالمها مسجد عقبة بن نافع ودار الإمارة وقد ازدهرت هذه المدينة بعد أن اتخذها الفاطميون عاصمة لدولتهم قبل بناء مدينة القاهرة.

مدينة واسط (٨٦هـ/ ٧٠٥م):

مدينة واسط أو (واسط القصب) (عرفت كذلك بأسماء واسط الحجاج وواسط العظمى وواسط العراق) كما كانت تعرف عند نشأتها، وتقع على جانبي نهر دجلة. وقبل بناء الحجاج لها، كانت قد سكنت من الجانب الشرقي فقط حيث سكنت من الساسانيين الفرس والآراميين

(الأنباط) وتدعى بكسكر واستحدث الحجاج مقره قبالتها على شاطئ دجلة من جهة الغرب حيث عاش العرب وحدهم.

أما الاسم، فقال ياقوت الحموي بشأنه: إن المدينة اكتسبت اسمها من موقعها وسطًا بين الكوفة والبصرة والأحواز، فهي تبعد خمسين فرسخًا عن كل واحدة منها. وهناك من يرى أن المدينة كانت وحدها وسط البرية ومن هنا سميت واسط. أو أنها أقيمت على أنقاض قرية تاريخية تسمى واسط القصب، فسميت باسمها.

تسمية المدينة وسكانها:

تعود تسمية (واسط) إلى موضعها الذي كان يسمى واسط القصب وسمي كذلك أرض القصب، وذكر البلاذري أن الحجاج عندما فرغ من بناء مدينته، كتب إلى عبد الملك بن مروان "إني اتخذت مدينة في كرش من الأرض بين الجبل والمصرين وسميتها واسطًا". لذا أطلق على سكان واسط بالكرشيين. وفي ضوء ذلك، يرى الباحث أن اسم المدينة جاء بحكم طبيعة موقع المدينة الوسطي بين البصرة والكوفة اللتين وقعت إدارتهما بيد الحجاج.

تعزى الرواية التقليدية لإنشاء تلك المدينة، كما ثبت في كتب التاريخ، والتي تحكى عن تأسيس المدينة وإنشائها على يد الحجاج بن يوسف الثقفي على الضفة الغربية لدجلة مقابل مدينة كسكر لتكون عاصمة له بسواد العراق. كان لإقليم العراق في ذلك الوقت واليان،

أحدهما كان يقيم في الكوفة والآخر يقيم في البصرة، وكانت إدارة كل منهما مستقلة عن الأخرى. وظل الأمر كذلك حتى جمع معاوية الولايتين تحت إمرة والٍ واحد وعيّن عليها زياد بن أبي سفيان. فأصبح زياد يعرف بـ"والي العراقين" أو "والي المِصْرَيْن" وأخذ زياد يقيم في الكوفة ستة أشهر (الربيع والصيف) وفي البصرة ستة أشهر (الخريف والشتاء). وظل الأمر كذلك حتى قدم الحجاج واليا على العراق (٧٥هـ/ ٦٩٤م) وأخذ يتنقل بين المِصْرَين كسابقيه، ولكنه، فيما يبدو، قد تعب من هذا التنقل وقال في نفسه: "أَتَّخِذ مدينة بين المِصْرَين أكون بالقرب منهما. أخاف إن حدث في إحدى المصْرَين حدث وأنا في المِصْر الآخر". وقام بنفسه يفتش عن أنسب الأماكن لمشروعه. وحدث أن مرّ بأرض تعرف بواسط القصب فأعجبته، فقال: هذا واسط المِصْرَين. وكتب إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان يستأذنه في بناء مدينة بين المصرين، فأذن له، واشترى الحجاج الأرض من صاحبها بعشرة آلاف درهم. وشرع الحجاج يؤسس مدينة جديدة تتوسط المسافة بين الكوفة والبصرة، ومن أجل ذلك عرفت بواسط أو واسط الحجاج.

اختلف المؤرخون في تاريخ بناء مدينة واسط، فقد بدأ الحجاج تشييد المدينة قيل: في العام ٧٦هـ، وقيل: ٨١هـ- ٨٣هـ، وهناك رأى بأنها بنيت من ٨٣هـ- ٨٦هـ، كما جاء في كتاب (فتوح البلدان) للبلاذي. وهو الرأي الغالب لتكون قاعدة إدارية ومعسكرًا لجنوده على الضفة الغربية لدجلة مقابل مدينة كسكر على الضفة الأخرى، وأتمها في العام ٨٦هـ بإنشاء سور حصين حولها حماية لها من الهجمات المباغتة من المعارضة في

البصرة أو الكوفة، فكانت واسط بذلك أول مدينة إسلامية النشأة تتم إحاطتها بسور دفاعي وإن كان الغرض منه داخليا محضًا وليس لدفع عدوان خارجي.

ومن هنا الحجاج بنى مدينته على غرار المدن العربية الإسلامية وحسب الحاجة لتنفيذ أغراضها العسكرية ولتكون قاعدة جنده ومنطلق عساكره إلى الفتوح التي تنتظره. فعلى مسافة من نهر دجلة وبجانبه الغربي قام قصره الشهير المعروف بـ(القبّة الخضراء)؛ لأن القبّة هي أبرز أجزائه شاهقة حتى قيل إنها كانت ترى من بلدة (فم الصلح) الواقعة على بعد سبعة فراسخ شمال واسط. ومساحة القصر أربعمائة ذراع في مثلها وكان له أربعة أبواب كلّ منها يفضي إلى طريق عرضها ثمانون ذراعًا. ولعل القبة كانت وسط القصر حيث يتقاطع قطراه. وبجانب القصر أقيم المسجد الجامع ومساحته مائتا ذراع وجعل على مقربة من القصر إلى الشاطئ سوقًا عامرة فيها كان تجار كل صنف من البضاعة يتعاطون تجارتهم في قطعة خاصة منها وكانت هذه السوق واسعة امتدت من القصر إلى شاطئ دجلة شرقا وإلى درب الخرازين جنوبا. ويذكر المؤرخون أن درب الخرازين ذاته كان شارعًا عظيمًا يبتدئ بالقرب من القصر ويمتد جنوبًا إلى الغرب من السوق ثم يقترب من دجلة.

ونقل الحجاج إلى مدينة واسط جميع المؤسسات الحكومية التي كانت في الكوفة والبصرة بموظفيها (بما فيهم الجند البخارية الذين كانوا يعملون في حراسة هذه المؤسسات). كما أسكنها جند أهل الشام الذين ساندوا

الحجاج في توطيد الحكم الأموي في العراق. ونقل إليها جماعة من وجوه أهل الكوفة والبصرة. وظلت مدينة واسط مركزًا إداريًّا لإقليم العراق وتوابعه. ولم يضعف دورها السياسي إلا بعد أن جاء العباسيون وبنو مدينة بغداد (١٤٥هـ/ ٧٦٢م) واتخذوها عاصمة لدولتهم.

من جانب آخر، لا تشير المصادر التاريخية إلى عدد سكان المدينة إلا أنّها تذكر أسماء القبائل التي سكنت فيها ومنها قريش، وثقيف، وبني الأشقر، وكلب، وقضاعة، وفزارة، وربيعة، وبكر، وتميم، وقيس، والأزد وغيرها، وبعد وفاة الحجاج سنة ٩٥هـ سكن مدينة واسط النبط والفرس وإليهود والنصارى.

كانت مدينة تاريخية بسواد العراق ازدهرت خلال العصور الوسطى، تعد من المدن ذات الصبغة العسكرية.

حسن اختيار المكان:

بمعنى أنه على بساطته، تعامل مع الجغرافيا بحس متطور وأن هذا التعامل كان معروفًا للشعوب الأخرى التي جاءت بعده، تشترك معه فيه. وربما لهذا السبب، ولأنه أحسن الاختيار، تجدد البناء على أنقاض كثير من مدنه بعد موتها من قبل أقوام أُخر بمئات السنين. ولنأخذ على سبيل المثال مدينتين متجاورتين لهما علاقة بموضوعنا هذا، الأولى (كسكر) أو (طسوج) التي يقال إن واسط أقيمت على أنقاضها أو قريبا منها، إذ ذكر اليعقوبي أن الجانب الشرقي من واسط كان مدينة معروفة قبل زمن الحجاج بمدة

طويلة. والثانية (بدرة) القريبة من واسط وهي إحدى مدن الحضارة البابلية وكانت تسمى (بادرايا) وفيها غابات من أشجار الصنوبر ومنها أخذ النمرود الحطب إلى (كوثي) ليقوم بحرق نبي الله إبراهيم (عليه السلام).

ولقد أثبت التاريخ أن موازين الاختيار نفسها اتبعت عبر التاريخ ولحين مرحلة بناء المدن الحديثة، ولذا نجد أنه حينما كثرت ثورات الشيعة في الكوفة وثورات الخوارج في البصرة والأحواز، قام الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان باختيار الحجاج بن يوسف الثقفي واليا على العراقين (الكوفة والبصرة) وأن الأخير أراد أن يكون قريبًا من هذه الأمصار الثلاثة في نفس الوقت، فاختار هذا المكان أثناء تنقله بينها لتكون مستقرا له، فلم يكن يأمن البصرة أو الكوفة أو الإقامة فيهما وهو ما من قوله: أخاف أن يحدث في أحد المصرين أمرًا وأنا في المصر الآخر، سأختار هذه وسط المصرين؛ لأن شروط الاختيار متوفرة فيه.

إن اختيار الحجاج لهذا المكان ليبني عليه مدينة واسط لم يكن مصادفة؛ فقد تم اعتمادًا على القواعد الجغرافية والحياتية (الاقتصادية) نفسها التي اعتمدها القدماء. فضلًا عن السبب الجغرافي، فاختيار المنطقة بني على فكرة توسط المكان المقترح بين ثلاث مدن مهمة هي الكوفة والبصرة والأهواز وموقعها الجغرافي على جانبي نهر دجلة. ولذا بدأت بالتلاشي بعد أن بدأ النهر بتغيير مجراه. ولكونها منطقة خصبة وصالحة للزراعة والرعي وغير مستغلة ووقوعها على طريقي التجارة النهري والبري، حيث كانت ملتقى عدة طرق لوقوعها على دجلة من جهة وتوسطها

الكوفة والبصرة والمدائن والأهواز من جهة أخرى. وكل تلك الأمور ساعد على ازدهارها وتفاعلها مع البلدان الأخرى وتنشيط حركة التجارة الخارجية وتبادل السلع.

وكذلك كان العامل الطبيعي مهمًا في حسن اختيار واسط، إذ أن العرب يفضلون في بناء مدنهم منطقة صحية ونقية وغير موبوءة وذات خضرة ومنظر مريح للنفس. وكما قال المقدسي عن مدينة واسط: واسط قصبة عظيمة، صحيحة الهواء، عذبة الماء..

أما السبب السياسي لاختيارها، فيعود كما يتضح من بعض الأقوال إلى رغبة الحجاج في أن يحتفظ جيشه الشامي الجرار بهويته الشامية وذكرياته عن أيام صفين وشراسة المعارك التي خاضها ضد العراقيين ولا يفقدها بالاختلاط بالعراقيين، فالعراقيون أهل منطق وإقناع. وإذا اختلط بهم الجند قد يغيرون من قناعاتهم، والدليل أنه لم يكن يسمح لأهل السواد، أي العراقيين، بالمبيت في مدينته واسط، حيث عين حراسًا يخرجونهم من المدينة وقت الغروب ولا يسمحون لهم بالعودة إليها إلا في صباح اليوم التالي، وهو ما أشار إليه الطبري في قوله: إن الحجاج اختارها معسكرًا لجنده لمنع حدوث الاحتكاك بين جيشه الشامي وأهل المصرين ليحافظ على روحهم الشامية.

أما من ناحية العامل المناخي، فله دور في اختيار المدينة وتأسيسها، إذ حرص العرب على أن تكون مدينة واسط مُنْشَأَةً في موضع مناخي

صحي خالٍ من الحشرات والهوام وغير موبوءة؛ إذ تميزت مدينة واسط بامتلاكها أفضل المناخات التي تتصف بالنمط الفصلي المتميز الذي يشجع على قيام الزراعة المنتجة.

إن مناخ المدينة ملائم للسكن، إذ أثبت الأطباء الأمويون ذلك عبر إجراء اختبار تعليق قطع من اللحم في مواضع عديدة أصلحه ما فسد اللحم بعد غيره، ولقد أشار المقدسي وغيره من المؤرخين إلى مناخ المدينة "إن واسط قصبة عظيمة... صحيحة الهواء وعذبة الماء". وكما معلوم تتميز المدينة بالمناخ الصحراوي الذي ساهم في تكوين الشكل المعماري للمدينة، إذ تم إنشاء السراديب وفتحات الغرف من النوافذ العلوية والشبابيك وغيرها، فقد نشأت الحضارة في واسط والبصرة والكوفة بعد أن انتقلت من مكة والمدينة والطائف في عصر الإسلام، ونستدل من ذلك أن مساكن المدينة تكيفت مع الظروف المناخية من حيث الشكل ونوع البناء وتجاور المساكن.



(شكل ١٠)

وتعد واسط من المدن ذات الأهمية العسكرية؛ وجاءت تلك الأهمية لكونها قاعدة الجيوش العربية والتي امتدت إحدى عشر قرنًا، فمدينة واسط كمدينة عربية إسلامية لا تقل أهميتها عن الكوفة والبصرة في إرساء قواعد الحكم العربي ولسهولة الدفاع عنها والانسحاب منها.

وأول عمل قام به الحجاج بعد شرائه الأراضي، الأمر ببناء القصر والمسجد والسورين وحفر خندق في ثلاث سنين، وأصبح الجامع والقصر والسور على الجانب الغربي من واسط.

ويبدو أن الحجاج تأثر بما شاهده أو سمعه عن مدن بلاد فارس أو الروم البيزنطيين والتي أخذت شكل البناء المدور والذي يمثل الشكل الأنسب للمدن العسكرية أو التي أنشئت للأغراض العسكرية ولتكون مدينة واسط محصنة ضد كل طارئ لم يغفل مؤسسها وجود نهر دجلة، فجعل المدينة شطرين يقسمها دجلة ويزودهما بما تحتاجهُ من مياه للشرب والسقي وجعل شكلها المدور على شطرين يربط بينهما جسور للتنقل والدفاع. وقد أخذ بعين الاعتبار إمكانية فصل هذه الجسور في حال سقطت إحدى شطري المدينة، فيبقى الشطر الآخر محميا بالمياه وبالأسوار. كما أن المدينة كانت غاية في الجمال والروعة، رغم أنها أنشئت كما قلنا لأسباب عسكرية وهو ما دفع ابن بطوطة الرحالة الشهير لذكرها بأنها "مدينة حسنة الأقطار، كثيرة البساتين والأشجار". مضافًا إلى الأسوار والخنادق والتحصينات التي بنيت حول المدينة ولم ينس مؤسسها أن يجعلها

مدينة ذات نماذج معمارية وإسلامية متطورة يتوسطها القصر (قصر الحجاج) ومنارتها المرتفعة نحو إحدى عشر مترًا ومسجدها الكبير.

لعبت واسط أدوارًا عدة كونها جمعت بين الجوانب الإدارية والسياسية والعسكرية وما دفعنا لاختيار مدينة واسط أهمية تلك المدينة، فقد أوعز بعض الباحثين استقرار الحالة السياسية في العراق إلى بناء تلك المدينة. ومن جهة أخرى، فإن أسباب بناء مدينة واسط كان يختلف في مجمله عن أسباب بناء المدينتين الأخرتين البصرة والكوفة وتمثل ذلك الاختلاف في طريقة بنائها، كونها مدينة محصنة بالصور أو السورين كما يذكر بعض المؤرخين والخندق أو الخندقين كما ذكر البعض، فالعرب لم يكن يهمهم بناء مدن محصنة لأنهم كانوا على الدوام في حالة قتال وجهاد ومهاجمة. ولعلنا لا نغالي إذ قلنا إن بناء مدينة واسط في العراق كان بداية للتفكير في بناء مدن محصنة يكون غرضها إداريًّا ويجمع إلى ذلك الحصانة والميزة العسكرية إلى جانب كونها ضمن جوانب أخرى تطرق لها هذا البحث. ولقد بقيت واسط حتى بعد وفاة مؤسسها الحجاج تؤدي أغراضًا مهمة وبقيت حصانتها عشرات السنين وتطورت من مدينة إدارية إلى مدينة ضمت في طياتها عوامل أخرى كالتجارة والزراعة ولم تضمحل أو ينتهي دورها؛ وهو ما يدلل على أهمية موقعها ودقة وصحة الاختيار. لقد اقتضت الدراسة تقسيمها إلى ثلاثة محاور، المحور الأول: يتضمن الموقع والنشأة لمدينة واسط. أما المحور الثاني: فقد سلطنا الضوء على تخطيط المدينة وخططها وأهم وسائل الدفاع والتحصينات فيها. أما المحور الثالث:

فقد ركز على عامل اختيار المدينة وأهميتها وبقائها فترة طويلة من الزمن وصمودها بوجه العباسيين بعد نهاية الخلافة الأموية.

وقد قسم الخطط للقبائل العربية حول المسجد ودار الإمارة والذي بناها لصق جدار القبلة، أي خلف مصلى الجامع الأول الذي بناه الحجاج وجعلوا من حول الإمارة ومسجدها فراغًا يفضي وتشرع إليه الطرق والأسواق والمحلات والمدارس والربط وأحيطت بخندق كبير. لكن لم تشر المصادر عن عرضه ومصدر المياه نهر دجلة أو الزاب لقربه من المدينة ولزيادة تحصينها. حظيت مدينة واسط بسورين يفصل بينهما الفصيل والذي يعد ثكنات الجيش من الجنود والحرس وكان يتراوح ارتفاع الجدار ما بين ٢ إلى ٣ أمتار وقد شيد بالآجر وقد دعم السور بالأبراج لزيادة التحصين، كما هو عليه الحال في أغلب أسوار المدن الإسلامية. وللسور عدة أبواب وهي: (باب المضمار، باب الزاب، باب القورج، باب الخلالين، باب البصرة، باب الفيل) وأصبحت واسط كمدينة عربية إسلامية من أهم معالمها والتي تميزها عن غيرها من المدن.

أهم ما اشتهرت به المدينة:

اشتهرت واسط كمركز للحكم الأموي بالعراق وتمتعت بازدهار كبير بفضل عناية الأمويين بالزراعة في إقليم السواد وقد شيدت بها منذ اللحظة الأولى دار لسك النقود وازدادت أهمية هذه الدار خلال عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك الذي قرر حظر ضرب الدراهم الفضية لإقليم

العراق في غير دار ضرب واسط، فأخذت الدراهم تسك فيها بأسماء مدن العراق المختلفة، بل أن هناك دراهم سكت في واسط بأسماء مدن في الشام والأندلس، لتوحيد طراز النقود الفضية والتحكم المركزي في أوزانها، ولدينا تقريبًا في المتاحف والمجموعات العالمية دراهم فضية تغطي الفترة الواقعة بين نشأتها عام ٧٨هـ ونهاية العصر الأموي في عام ١٣٢هـ.



(شكل ١١)

استمرت واسط عاصمة للولاة الأمويين عقب وفاة الحجاج بصورة متقطعة. ازدهرت كعاصمة للسواد باعتمادها على الزراعة بهذا الإقليم.

ولكن مركز واسط تعرض لبعض التراجع مع بداية العصر العباسي وسرعان ما استردت مكانتها مع العناية التي أولاها أبو جعفر المنصور وابنه المهدي بالزراعة في السواد وكسكر. وعندما أخذت عناصر الترك في السيطرة على الخلافة العباسية منذ النصف الثاني من القرن الثالث

الهجري، عادت واسط لواجهة الأحداث كإقطاع لبعض القادة من الأتراك.

ولكن هذا الازدهار لم يدم طويلًا، إذ هجرها سكانها تدريجيا بدءًا من عام ٨٣٤م بسبب هجمات عناصر الزط القادمة من جنوب العراق، وما لبثت أن تعرضت لهجمات الزنج بالبصرة في عام ٨٧١م، ولكنها استعادت ازدهارها تدريجيًّا بدءا من القرن الرابع الهجري، بل وتمكنت من صد جيوش هولاكو بعد ذلك ولكن بتضحيات بشرية كبيرة.

دخلت واسط في حوزة إيلخانات المغول ثم الجلائريين الذين أعادوا تشغيل دار سك النقود بها وجاءت غزوات قبائل التركمان المعروفة بأصحاب الخراف السوداء لتحمل الخراب لواسط الحجاج. ولكن القسم الجديد من المدينة واصل ازدهاره إلى أن سيطر العثمانيون عليها في القرن العاشر الهجري وبعدما تحول مجرى دجلة بعيدا عن واسط، هجرها أهلها وتركوا أطلالها قابعة وسط الصحراء.

مدينة بغداد (١٤٩هـ/ ٧٦٢م):

أُنشأت مدينة بغداد في العصر العباسي على يد الخليفة أبي جعفر المنصور عام ٧٦٢م. بعد قيام الدولة العباسية، أخذ الخلفاء العباسيون يبحثون عن عاصمة جديدة، فاختاروا مكانًا قرب الكوفة سموه هاشمية الكوفة ثم انتقلوا إلى شمالي الأنبار، لهذا فكر أبو جعفر المنصور ببناء

عاصمة، فوقع اختياره على منطقة تقع بين نهري دجلة والفرات عرفت فيما بعد بمدينة بغداد.

سميت بعدد من أسماء منها مدينة السلام والزوراء والمدورة ومدينة المنصور وغيرها. ومن المزايا المهمة لموقع بغداد الجغرافي والاستراتيجي أيضًا وقوعه على منتصف نهر دجلة الذي يمثل الشريان الحيوي لوسائط النقل النهري بين المدن القديمة في شمال العراق وجنوبه. وكذلك فإن موقع بغداد وقربه من حوض نهر ديالي وانتشار القنوات والجداول في هذه المنطقة أدت إلى أن تكون عامرة بريّها ومزارعها وكانت حينها في أوج ازدهارها. ويفهم مما ذكرته بعض المصادر التاريخية أن كمية الخراج التي كانت تجبى من هذه المنطقة تعبر عن كثافة الاستيطان البشري في بغداد وما حولها.

كما تتميز بغداد بتخطيطها الملهم فائق الدقة، ويُقال إنه بعد أن عبر الخليفة المنصور نهر دجلة للبحث عن مكان مناسب لعاصمته الجديدة، نصحه كهنة نسطوريون عاشوا قبل المسلمين في تلك المنطقة بمكان مناخه ملائم للبناء.

يوضح اليعقوبي، أن موقع بغداد التجاري على ضفاف نهر دجلة، بالقرب من الفرات، أعطى المدينة فرصة لتكون نقطة تقاطع كونية، فقد أصبحت مدينة السلام ومحور العالم وعاصمة الإسلام دون منازع وكذلك موطن العلماء الرائدين وعلماء الفلك والشعراء وعلماء الرياضيات

والموسيقيين والمؤرخين ورجال القانون والفلاسفة. وبعد أن وافق الخليفة المنصور على موقع البناء، شرع في التصميم.

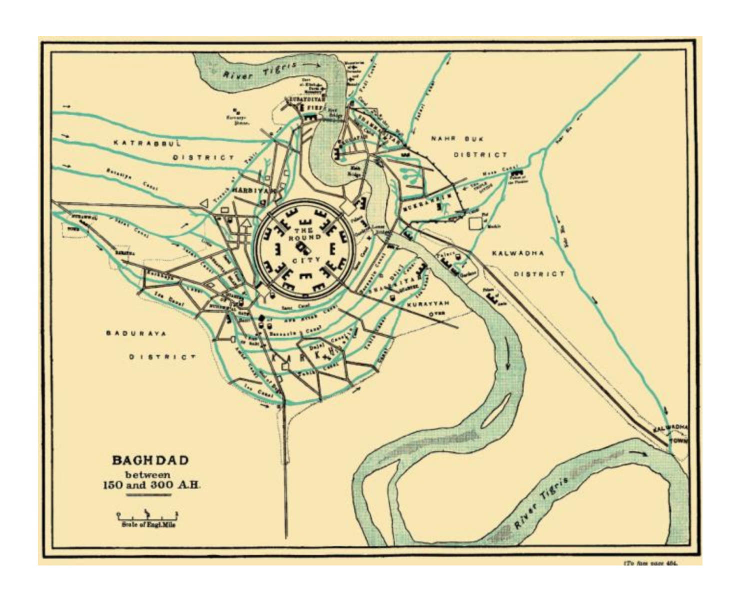
وفقًا لبعض المؤرخين، أدى الخليفة المنصور هذا العمل بنفسه وفرض عليه رقابة صارمة، فجعل العمال يرسمون خطوطًا من الرماد على الأرض لتخطيط مدينته الدائرية وكانت الدوائر المتقنة إجلالًا للدراسات الهندسية لعالم الرياضيات اليوناني (إقليدس) التي درسها الخليفة وأُعجب بها.

بعد ذلك، تجول الخليفة في مخططه الدائري وأعطى موافقته على التصميم وأمر بوضع كرات قطنية منقوعة في سائل نفطي على الدوائر المصنوعة من الرماد وإضرام النار فيها، لتحديد مكان تشييد الجدران الخارجية المدعمة.

الاختيار والتخطيط:

اختار أبو جعفر المنصور موقع بغداد على رقعة مرتفعة من الأرض على الجانب الغربي من نهر دجلة عند مصب نهر الرفيل فيه. وكانت تحيط بهذا الموقع قرى مأهولة السكان مزدهرة؛ أهمها: بغداد البالية القديمة وسونيا الآرامية والخطابية وشرفانية وبناورا، وورثاه، وبراثا، وقطعتا، والوردانية. وكان هناك جسر على دجلة ودير للنصارى. والأرض التي تحيطها سهلة زراعية تسقيها مياه ترع تتفرع من نهر الرفيل الواسع الذي يأخذ من نهر الفرات ويبعد عن بغداد نحو ٣٠ كيلو متر ومن نهر دجيل الذي يأخذ مياهه من دجلة في شماليها. وهذه الأراضي المزروعة كانت

واسعة تنتج محاصيل زراعية وافرة ويقابلها في شرقي دجلة أراض منبسطة أيضًا تروي مزارعها أنهار وترع عدة.

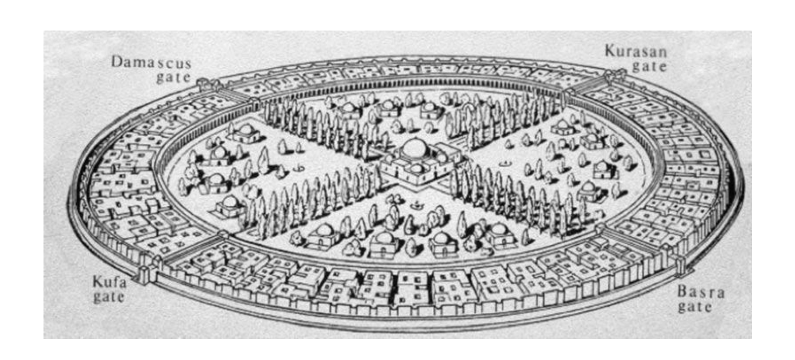


(شكل ١٢)

واشترك أبو جعفر المنصور مع عدد من المهندسين بتخطيط مدينة بغداد وكانت مدورة ويبلغ طول قطرها نحو ٢٦١٥ مترًا وأحيطت بخندق وسورين بينهما ساحة واسعة. والسور الداخلي أعرض سمكًا وأعلى ارتفاعًا وأحكم بناء وتتوزع فيه الأبراج. وجعل لها أربعة مداخل (أبواب) ضخمة سمي كل باب باسم الإقليم الذي يواجهه: باب الشام وباب الكوفة وباب البصرة وباب خراسان. وفوق كل باب قبة وحصّن كل مدخل بباب ضخم من حديد يمكن إقفاله بإحكام. ورسم في داخلها سكك (شوارع أو أزقة) عديدة على كل منها عدد من الطاقات وكل هذه السكك مستقيمة تمتد من السور إلى رحبة واسعة في وسط المدينة المدورة.

يعد بناء مدينة بغداد نقطة تحول حاسمة في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وتخطيط المدن في العالم الإسلامي كله.

ذلك أن تخطيط مدينة بغداد قد اتبعت فيه خطوات من البحث والتدقيق وقام على دراسات عميقة للموقع والتصميم وتوزيع المناطق المختلفة، أسفرت عن نظام هندسي يقوم على عمل حلقات دائرية من الأسوار لكي تحصر المناطق السكنية وغير السكنية بينها وتحيط كلها بساحة دائرية كبيرة تتوسط المدنية ويقوم في مركز الدائرة قصر الخليفة والمسجد الجامع الكبير وكانت الطرق الرئيسية وأبواب المدينة الأربعة تتجه نحو مركز المدينة المدورة.



(شكل ١٣)

أسباب اختيار موقع بغداد:

١- إن البناء قرب نهر دجلة يمكن أن يمتد إلى ضفتي النهر.

٢- وقوعها في منطقة زراعية وفيرة المياه.

٣- وقوعها في وسط العراق.

٤- تقع على طرق المواصلات بين الشرق والغرب.

٥- تقع بين نهري دجلة والفرات وتمتاز بموقع استراتيجي.

٦- حسن مناخها وطيب جوها مقارنة بالكوفة والأنبار.

خطط المنصور مدينة بغداد على شكل دائري، حيث يبعد المركز بأبعاد متساوية عن جميع نقاط السور واستغرق بناء المدينة أربعة أعوام ١٤٥- ١٤٩هـ وقد أحضر لها المنصور المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والمساحة والصناع من الشام والموصل والبصرة والكوفة وكان في كل سور من أسوار المدينة الثلاثة أربعة أبواب حديدية مزدوجة، كل باب عبارة عن بابين باب خارجي وباب داخلي وعدد هذه الأبواب، هي:

١- باب الشام يقع في الشمال الغربي.

٢- باب البصرة يقع في الجنوب الشرقي.

٣- باب خراسان يقع في الشمال الشرقي.

٤- باب الكوفة يقع في الجنوب الغربي.

وقد جلب أبو جعفر المنصور أبواب الحديد من واسط والشام والكوفة وأقيمت الأسواق في بداية الأمر على الطرق الرئيسية في مدينة

بغداد ثم أخرج المنصور الأسواق وأصحاب المهن خارج المدينة إلى منطقة الكرخ وبني لهم مسجدًا جامعًا، ثم اتخذ أبو جعفر المنصور معسكرًا للجيش العباسي في رصافة بغداد لتكون مقرًّا لابنه المهدي وربطها ببغداد عبر ثلاثة جسور عقدت على نهر دجلة.

ذكر المؤرخ الخطيب البغدادي، وكذلك كتابه (تاريخ بغداد)، مصدرين مهمين للمعلومات المتعلقة ببناء المدينة. يحكي الرجل أن العمال استخدموا ١٦٢ ألف حجر لبناء الثلث الأول من حوائط بغداد و١٥٠ ألفًا للثاني و١٤٠ ألفًا لبناء الجزء المتبقي.

ربطت الحجارة ببعضها بحزم من القصب وشيد الحائط الخارجي على ارتفاع ٢٥ مترًا، وفي أعلاه بُنيت أسوار بمنصات وحُفر خندق عميق حول المحيط الخارجي للحائط.

شارك في أعمال البناء عدد هائل من العمال وآلاف المهندسين المعماريين والخبراء القانونيين والمسَّاحين والنجارين والحدادين، إضافة إلى العمال العاديين من مختلف مناطق الإمبراطورية العباسية.

بعد أن أُنجزت أعمال المسح والقياس وحفر الأساسات، أعد العمال عجينة الطين لصنع قوالب القرميد التي طالما كانت مادة البناء الأساسية في سهول بلاد ما بين النهرين بسبب غياب مقالع الحجارة. بُنيت المدينة التي تشبه القلعة حجرًا تلو الآخر وكان الانتهاء منها واحدًا من أعظم

مشروعات الدولة العباسية ويقدر اليعقوبي عدد العمال المشاركين بنحو مئة ألف.

تحتوي المدينة على أربعة أبواب متساوية في البُعد عن بعضها وتمر فيها طُرق تؤدي إلى وسط المدينة. بوابة الكوفة في الجنوب الغربي وبوابة البصرة في الجنوب الشرقي وتؤدي إلى قناة (سارات) المائية التي شكلت جزءًا أساسيًّا من شبكة المياه، إذ تسحب المياه من الفرات إلى دجلة. أما بوابة الشام في الشمال الغربي، فتؤدي إلى طريق الأنبار والصحراء نحو سوريا. وفي الشمال الشرقي، تقع بوابة خراسان التي تؤدي إلى جسر من القوارب في نهر دجلة.

على امتداد فترة طويلة من حياة المدينة، استعمل السكان جسورًا عائمة تتألف من قوارب مربوطة ومثبتة إلى الضفتين واعتُبرت تلك الجسور بصمة خلابة من بصمات بغداد. ولم تشهد المدينة جسورًا ثابتة حتى وصول البريطانيين في القرن العشرين.

على قمة البوابات الأربعة، شيدت نقاط حراسة لتأمين رؤية تتيح السيطرة على المدينة من الداخل وكشف كيلومترات من بساتين النخيل المتشابكة خارجها والسهول الخضراء التي زينت مياه نهر دجلة.

كانت قاعة الاستقبال الضخمة فوق بوابة خراسان المفضلة لدى الخليفة المنصور، فكان يستريح فيها حين يشتد الحر في الظهيرة.

الطرق الأربعة التي توصل إلى وسط المدينة من البوابات الخارجية زُيِّنت بالممرات المقنطرة التي ضمت المتاجر والأسواق وتفرعت من هذه الطرق ممرات تؤدي إلى سلسلة من الساحات والمنازل وكانت المساحة بين الجدار الرئيسي والجدار الداخلي تناسب رغبة الخليفة المنصور في إبقاء قلب المدينة منطقة ملكية.

يتشكل قلب مدينة بغداد من منطقة مسيجة ضخمة يصل قطرها إلى نحو ألفي متر تضم في منتصفها المنطقة الملكية وخُصصت الهوامش الخارجية لقصور أبناء الخليفة ومنازل الموظفين في البلاط والخدم ومطابخ الخليفة وثكنات الخيالة من الحرس، إضافة إلى المكاتب الحكومية الأخرى.

خلا الوسط إلا من أجمل مبنيين في المدينة: الجامع الكبير وقصر البوابة الذهبية للخليفة. ويمثل هذان المبنيان اتحادًا بين السلطة الروحية وسلطة الخليفة. وباستثناء المنصور، لم يكن يُسمح لأحد بامتطاء الحصان داخل المنطقة الملكية.

كان قصر الخليفة المنصور صرحًا مميزًا، إذ امتد على مساحة ٣٣ ألف متر مربع وحملت قمته قبة خضراء ارتفاعها ٤٠ مترًا توفر رؤية شاملة تمتد لعدد من الكيلومترات ووُضع عليها تمثال لخَيَّال يحمل سلاحا في يده. أما جامع منصور الكبير، فكان أول مسجد في بغداد وبلغت مساحته ثمانية آلاف متر مربع.

وشيّد المنصور في وسط الرحبة قصرًا كبيرًا خطط على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٤٠٠ ذراع. وشيّد في طرف القصر إيوانًا فخما تعلوه قبه شاهقة الارتفاع، كُسيت من الخارج باللون الأخضر وكانت تشاهد من مسافات بعيدة. وتم إكساء وتزيين القصر من الداخل بالخشب الصاج تتخلله زخارف ذهبية رائعة، ولذلك كان يسمى بقصر الذهب وكان هذا القصر مقام الخليفة ومقر عمله.

وشيّد بجانب القصر من جهته الشرقية جامعًا واسعًا مربع الشكل، طول كل ضلع من أضلاعه ٢٠٠ ذراع وكان في حينه يعتبر من أكبر جوامع بغداد.

كانت بغداد عند تشييدها من أمنع الحصون العظيمة وتتسم أبنيتها بالفخامة والضخامة ولم يسمح المنصور لأحد من رجال حاشيته بأن يبني فيها، ما عدا المقربين إليه وصاحب الشرطة وبعض الدواوين. أما الحرس، فأسكنهم على طرفي السكك وعند الطاقات. وكانت المدينة خالية من الحدائق والمتنزهات، حتى أن الخلفاء الذين جاءوا بعد المنصور أقاموا في قصور بنوها خارج المدينة المدورة.

وانتقلت العاصمة العباسية في زمن المعتصم عام ٢٢١هـ (٨٣٧م) من بغداد إلى سامراء. ولما عاد الخليفة العباسي المعتمد عام ٢٧٩هـ (٨٩٣م) إلى بغداد، أقام في دار الخلافة بالجانب الشرقي من نهر دجلة.

الأرباط:

الأرباط هي المناطق الواقعة خارج المدينة المدورة والتي أسكن فيها المنصور أتباعه وجيشه، حيث وزع عليهم الأراضي لبناء القصور والبيوت. ففي الأطراف الشرقية من المدينة، وهي منطقة ضيقة من الأرض محصورة بينها وبين دجلة، شيّد أبناء المنصور وبعض أقاربه قصورًا. كما بنى له هناك قصر الخلد ولزوجته قصر أم جعفر. أما في جنوبي المدينة، فقد سكن عدد من رجال الأسرة العباسية وهم من حاشيته والمقربين إليه. وسكن في هذه المنطقة أيضا ابنه مُحَّد المهدي قبل أن تشيد الرصافة، وكذلك بنى في هذه المنطقة مسجدًا جامعًا اسمه (مسجد الشرقية).

أما الأطراف الغربية والشمالية، فقد سكن فيها كبار رجال المسلمين من العرب والإيرانيين وما وراء النهر. وكانت تتوزع الحوانيت في الأرباض التي كان أغلب سكانها من الجند المقاتلين ولم يكن لها أسوار مما ساعد في امتدادها.

منطقة الكرخ:

وبعد أن ازدهرت مدينة المنصور، توافد إليها الناس بأعداد كبيرة من أماكن مختلفة لأغراض اقتصادية وتجارية وهدد تكاثرهم بتبديل الطابع العسكري الإداري الذي اتسمت بها مدينة المنصور. وبذلك أصبحوا، بمرور الأيام، خطرًا على المدينة ونظامها. لذلك أمر المنصور سنة ١٥٧هـ (٧٧٤م) بنقل الأسواق وأهلها إلى الكرخ الواقعة جنوبي نهر الصراة.

وسرعان ما اتسعت الكرخ وازداد عدد سكانها وكثرت أسواقها وأصبحت من أغنى وأكبر مناطق بغداد واستوطنها عدد كبير من العلماء والمفكرين وشيّدت فيها المساجد والقصور وامتدت عمائرها، حتى وصلت إلى نهر عيسى الذي كان يصب في نهر دجلة بالقرب من جسر الشهداء الحالي.

منطقة الرصافة:

وعندما استوعبت مدينة المنصور المدورة وأرباضها حاشية الخليفة وجنده وقدوم ابنه مُحَمَّد المهدي، وكان وليًّا للعهد مع جيشه من الري (طهران حاليًا)، أدرك المنصور أن المدينة المدورة وأرباطها لا تتسع لهم، فأمر ببناء الرصافة في الجانب الشرقي من نهر دجلة مقابل المدينة المدورة وعمل لها سورًا وخندقًا وميدانًا وأجرى لها الماء وشيّد فيها لابنه المهدي قصرًا شامخًا وجامعًا كبيرًا وأقام حولها القصور والبيوت لكبار رجال الدولة العباسية وقادتها وشقت لها الأنهار وعمرت فيها الأسواق. ونمت الرصافة في حينها وازدهرت الحياة الفكرية والاقتصادية والعمرانية، ولكنها لم تصل إلى الحد الذي بلغه الجانب الغربي (الكرخ).

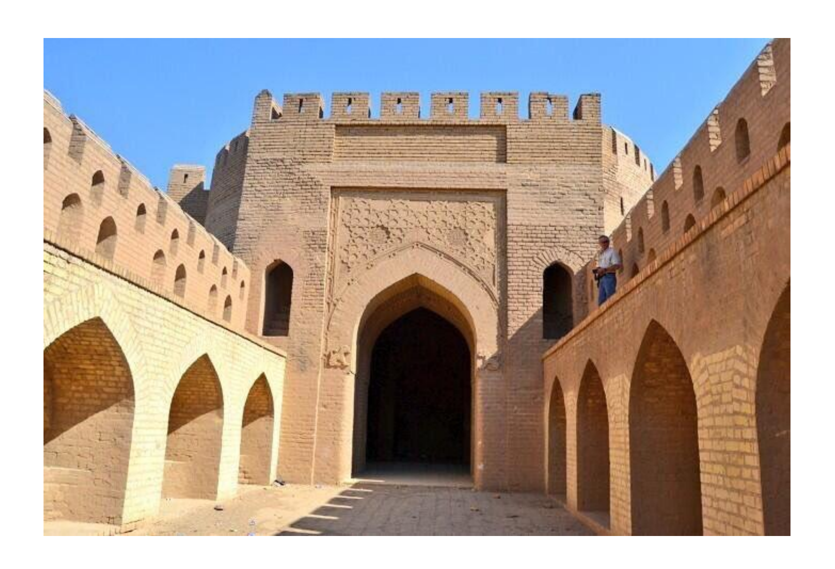
في عام ٧٦٦م، اكتمل بناء المدينة الدائرية وكان ذلك نصرًا كبيرًا، إذ أبدى الجاحظ إعجابه بالمدينة وهندستها المعمارية الدائرية، قائلًا إنه شاهد مدنًا عظيمة في بقاع العالم المختلفة، لكنه لم ير مدينة بهذا الارتفاع وهذه الدوائر المتقنة وهذه الخصائص الفائقة: "إنها بالفعل مدينة الخليفة أبي جعفر المنصور".

وخلاصة القول إن اختيار هذا الموقع للمدينة جاء لاعتبارات مناخية واقتصادية وعسكرية. مما كان له الهدف من إنشائها لتكون عاصمة جديدة للخلافة العباسية.

بناء مدينة بغداد وتصميمها على شكل دائرة ميّزها عن سائر مدن العالم حتى قال عنها اليعقوبي: (ولا نعرف في جميع الأقطار مدينة غيرها). والتي كانت بمثابة تكريم للتعاليم الهندسية لإقليدس الذي كان الخليفة المنصور معجبًا به وبنظرياته. في وسط المدينة كان هناك بناءان من أروع المباني في المدينة، هما المسجد الكبير ومقر إقامة الخليفة وقصر الذهب. وكان يحيط بالقصر والمسجد مساحة واسعة لم يكن مسموحًا إلا للخليفة باستخدامها لركوب الخيل.

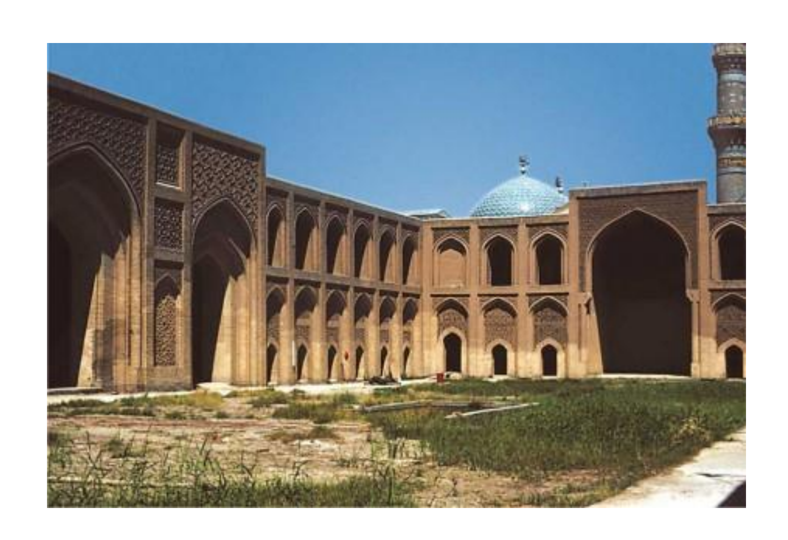
وقد اشتهرت بغداد بهذا الشكل المدور حتى وصفت بالمدينة المدورة. ويعتبر تخطيط مدينة بغداد المدورة ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي، ولاسيما في المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد وقصور خلافية فخمة. وإلى جانب العمارة، وجدت الزخرفة التي وصفت بأنهما لغة الفن الإسلامي وتقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح. ولها خندق أُحيطت به وقد شُقّت له قناة من نهر الكرخايا ليجري فيه الماء وهو أحد التحصينات العسكرية للمدينة. ولها سور خارجي طوله ٢٠ ذراعًا وارتفاعه ٣٥ ذراعًا.

من أهم مميزاتها أسوارها الداخلية والخارجية ومسجدها الكبير الذي يتوسطها وأسواقها التي تحيط بها.



(شكل ١٤)

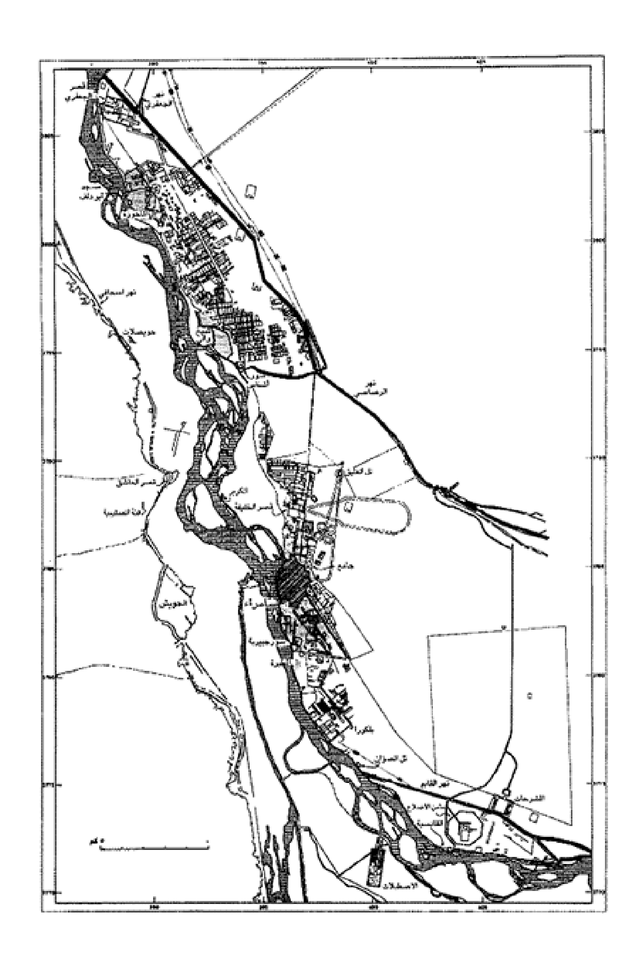
من أشهر الأبنية في المدينة المدورة قصر الذهب وجامع المنصور ومكتبة دار الحكمة. ويعتبر تخطيط مدينة بغداد المدورة ظاهرة جديدة في الفن المعماري الإسلامي ولاسيما في المدن الأخرى التي شيدها العباسيون مثل مدينة سامراء وما حوته من مساجد والمدارس وقصور خلافية فخمة. وإلى جانب العمارة وجدت الزخرفة التي وصفت بأنهما لغة الفن الإسلامي وتقوم على زخرفة المساجد والقصور والقباب بأشكال هندسية أو نباتية جميلة تبعث في النفس الراحة والهدوء والانشراح.



(شكل ١٥)

مدينة سامراء (٢٢١هـ/ ٨٣٥م):

تقع في شمال العراق، أنشأها الخليفة العباسي المعتصم عام ٢٢١هـ/ ٨٣٥م ويعود سبب بنائها إلى أن المعتصم تخوف من الجنود في مدينة بغداد، فأنشأ مدينة سامراء لتكون مركزًا عسكريًّا لجنوده الأتراك الذين استعان بهم لتثبيت حكمه.



(شكل ١٦) خارطة منطقة سامراء

اختار الخليفة المعتصم العباسي موقع سامراء لبناء عاصمة الخلافة الجديدة؛ وذلك للأسباب التالية:

١- تمثل حلقة الوصل بين شمال العراق وجنوبه؛ فهي موقع مهم من الناحية السياسية والاقتصادية.

٢- موقعها المرتفع جعلها في حماية من خطر الفيضان الذي يهدد بغداد سنويًّا.

٣- تحيط بها المياه من جميع الجهات (مياه دجلة من الغرب والنروان من الشرق ونهرا القائم والصم اللذان يتفرعان من دجلة من الجنوب).

أهم ما في سامراء قصر المعتصم المسمى (الجوسق الخاقاني) ويسمى أيضًا (باب العامة)؛ لأن المعتصم كان ينظر في شؤون العامه من الناس فيه.

والقصر أشبه بمدينة صغيرة، حيث تبلغ مساحته ٢١٠,٠٠٠ م٢ وتحتوي غرف القصر على زخارف جصية ومصورات آدمية وحيوانية وزخارف نباتية.

يطل القصر من جهة الغرب على نهر دجلة، مدخله الرئيسي مكون من ثلاثة أواوين ويتوج هذه الأواوين عقود مدببة. أما قاعة العرش في القصر، فهي مربعة الشكل تعلوها قبة.

وليس ببعيد عن دار الخلافة أمر المعتصم ببناء جامع سامراء الكبير الذي شيد على مكان مرتفع وبأبعاد ٢٤٠م × ١٥٦م، وكان بناءه من اللبن والطين ترتفع جدرانه إلى ١١م وبسُمك ٢,٧٠م وهي مدعمة بأبراج نصف أسطوانية ٤٤ برجا. وللجامع ١٥ مدخلًا موزعة على جدرانه وقد أعيد بناؤه في زمن الخليفة المتوكل لأنه ضاق بالمصلين.

اشتهرت هذه المدينة بالمباني العظيمة ومسجدها الشهير صاحب المئذنة الملوية. يعتبر جامع الملوية أو المسجد الجامع في سامراء الذي أنشأه المتوكل على الله أروع المنشآت ذات الأثر في تلك الحقبة من حياة الأمة الإسلامية وتشاهد آثاره إلى اليوم مع مئذنته الملوية شمال غرب مدينة سامراء الحالية وتعتبر أبرز الآثار الباقية من مباني سامراء القديمة وأكبر جامعٍ في العالم الإسلامي.

ومدينة سامراء من أمهات المدن العراقية القديمة وما زالت تزخر بالآثار الإسلامية، وتذكر بتاريخها، حينما كانت مركزًا للحضارة والعلوم والفنون وتقع المدينة على الضفة الشرقية لنهر دجلة وتبعد نحو ١١٨كم٢ إلى الشمال من العاصمة بغداد، بناها الخليفة العباسي المعتصم بالله سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٥م)، فكانت عاصمة الخلافة العباسية وحرف اسمها القديم ليصبح (سر من رأى) العربي، حينما كانت المدينة عامرة ومزدهرة، ثم أمست (ساء من رأى) بعدما تهدمت وتقوضت عمارتها. وفي سنة (٢٤٥هـ/ ٨٥٩م) بنى المتوكل بالله العباسي مدينة المتوكلية أو الجعفرية.

وفي سنة ٢٣٧هـ، شيد المسجد الجامع بسامراء ومئذنته الشهيرة (المئذنة الملوية).

موقع وتاريخ بناء المسجد:

يعد جامع الملوية في سامراء أو الجامع الكبير الجامع الرئيس الثاني بالمدينة، ولقد شيَّد المعتصم الجامع الأول في سنة (٢٢١هـ/ ٨٣٦م)، حيث كان من خطة المعتصم بالله في بناء سامراء أن يبني مسجدًا في كل منطقة سكنية، فعندما أقطع كبير قواده أشناس وأصحابه الموضع المعروف بالكرخ، أمره أن يبني مع المساكن المساجد والأسواق. كما أنشأ مسجدًا جامعًا على شارع الريحة، وهو الشارع الأعظم، واختط الأسواق حوله، كما خط القطائع للقواد والكتاب والناس واختط الأسواق حول المسجد الجامع الكبير، وقد استعمل هذا الجامع الأول لآداء فريضة الصلاة وصلاة الجمعة إلى أيام المتوكل على الله الذي تولى الخلافة سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٦م).

يقع جامع المعتصم في النهاية الشمالية للسوق الرئيسة وليس بعيدًا عن الجوسق الخاقاني. وفي بداية حكم المتوكل، أصبح هذا الجامع القديم صغيرًا جدًّا لا يسع عدد المصلين من الأهالي والجند. ولذلك شيَّد المتوكل جامعًا رئيسًا جديدًا في طرف الحير في موضع واسع خارج المنازل ولا يتصل به شيء من القطائع والأسواق، وقد أتقن الخليفة بناءه ووسعه وأحكم تشييده. يقول اليعقوبي في البلدان: "وبنى المسجد الجامع في موضع

واسع خارج المنازل لا يتصل به شيء من القطائع، والأسواق وأتقنه ووسعه وأحكم بناءه وجعل فيه فوارة ماء لا ينقطع ماؤها وجعل الطرق إليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي إبراهيم بن رياح، في كل صف حوانيت بها أصناف التجارات والصناعات والبياعات، عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد إذا حضر المسجد في الجمع في جيوشه وجموعه وبخيله ورجله. ومن كل صف إلى الذي يليه دروب وسكك فيها قطائع جماعة من عامَّة الناس، فاتَّسعت على الناس المنازل والدور واتسع أهل الأسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والأسواق التي في صفوف المسجد الجامع. وجعلت الأسواق في موضع معتزل وجعل في كل مربعة وناحية سوقًا وبنى المسجد الجامع وانتقل المتوكل إلى قصور هذه المدينة أول يوم من محرم سنة ٢٤٧هـ. فلما جلس، أجاز الناس بالجوائز السنية ووصلهم وأعطى جميع القواد والكتاب ومن تولى عملًا من الأعمال وتكامل له السرور، وقال: الآن علمت أني ملك إذا بنيت لنفسي مدينة سكنتها".

وقال ياقوت الحموي: "وبنى مسجدًا جامعًا فأعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها وحتى ينظر إليها من فراسخ، فجمع الناس فيه وتركوا المسجد الأول". وكان البدء ببناء المسجد الجامع بسامراء في سنة (٢٣٤هـ/ ٨٤٨م) والانتهاء منه في سنة (٢٣٧هـ/ ٨٥٢م).

قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٢٣٤هـ: "وفي هذه السنة: ابتدئ ببناء الجامع بسامراء". ثم قال في حوادث سنة ٢٣٧هـ: "وفيها: كمل بناء

جامع سامراء وقد ابتدئ في بنائه سنة أربع وثلاثين وفرغ منه وصلى فيه المتوكل في رمضان سنة سبع وثلاثين وبلغت النفقة عليه ثلاثمَائة ألف وثمانية آلاف ومائتين واثنى عشر دينارًا وربع وسدس دينار واستعمل فيه آجر النجف وأنقاضه من السقوف والأبواب وغيرها ونقوض حملت من بغداد. وإنَّما هذه النفقة على البنائين والنجَّارين والصناع، وما شاكل ذلك، وحملت القصعة والحجارة التي في الفوارة من باب الحرة في الهاروني عَلَى عجل ومر بها الفيلة الثلاثة التي كانت للمتوكل وأنفق مع ذلك في حمولتها إلى أن دخلت المسجد ألف وخمسمائة دينار، ولولا الفيلة لأنفق عليها ضعف ذلك واستعمل الطوابيق الزجاج التي في المقصورة وهي ألفان وأربعمَائة طابق بألفين وأربعمائة دينار. وأنفق المتوكل علَى الأطواق الستة التي جعلت زيجات لها ألفين وأربعمائة دينار". ويذكر ياقوت الحموي أن مجموع ما أنفق على بنائه بلغ خمسة عشر ألف ألف درهم.

أكبر جامع في العالم:

يضم جامع سامراء الكبير سورًا مستطيلًا مع جدران مدعمة بأبراج، أبعاده ٣٤٠× ١٥٦م من الداخل؛ أي بنسبة تقريبية ٣:٣، وأبعاده بالأقدام تُعادل ٧٨٤× ٥١٢ قدمًا. وعلى هذا، فإن مساحته الكلية تُصبح ٣٨٠٠٠ متر مربع تقريبا ويتسع لحوالي ١٠٠٠٠٠ (مئة ألف مصلي)، وتحمل سقفه الرئيسي حوالي ٤٨٨ عمودًا. وعلى هذه الأساس، فإن الجامع الكبير بسامراء يكون أكبر جامع في العالم.



(شكل ١٧)

مخطط الجامع:

أما مخطط الجامع، فيتألف من أربعة أقسام تحيط بالصحن: الحرم في النهاية الجنوبية وثلاثة أقسام أخرى حول الجهات الثلاث الأخرى، لم يكن في المستطاع إعادة تنظيم المخطط بصورة أكيدة حتى تنقيبات (هرزفيلد) الأثري العالمي الذي أجراها في موقع العمل عام ١٩١٠م ما عدا عدد أروقة الحرم (بيت الصلاة) بسبب اقتلاع أعمدة السقف ودعاماته التي أُزيلت منذ فترة طويلة للانتفاع من موادها، وهناك النوافذ في القسم العلوي لحائط القبلة وهي (٢٤) نافذة في مستوى رائع من الإتقان المعماري، وتوجد في وسط صحن الجامع بقايا نافورة كبيرة.

الوصف المعماري للمسجد الجامع:

وجامع المتوكل على الله مستطيل الشكل، تواجه أضلاعه الأربعة الجهات الأربع تقريبًا، ويبلغ طول ضلعه من الشمال إلى الجنوب

(٢٤٨,٧٠ مترا) من الخارج بدون الزيادة ومن الشرق إلى الغرب (١٦٥,٨٠ مترًا) من الخارج أيضًا. أما من الداخل، فطوله (٢٣٨,٦٠ مترًا) وعرضه (١٥٥,٦٠ مترا). ويتألَّف هذا الجامع من بيت للصلاة ومجنبتين ومؤخرة تحيط بصحن مستطيل وكان في الصحن نافورة (حوض للماء) ذات شكل دائري تتكون من قطعة واحدة من حجر الجرانيت.

يتكون بيت الصلاة في هذا الجامع من تسعة أساكيب وخمسة وعشرين بلاطة متساوية في سعتها عدا بلاطة المحراب؛ فهي أوسع من غيرها ويبلغ عرضها (٤,٢٠ متر)، ويطل المصلَّى على الصحن بتسع عشرة بائكة. أمَّا عمق المصلى فيبلغ (٦٢م) وتتألف كل من المجنبتين الشرقية والغربية من أربعة أروقة تشتمل كل منها على (٢٣) بلاطة؛ أي تطل كل منها على الصحن بثلاث وعشرين بائكة، وتتكون مؤخرة الجامع من ثلاثة أساكيب بخمس وعشرين بلاطة وبوائكها بعدد بوائك وبلاطات المصلى والبلاطة الوسطى بعرض بلاطة المحراب أيضًا.

بناء جامع الملوية متين وضخم جدا، خصوصا جدرانه ومأذنته؛ حيث قامت عوامل التخريب وظلت شاخصة على الرغم مما أصابها من بعض التلف. شيد الجامع بطابوق وجص وفرشت أرضيته كلها بطابوق مربع صف بدقة وإتقان وجدران الجامع ضخمة جدا متميزة بارتفاعها الذي يبلغ أحد عشر مترًا وسُمكها الذي يبلغ (٢,٧٠ م) دون الأبراج، والجدران مدعمة بأبراج نصف أسطوانية تجلس على قواعد مستطيلة عدا أبراج الأركان؛ فهي شبه مستديرة يبلغ قطرها (٥ أمتار).

ومجموع أبراج الجامع (٤٤) برجًا ومثلها للجدار الغربي. أما الشمالي، فتدعمه ثمانية أبراج ومثلها الجنوبي ويُمكن الدخول إلى الجامع عن طريق (١٥) مدخلًا؛ ثلاثة منها في الجدار الشمالي، واثنان في جدار القبلة، وخمسة في كل من الجدارين الشرقي والغربي، وترفع عقود هذه المداخل ستة أمتار على مستوى أرض الجامع وتتوجها نوافذ ذات عقود مدببة.

وأروع ما في جدار القبلة للجامع صف من نوافذ صغيرة عددها أربع وعشرين، وتنفتح كل واحدة منها على إحدى بلاطات بيت الصلاة عدا بلاطة المحراب فهي بدون نافذة، ومما لا ريب فيه أن وظيفة هذه النوافذ؛ إدخال النور والهواء إلى المصلى وجعلت على ارتفاع معين أقرب إلى السقف من أرضية الجامع. وهذه النوافذ مستطيلة الشكل من الخارج منحدرة إلى الداخل وذات أقواس مفصصة ترتكز أطرافه على أعمدة آجرية شبه أسطوانية مندمجة أطرافها، وهذه التشكيلة تزيد في جمال جدار القبلة الذي يتوسطه محراب ضخم ذو منية مجوفة مزدوجة العقود وتستند أطراف عقوده على أعمدة رخامية أسطوانية رشيقة.

ولم تقتصر تشكيلات الزينة والتحلية على جدار القبلة والمصلى فحسب، بل امتدت إلى أجزاء أخرى من هذا الجامع الكبير؛ فقد زينت هامات الجدران من الخارج بسلسلة من دوائر مقعرة داخل شكل رباعي وتظهر هذه المقعرات وكأنها أكاليل يحيط بالجامع وعددها ست بين كل برجين وقطرها مترًا واحدًا.

وقد وصف عالم الآثار الشهير (روس) هذا الجامع في عام ١٨٤٤م بأنه بناء عظيم من الآجر على شكل مستطيل أبعاده ٢٦٤× ١٥٩ خطوة، مع برج من كل زاوية، ويوجد بينهما أحد عشر برجًا صغيرًا من الجوانب الطويلة وثمانية أبراج في الجوانب الصغيرة، وقد تهدمت الأروقة الداخلية وصف الأبنية الخارجي تمامًا كما نقل الآجر منها والبناء المتبقي – ما عدا العقود فوق المداخل التي تساقطت– هو الآن في حالة حفظ جيدة.

ويقول العالم الأثري (جونس) الذي زار الجامع في عام ١٨٤٦م: إن كلا من الملوية والمدرسة قد شيدا من آجر جيد وبإتقان كبير، يبلغ طول المدرسة ٨١٠ أقدام وعرضها ٤٩٠ قدمًا، ولها ١٢ دعامة بين أبراج الزاوية في الجهة الشمالية الغربية والجهة الجنوبية الشرقية، و١٠ دعامات في الجهة الشمالية الشرقية والجهة الجنوبية الغربية، والمدخل الرئيس يقابل القبلة. ويُلاحظ في الحال أصله المحمدي ويبدو أن هناك نافورة في وسط الفناء ويبلغ ارتفاع الجدران في الوقت الحاضر حوالي ٣ أقدام، وفي الجهة الجنوبية الغربية يمكن أن تميز بقية الشبابيك المعقودة.

ويبعد هذا الجامع بضع مئات الأمتار عن شمال مدينة سامراء الحديثة وهو منعزل تماما، ولقد فقد الكثير من أعمدته ولم يبق منه سوى المنارة وسور مستطيل من الطابوق في حالة جيدة.

المئذنة الملوية:

يتميز الجامع بمئذنته الملوية وهي أقدم وأهم مآذن العراق الأثرية القائمة. ومئذنة جامع المتوكل فريدة بين مآذن العالم الإسلامي وتقع خارج الجامع بمسافة (٢٧,٢٠م) عن الجدار الشمالي للجامع وتقع على الخط المحوري لمحراب الجامع. بدن المئذنة حلزوني يجلس على مصطبة مربعة الشكل ذات طبقتين طول السفلى منها (٣١,٨٠) متراً والعليا (٣٠,٥م) وترتفع هذه المصطبة (٤,٢٠م) من مستوى وجه الأرض وتزيّنها حنايا ذات عقود مدبَّبة عددها تسع في كلِّ ضلع عدا الوجه الجنوبي فتشغله سبع فقط؛ إذ تُغطِّي جزء منه نهاية السلم المنحدر الذي يُؤَدِّي إلى القاعدة.

وبدن المئذنة أسطواني الشكل يدور حوله سلم حلزوني ويدور باتجاه معاكس لاتجاه عقارب الساعة وتخترق في قسمها العلوي الأسطوانة الأخيرة في البدن وينتهي بقمَّة المئذنة التي بلغ قطرها ثلاثة أمتار. وأروع ما في القسم العلوي من هذه المئذنة فص من المشاكي المحرابية وعددها ثمان، تتوج البدن وترتكز عقودها على أعمدة آجرية شبه أسطوانية مندمجة، تتخذ المئذنة الملوية الشكل الحلزوني وتتكون من خمس طبقات حلزونية تتناقص في سعتها مع الارتفاع ويمكن الصعود إليها عبر درج حلزوني يحيط بها ويصل عرضه إلى نحو مترين باتجاه معاكس لاتجاه عقارب الساعة ويبلغ عدد درجاته قرابة ٣٩٩ درجة ويبلغ ارتفاع المئذنة قرابة الخمسين متراً عن

سطح الأرض ويقع في أعلاها بناء دائري الشكل له سبع نوافذ يُطلق عليه اسم الجأون، وكان المؤذن يعتليه في السابق لرفع الأذان منه.

تظل المئذنة الملوية فريدة في طرازها بين مآذن جوامع العالم الأثرية والحديثة. وعلى الرغم من محاولات عديدة في نسبة شكلها إلى حضارات سابقة، فإن تلك المحاولات لم تكن موفقة والحقيقة أن تصميمها ابتكار إسلامي عربي أصيل.

وتعتبر المئذنة الملوية من أغرب المنارات التي أُقيمت في العراق ويعتقد المؤرخون أن سبب بناء الملوية بمثل هذا الارتفاع الكبير لكي يسمع صوت المؤذنين بسهولة، وحتى يُمكن للمنارة أن تُرى من مسافات بعيدة.



(شكل ١٨)

ويضم جامع المتوكل على الله عناصر معمارية أخرى جديدة، منها الأقواس المفصصة والمقعرات والحنايا المحرابية التي أبدعها المعمار العربي المسلم وحقق فيها نجاحات مع استخداماتها.

ويعد المسجد الجامع مع المئذنة الملوية من الآثار التاريخية ومن أبرز معالم عهد الخلافة العباسية في مدينة سامراء؛ حيث تشاهد آثاره إلى الآن شاخصة وهي تقاوم كل عوامل التخريب الطبيعية على مر القرون. كما يظل جامع سامراء الكبير واحدًا من الآثار المهمة في العالمين العربي والإسلامي الذي يمثل حضارات الإنسان العراقي في الزمن القديم الذي كان مسهمًا فاعلًا في بناء وازدهار حضارات العالم. وقد اشتهرت بجمالها وأطلق عليها "سر من رآها"، وأصبحت أهم المدن في العصر العباسي.

مدينة المهدية (٣٠٠هـ/ ٩١٥م):

تعتبر مدينة المهدية– تونس، ثاني عواصم الخلافة الفاطمية بإفريقية. لم يعرف عنها شيء قبل العهد الفاطمي رغم تنوع الآثار الموجودة بالجهة من ناحية البر والبحر والتي تشير إلى وجود تجمع سكني بالمنطقة منذ الفترة البونية.

ووقع الاختيار عليها؛ لما تتمتع به من موقع جغرافي مميز، فكانت بفضل إحاطة البحر بها من ثلاث جهات حصنًا منيعًا متصديا للغزوات الخارجية، وأصبحت فيما بعد مركزًا تجاريًّا في غاية الأهمية على مستوى الحوض المتوسط. ويعتبر تاريخ المدينة مجهولًا طيلة الفترة السابقة للدولة

الفاطمية بالرغم من قيام عدد من الآثار الموجودة فيها والتي تشير إلى أنها مأهولة بالسكان منذ الفترة البونية.

وقد امتدت الحقبة التاريخية التي ميزت المدينة منذ تأسيس الفاطميين لها وجعلها عاصمة للخلافة الفاطمية سنة ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م، حيث اتخذها الخليفة الأول عبيد الله الفاطمي عاصمة لموقعها الجغرافي المميز؛ فهي تطل على البحر من ثلاث جهات جعلت من المدينة حصنًا منيعًا قادرًا على التصدي للغزوات الخارجية وجعلتها مركزًا تجاريًّا هامًّا بحوض البحر المتوسط.



(شكل ١٩)

ذكر المقريزي أن المهدية كانت عبارة عن شبه جزيرة محاطة بالبحر من معظم نواحيها. وأن الخليفة المهدي أشرف بنفسه على بنائها وأنشأ على ساحلها دارًا كبيرة لصناعة السفن نُقرت في الجبل وتسعمائة سفينة حربية كبيرة، إلى جانب صهاريج المياه ومخازن الأقوات والمسجد والقصر

والدواوين ثم الأسوار المحكّمة ذات الأبواب الضخمة التي أحاطت بها. ويقال إن المهدي لمّا فرغ من بنائها، قال: "آمنت اليوم على الفاطميات" وهذا دليل على حصانتها. وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ بناء المهدية، فمنهم من قال عام ٣٠٠ هـ، أي بعد انتهاء المهدي من إخماد الثورات التي قامت ضده. أما ابن الأثير، فيرى أنها بُنيت سنة ٣٠٥ هـ وأن المهدي انتقل إليها سنة ٣٠٨هـ وأعطاها اسم المهدية نسبة إلى لقبه. ولما كانت المهدية مدينة خاصة، فإن المهدي ابتنى لسائر الناس مدينة أخرى بالقرب منها تسمى زويلة وهي إحدى المهديتين وجعل الأسواق والفنادق فيها.

و يقول المؤرخ التونسي حسن حسني عبد الوهاب، عن المهدية، في كتابه: "خلاصة تاريخ تونس": المهدية مدينة جليل قدرها، شهيرة في قواعد الإسلام ذكرها وهي من بناء عبيد الله المهدي أول خلفاء العبيديين وإليه تنتسب، وكان ابتداء بنائه لها سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م وجعلها دار مملكته. وأول ما ابتنى منها سورها الغربي الذي فيه أبوابها ثم أمر بحفر مرسى المدينة وكان حجرًا صلدًا، فنقره نقرًا وجعله حصنًا لمراكبه الحربية وأقام على فم هذا المرسى سلسلة من حديد رفع أحد طرفيها عند دخول السفن ثم تعاد كما كانت؛ تحصينًا للمرسى من دخول مراكب الروم وابتنى "دار الصناعة" وهي من عجائب الدنيا ثم شرع في حفر الأهراء بداخل المدينة وبنى الجباب والمصانع واختزن الأهراء بالطعام وملأ الجباب (جمع جُب) بالماء. وكان اتساع المهدية في أول بنائها من الجوف إلى القبلة قدر غلوة سهم، فاستصغرها المهدي عند ذلك، فردم من البحر مقدارها وأدخله في المدينة فاتسعت، والجامع الأعظم الآن والدار المعروفة في القديم

بدار المحاسبات. "وقد أمر المهدي ببناء مدينة أخرى بجوار مدينة المهدية وجعل بين المدينتين ميدانًا فسيحًا وأحاطها بسور وأبواب وأقام عليها الحراس وسماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر وأسكنها أرباب الدكاكين بحرمهم وأهاليهم.

وجعل بينهما قدر غلوة سهم وجعل الأسواق والفنادق فيها وأدار بها خندقًا متسعة تجتمع بها الأمطار، فكانت كالربض لمدينة المهدية وكان بخارجها الحمى المعروفة بحمى زويلة وكله جنات وبساتين بسائر الثمار وأنواع الفاكهة".

وأقام بها عبيد الله المهدي ثم عمَّر بها الدكاكين ورتَّب فيها أرباب المهن وجعل لكل طبقة سوقًا خاصة بها. فنقلوا إليها أموالهم وكان لهذه المدينة أرباض كثيرة آهلة عامرة. منها ربض زويلة وكان أقرب أرباض المدينة إلى قصره وفيه الأسواق والحمامات. وربض الحمى وقد أقام فيه أجناد أفريقيا من العرب والبربر، وربض قفصة. ويظهر أن المهدي حذا بذلك حذو أبي جعفر المنصور حين نقل أسواق حاضرة خلافته إلى الكرخ.

الدوافع التي بنيت من أجلها مدينة المهدية:

بنى الفاطميون مدينة المهدية بداعي الإستجابة إلى حاجة ملحّة حصل الشعور بها منذ أواخر الدولة السابقة، وهي دولة الأغالبة؛ فقد كان الأمراء في آخر عهد هذه الدّولة قد غادروا القيروان فعلا وانتقلوا إلى مدينة تونس. وكان عبيد الله المهدي، إمامُ الشيعة الإسماعيلية، في أثناء

ارتياده ساحل البلاد انطلاقًا من مدينة تونس– التي لم تصادف هوى في نفسه ووصولًا إلى الموقع الذي اختاره لإقامة عاصمته الجديدة، يخضع للدوافع نفسها، بالإضافة إلى اهتمامه بأمور أخرى لها علاقة بضمان الأمن.

وقد نسب إليه في زمن لاحق التنبّؤ بحدوث ثورة أبي يزيد النكاري وزحفته العارمة الهوجاء التي لم تحطمها إلا أسوار المهدية وحصونها. وقد حمل ذلك أنصار الإمام على اعتبار هذه النبوءة المعجزة سببًا في تأسيس المدينة، إلا أن الدوافع والشواغل الحقيقية التي كانت تسيطر على فكر الإمام كانت أقرب من كل ذلك وأوكد.

حرص مؤسّس الدّولة على تجسيم قيام نظام سياسي جديد ببعث عاصمة جديدة للحكم وحمايتها، وذلك بإقامة سدود منيعة تتميز بما ينبغي من بُعد الشقة ومن حصانة الموقع؛ لتكون حاجزًا دون عاصفة محتملة تقوم بها جموع أهل السنّة الذين يقفون ضدّ الشيعة بكلّ ما أوتوا من ثبات وإصرار. وهذه الزوبعة لا يمكن أن تنطلق أعاصيرها وموجاتها إلاّ من محور مركزيّ هو القيروان. أما خطر الخوارج، فقد كان أبعد من أن يُتوقع آنذاك.

اختيار الموقع:

وكان الموقع الذي اختير يتميّز بضمانات أمنية مثالية بالنسبة إلى دولة تملك أسطولًا بحريًّا قويًّا ورثته عن دولة الأغالبة. فقد أُقيمت المدينة فوق نتوء صخري داخل في البحر بنحو ١٤٠٠ متر لا يمكن الجواز إليه

إلاّ عبر ممرّ ضيّق، (المقدسي: أحسن التقاسيم)، وهو ما يجعل منالها عن طريق البرّ أمرًا مستحيلًا. وما يفسّر اختيار عبيد الله المهدي الذي فشل في تحقيق مطامحه في الدخول إلى مصر، فلم يسعه إلاّ تأمين قواعده بأفريقيّة إلى أجل غير مسمّى.

وتوجد علامات عدّة من النقوش والكتابات ومن الآثار تشير إلى أنّ تعميرًا قديمًا بونيّا ورومانيّا قد سبق الفاطميّين في الارتكاز بتلك الجهة. وقد احتفظت النصوص العربيّة بذكرى "جُمّة" التي يذهب الباحثون إلى أنّها مدينة "قُمّي". لكنّ ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أنّ شبه الجزيرة الداخلة في البحر "كانت محلاّ لتجمّع عمراني قبل القرن ١٠م".

كانت مدينة المهدية مخبأ وملجأ. فحُصنت وأحيطت بسور ذي كثافة غير معهودة (٨ أمتار و٣٠ سنتيمترا) مساير لساحل لا تزال آثاره ماثلة للعيان في جزء طويل منه بناحية الشمال. وكان يسدّ مدخل البرزخ المؤدّي إلى المدينة من جهة البرّ سدّ طوله ١٧٥ مترًا مسبوق على مسافة ٤٠ مترًا بسور تمهيدي متقدّم. وكان الجواز إلى المدينة من باب حديديّ تزينه صور أسود من النحاس الأصفر عبر رواق معقود السقف طوله ٣٣ مترًا وعرضه (٥,١٠ أمتار). ولم يبق اليوم قائمًا سوى هذا الرواق المسمّى "السقيفة الكحلاء". وكانت المدينة تحتوي على قصر خاص بالإمام المهدي وقصر آخر لابنه ووليّ عهده القائم وعلى مبان إداريّة ومخازن تحت الأرض لادّخار الحبوب وعلى آبار ومواجل للمياه.

وكان بها مسجد جامع وقد نخره البحر فيما بعد وأبلاه؛ بسبب تلاطم مياه البحر به وشوهته البناءات الطفيلية التي علقت به عبر السنين، فأصبح خرابًا. وقد رُمّم هذا الجامع مؤخّرًا– خلال سنوات الستين– بإشراف الباحث ليزين، كما جُهّزت العاصمة الجديدة بدار صناعة للسفن وأقيم بالناحية الجنوبيّة منها ميناء داخلي محصّن ومحميّ. وهو ليس بالضرورة، كما ذهب إليه بعضهم، بناء قديمًا أعيد استعماله، لكنّه مستوحى دون شك من مثال ميناء بوني محتفر ومحصّن.

تعرضت مدينة المهدية للدمار والتخريب وانتشرت الفوضى بعد خروجِ المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م وتأسيس مدينة القاهرة حكم الصنهاجيين إفريقية ولكنهم تألبوا فيما بعد على الفاطميين، فانتقم هؤلاء منهم وأرسلوا إليهم القبائل الهلالية التي ساهمت في نشر قدر كبير من الفوضى. ومنذ ذلك التاريخ توالت الحملات ضد المدينة من الأساطيل الأوروبية وخاصة الإسبانية حيث تراوحت حال المدينة بين السقوط والاسترداد وقد انتهى كل ذلك بتدميرها وحرقها من طرف الإسبان في ١٥٥٥م. وقد فقدت بذلك أهميتها كعاصمة إلى أن قامت العناصر التركية بإعادة إعمارها من جديد حيث أعطتها طابعًا جديدًا تحولت بموجبه إلى مدينة نشطة يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون وإليهود ويرتكز اقتصادها على قطاعات متعدّدة.

وقد خضع تطور شكل المدينة وعمرانها بطبيعة لما عاشته ومرت به من أطوار وتقلّبات عبر تاريخها. فقد آل الأمر بربض زويلة إلى الاندثار،

فيما برز اسم قرية هيبون شمال المدينة. ثمّ أخذت ملامح المدينة تتغيّر تماما ابتداء من القرن السادس عشر بسبب تأثير العنصر التركي وهو جند الحاميات العسكريّة الجديدة بالمدينة. وقد أضيف إلى هذا العنصر، انطلاقا من سنة ١٦٠٩م (١٠١٨م)، عنصر الأندلسيّين المهاجرين من إسبانيا.

وفي فترة الحماية الفرنسية للبلاد التونسية، ساهمت المهدية في الحركة الوطنية التونسية والكفاح وأنجبت ثلة من المناضلين وشاركت في فترة الاستقلال في بناء تونس الحديثة وعرفت فيما بعد نقلة نوعية على جميع المستويات جعلت من المدينة قبلة الزوار من الداخل والخارج وجعلتها من أجمل مدن المتوسط.

وكذلك لإقامة ميناء كبير يربط المهدية بصقلية الإيطالية التي كانت خاضعة لحكمه منذ عصر الأغالبة الذي حكموا ما تسمى اليوم تونس.

وألحقت صقلية بافريقية على يد القاضي أسد بن الفرات الذي غزاها وأخضعها لملك بني الأغلب في القيروان وهي التي خرجت عن السيطرة منذ أن حررها الرومان من القرطاجيين في حقبة ما قبل ميلاد المسيح. وأنجبت صقلية للفاطميين جوهر الصقلي القائد الذي سيطر على مصر وبنى القاهرة وجهزها للمعز لدين الله الفاطمي ليتخذها عاصمة له بدلًا عن المهدية وصبرة المنصورية بالقيروان (التونسيتين) وذلك رغبة في الاقتراب أكثر من عاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد للسيطرة عليها وإنهاء حكام العباسيين، وهو ما لم يحدث.

معالم المدينة:

عرفت المهدية بأسوارها الشامخة المحصنة في وجه الغزاة باعتبارها مدينة ساحلية، وأيضًا بأبوابها وجامعها الكبير في وسط المدينة وبأسواقها على غرار جميع المدن العربية الإسلامية. كما عرفت بما تسمى «السقيفة الكحلاء» وهي إحدى مداخل المدينة التي تطغى عليها الظلمة. ومن هنا جاءت تسمية «الكحلاء» أي السوداء باللهجة العامية التونسية، وهي مزار سياحي مهم وتسمى أيضًا (باب زويلة).

ومن بين معالم المهدية أيضًا قصر القائم بأمر الله الذي بناه عبيد الله المهدي في أوائل القرن العاشر لابنه وخليفته في الحكم القائم بأمر الله، وقد عاد أمراء الصنهاجيين إلى العيش في هذا القصر بعد خراب صبرة المنصورية بالقيروان على يد الهلاليين. وقام الأسبان لاحقا بهدم هذا القصر مثلما فعلوا لعدد من المعالم التاريخية في البلاد التونسية تحدوهم رغبة في طمس كل ما يمت للحضارتين العربية والإسلامية بصلة.



(شكل ٢٠)

ويبقى الجامع الكبير أهم معالم المهدية التي لا تزال قائمة منذ القرون الإسلامية الأولى إلى اليوم، فقد بني هذا الجامع في عهد عبيد الله المهدي الخليفة الأول الفاطمي، مؤسس الدولة الفاطمية، الذي حكم تونس وأسس مدينة المهدية في عام ٣٠٣ هـ وجعلها عاصمة لدولته حتى عام ٣٦٠هـ/٩٧٠م، حيث انتقلت العاصمة إلى القاهرة وفيها أنشأ الجامع الكبير الذي عرفت به. وجاء شكل الجامع فريدًا من نوعه؛ فهو أشبه بالقلعة وجداره القِبلي يستند إلى السور البحري للمدينة.

شُيِّد جامع المهدية الكبير على نتوء صخري يطل على البحر. ونظرًا للموقع الاستراتيجي للمدينة التي تقع على البحر المتوسط، فقد ظلت عبر التاريخ عرضة للغزاة الأوروبيين ومسرحًا لصراعات الحكام والدول الإسلامية المتعاقبة، مما انعكس على الجامع الذي شهد عمليات هدم وإعادة بناء منذ تأسيسه إلى عصرنا الحاضر وقد تسببت الأمواج التي كانت تلطمه بشدة في تصدع محرابه القديم عدة مرات ما كان يستدعي ترميمه باستمرار. ورغم ذلك، فقد حافظ هذا المسجد على مخططه الذي أنشئ به وطابعه المعماري الخاص ومساحته الكبيرة التي شيد عليها، ولا يزال مدخله الحجري الأصلي الذي أنشئ به قائما لم يتغير ويتألف من قوس بارز إلى الأمام مستندًا على دعامتين وصُممت واجهة المدخل الخارجية بطابقَين من الكُوّات ذات الأقواس البارز تفصل بينها زخارف ناتئة، وفي الجزء السفلي أتت الكُوات مسطحة بينما اتخذت شكلا نصف أسطواني في الجزء العلوي، ويتضح في هذا المدخل التأثر بالعمارة الرومانية القديمة التي اشتهرت بأقواس النصر الكبيرة التي تبنى في مداخل المدن

والقصور؛ ما يعني أن الفنان المسلم كان قادرًا على استيعاب فنون العمارة التي سبقته وإدماجها في عمارته وصبغها بطابعه الخاص.

على زاويتي واجهة المدخل، يوجد برجان استخدما كخزانين للماء ويعتقد أنهما كانا يستخدمان للأذان يرتقي لهما المؤذن عبر سلم مستقل ويقف على أحدهما ثم يرفع الأذان فتسمعه المدينة كلها، لأن الفاطميين في أول عهدهم لم يكونوا يضعون مآذن في المساجد التي يشيدونها وقد حافظ مسجد المهدية على هذا الطابع، ولا يزال إلى اليوم دون مئذنة.

لا يحتوي هذا الجامع على صومعة، بل على أربعة صهاريج ماء ضخمة مختلفة الأحجام بلغ ارتفاعها ٦٠,١٠ من الأمتار، وهو ما يفسّر افتقار مدينة المهديّة القديمة إلى الماء وحاجتها الأكيدة إليه نظرا لامتلاكها منفذًا أرضيًا وحيدًا يسمح لها بالتّزود بالماء والحاجات الأساسية، وهي مدينة عانت من الحصار والهجومات البحرية والبرية الداخلية والخارجية أكثر من ستين عاما وهو ما يُقارب عمر الدولة الفاطمية بالبلاد التونسية قبل انتقالها واستقرارها النهائي بمصر.

ومن أبرز عناصره المعمارية:

المحراب: حيث تمّ اكتشاف ملامح أو بقايا المحراب الفاطمي القديم الذي يتألّف من حنية نصف دائرية باتّساع مترين وبعمق ١،١٠ متر، وقد زخرفت بتسع حنايا صغيرة تميّزت بالاستطالة. وهذا المحراب المنقوش على الحجر بلغ قطر قبّته ٤٥،٥ مترا.

المنبر: يعتبر من روائع الفن الإسلامي البديع، فاستعملت فيه النقوش والزخارف الهندسيّة والنباتية، يحتوي على أحد عشر درجًا، ارتفاع الواحد اثنان وعشرون سنتيمترا، وكذلك على أربعة أعمدة خشبيّة مخروطة وأسفله. إضافة إلى عشرات القطع المنقوشة بأشكال هندسية دقيقة الصنع. أما القبة الوحيدة هي قبة المحراب النصف دائرية.

وقد شهد الجامع الكبير منذ إنشائه عمليات إضافة وتوسعة متتابعة وصولا إلى أواخر القرن الثامن عشر (١٢١١هـ/ ١٧٩٤م)؛ حيث تمّ تجديد بيت الصلاة بطريقة جعلتها تفقد هيئتها الأصلية، وقع تخصيص هذا الجامع في الفترة العثمانية للمذهب المالكي.

يرسم المعلم هيئة مستطيل يمتد بين القبلة والجوف، يمكن تقسيمه إلى وحدتين رئيسيتين:

- **بيت الصّلاة:** تحتلّ القسم القبلي وتمتد على مساحة مستطيلة بين الشرق والغرب تحدّها أروقة جانبية ويتقدمها رواق البهو.

- صحن مركزي يتقدم بيت الصلاة، يرسم هيئة مستطيل يمتد بين الشرق والغرب تساير ضلعه الشرقي، الغربي والجوفي أروقة طولية.

- **الواجهة الجوفية الخارجية:** واجهة معلمية تمتد بين الشرق والغرب، ترتفع بأطرافها خزانات مياه.

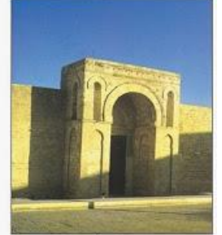
هذا وقد مر تخطيط المسجد الجامع بثلاث مراحل على الأقل ارتبطت آخرها بالتوسعة التي شهدها المعلم مع نهاية القرن الثامن عشر في فترة حكم يوسف صاحب الطابع، وقد تميز تخطيطه انطلاقا من تلك الفترة بوجود بيت صلاة طولية الشكل تمتد على تسع بلاطات طولية وسبع بلاطات عرضية وهي محاطة من ناحيتي الشرق والغرب بمجنّبتين ويتقدّم ضلعها الجوفي صحن أمامي، وهو ما جعل هذا التخطيط يستجيب للملامح الكبرى لعمارة المساجد العثمانية. على مستوى عناصر الارتكاز، أقيم بيت الصلاة على توازي مجموعة من البوائك التي ترتكز على عدد من الأساطين أغلبها مجلوب من العمائر العتيقة. وبالتوازي مع ذلك، وجدت أساطين متجانسة من الرخام الأبيض وهي تمتدّ على الأرجح في المواضع التي تمّت إضافتها إلى بيت الصلاة خلال أعمال التوسعة الأخيرة.

ومن معالمها أيضا أسواقها التقليدية ومدينتها القديمة التي لا تختلف في تخطيطها عن سائر المدن العربية الإسلامية.

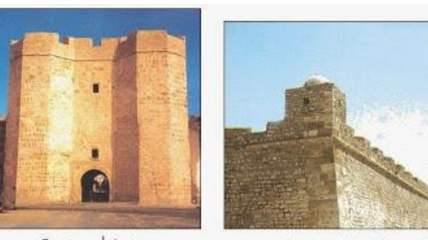
ويشار إلى أن العثمانيين أقاموا على أنقاض قصر عبيد الله المهدي حامية لجيشهم الإنكشاري وغيروا الكثير من حيث الشكل لهذا المعلم التاريخي. فتحول هذا القصر إلى برج أو حصن غايته دفاعية، خاصة وأن الصراع العثماني الأسباني على النفوذ في البحر الأبيض المتوسط كان أكثر شراسة من صراعات قرطاج مع الإغريق ثم مع الرومان في نهاية عهدها.

وتتميز المهدية أيضا بمينائها القديم الذي بناه الفاطميون وبقيت بعض آثاره إلى اليوم شاهدة على تميز في الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أنه عرف عن العرب ابتعادهم عن البحر عند انشاء العواصم والحواضر الكبرى وخوفهم منه. فلم يعرف عنهم أنهم نسبوا بحرًا لأنفسهم أو اعتبروه جزءًا من إقليمهم أو أنهم شعروا أن عليهم واجب اكتشاف ما يكتنزه من أسرار. فالمتوسط بالنسبة لهم هو بحر الروم رغم أنهم أحاطوا به من كل حدب وصوب والأطلسي في مخيلتهم هو بحر الظلمات الذي لم يفكروا يوما في تجاوزه رغم ملامستهم لسواحله في أقصى بلاد المغرب وفي الأندلس.

في حين أن مهدية الفاطميين، بخلاف بغداد والقيروان وقرطبة، جاورت البحر الذي أحاطها من جهات ثلاث وتسببت في ردم أجزاء منه وتهيئة كل الظروف لإعماره وغزوه والانتفاع من خيراته. ومن أشهر معالمها:



مدخل الجامع الكبير بالمهديّة





حصن المهديّة (القصبة)

مدخل مدينة المهديّة (السقيفة الكحلاء)

(شكل ٢١)

باب الفتوح أو باب زويلة أو "السقيفة الكحلة" كما تسمى حاليًا، وهو يمثل البرج الرئيسي للسور البري لمدينة المهدية، أدخلت على هذا المعلم العديد من التحويرات آخرها سنة ١٨٩٣.

قصر القائم بأمر الله: مكنت الحفريات الجارية بهذا المعلم من اكتشاف لوحة فسيفساء تفوق مساحتها ٦٠ م٢ ومن الأرجح أنها كانت تزين أرضية القاعة الكبرى للقصر، الجامع الكبير.

مدينة القاهرة (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م):

أنشأت مدينة القاهرة على يد القائد الفاطمي جوهر السقلي عام ٩٦٩م في عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي. فتح الفاطميين مصر بقيادة جوهر الصقلي قائد جيوش الخليفة المعز لدين الله. وفي هذا اليوم سارت جيوش الفاطميين بمدينة الفسطاط (المدينة التي أسسها عمرو بن العاص) جهة الشمال، وعسكرت في سهل رملي، يحده من الشرق جبل المقطم ومن الغرب خليج أمير المؤمنين، ومن الجنوب مدينة القطائع (التي أسسها أحمد بن طولون). وفي هذه الليلة اختط جوهر الصقلي مدينة القاهرة التي تعد رابع مدن مصر الإسلامية.

نشأة مدينة القاهرة:

أسست مدينة القاهرة لتكون حصنًا ملكيًّا للخليفة وأتباعه. لذلك عمد جوهر الصقلي إلى تحصين المدينة بسور سميك واعتبرها معقلا يتحصن

به الخليفة وأتباعه. واحتفر الخندق من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام المدينة من هذا الجانب. وبذلك استطاع جوهر أن يحصن المدينة وفي نفس الوقت يعوق عامة الشعب في الفسطاط والعسكر والقطائع (عواصم مصر الإسلامية الأولى) من الوصول للقصور الملكية. حيث كان لا يسمح لأي فرد باجتياز السور إلا إذا كان من جند الحامية الفاطمية أو من كبار الموظفين في الدولة، وكان الدخول إلى القاهرة يتم عن طريق تصريح خاص.

سبب تسميتها بالقاهرة:

عندما أسست مدينة القاهرة سُميت بالمنصورية نسبة إلى المنصور بالله ثالث الخلفاء الفاطميين وأبو الخليفة المعز لدين الله. ولم تعرف المدينة بالقاهرة إلا سنة ٣٦٢هـ بعد أن حضر الخليفة المعز إلى مصر؛ إذ رأى أن اسم القاهرة مشتق من القهر والظفر، فأطلق عليها اسم القاهرة.

تخطيط مدينة القاهرة وقت إنشائها:

كانت مدينة القاهرة وقت إنشائها سنة ٣٥٨هـ على هيئة مربع طول ضلعه ١٢٠٠ متر على مساحة ٤٠٠ فدان. وقد أُحيطتْ بسور من الطوب اللبن وكان عرض جدار السور حوالي ٢.٥ متر. وفتح جوهر في أسوار القاهرة ثمانية أبواب بواقع بابين بكل سور، حيث يوجد بالضلع الجنوبي بابي زويلة، وبالضلع الشرقي باب البرقية وباب القراطين، وفي الضلع الشمالي باب الفتوح وباب النصر، وفي الضلع الغربي باب القنطرة وباب سعادة.

كان من عادة المسلمين عند إنشاء أي مدينة جديدة أن يبنوا جامعًا في وسط المدينة وبجانبه قصر الحاكم، ثم بعد ذلك يختطوا الشوارع والحارات وهذا ما تم عند تأسيس مدينة القاهرة.

في الفترة من (٤٨٠- ٤٨٥هـ/ ١٠٨٧- ١٠٩٢م)، قام بدر الجمالي وزير الخليفة المستنصر بتوسعة مدينة القاهرة وتجديد أسوارها وبناها من الحجرالمنحوت المصقول المثبت في مداميك منتظمة. تميزت الأبواب الموجودة في السور الذي أنشأه بدر الجمالي بالضخامة ومتانة البناء، حيث يبلغ ارتفاعها حوالي ٢٥ مترا عن مستوى العتبة الأصلية للباب وعرض واجهتها ٢٢ مترا تقريبا، كما أن ثلث الكتلة البنائية للأبواب يبرز خارج السور، أما الثلثان الباقيان فيقعان داخل السور. ويعلو كل باب منها حجرات دفاعية. يحتوي كل باب على مصرعين من الخشب السميك المغلف بأشرطة حديدية مثبتة بواسطة مسامير حديدية.

وقد ذكر بعض المؤرخين في كتبهم أن مساحة قاهرة جوهر كانت ٣٤٠ فدانًا تقريبا، خصص منها ٧٠ سبعين فدانًا لبناء القصر الشرقي الكبير، كما خصص ثلاثين فداناً للبساتين ومثلها للميادين، وقسم المساحة الباقية إلى عشرين حارة، أسكن في كل حارة فرقة عسكرية من جنده وسمى كل حارة باسم هذه الفرقة، فكانت هناك حارة زويلة التي بنى بجوارها باب زويلة، وحارة البرقية وحارة العطوفية وحارة الروم، وغيرها من الحارات، وتحولت هذه الحارات فيما بعد إلى شوارع وأحياء.



(شكل ٢٢)

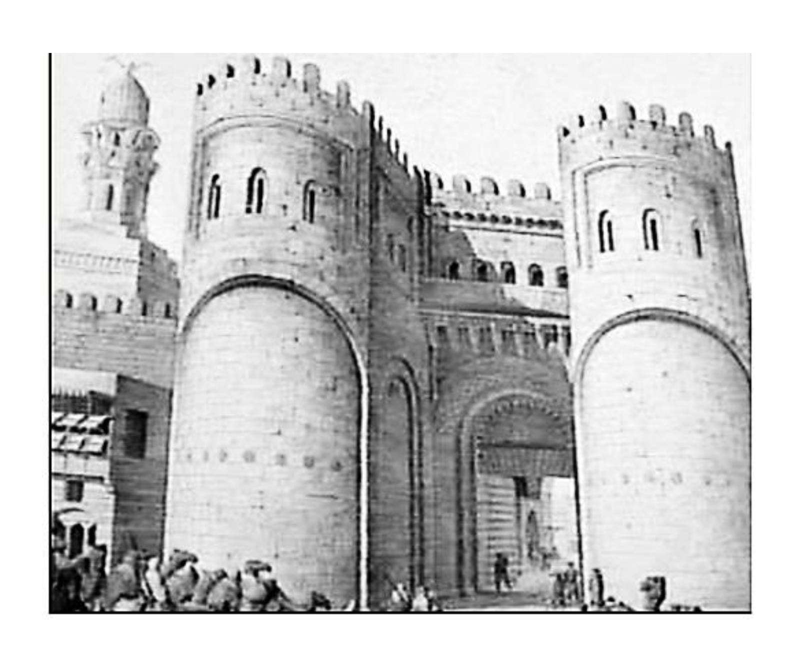
ولما أرسل جوهر القائد إلى سيده المعز لدين الله بتمام بناء القصر الجامع، عزم المعز أن ينقل مركز الخلافة الفاطمية إلى مصر، فخرج بأهله وأمواله وحاشيته من مقر ملكه بمدينة المنصورية في ٢٢ شوال سنة ٣٦١هـ (يوليو ٩٧١م). واستقر بعض الوقت في مدينة سردانية بجوار القيروان لتجتمع إليه القبائل والجيوش ثم رحل عنها في الخامس من صفر سنة ٣٦٢هـ، وسار إلى مصر عن طريق برقة ووصل إلى الاسكندرية يوم السبت ٢٤ شعبان وبعد أن أقام بها أيامًا سار إلى القاهرة ودخلها يوم الثلاثاء

السابع من رمضان سنة ٣٦٢هـ (يونيو ٩٧٢م) ونزل بالقصر الفاطمي الكبير.

بنى جوهر الصقلي حول القاهرة سورًا من الطين اللبن وكانت كل طوبة في هذا السور كبيرة الحجم (ذراع طولا في ذراع عرضا) بحيث كان يمكن أن يمر فوق السور السميك فارسان متجاوران ويسيران عليه بسهولة. ومن المهم أن نشير إلى أن مدن ذلك الزمان كانت تحيط بها الأسوار والحصون والبوابات للدفاع عنها ضد الجيوش الغازية وعبث اللصوص وغدر الغرباء. وكانت أبواب المدن تفتح مع شروق الشمس وتغلق بعد الغروب لتأمين الناس في داخلها. ولم تكن القاهرة استثناء في ذلك بطبيعة الحال، فقد أنشأ جوهر الصقلي عدة أبواب في نواحيها الأربعة.



(شكل ١/٢٣)



(شكل ٢/٢٣)

والجدير بالذكر أن أبواب القاهرة الأصلية قد اندثرت بمرور الزمن وبنيت عوضًا عنها أبواب جديدة تحمل أسماء الأبواب الأصلية نفسها على مسافة منها تمثل المساحة التي زادت في حجم المدينة التي خرجت من ثوبها الذي حبسها فيه جوهر والذي ضاق عليها بفعل التطورات السكانية والجغرافية التي جرت عليها: ففي الجهة القبلية من السور كان القائد الفاطمي قد أنشأ بابين باسم زويلة قرب مسجد عرفه الناس آنذاك باسم "جامع سام بن نوح" في عصر سلاطين المماليك. وقد اندثر هذان البابان ولم يبق منهما سوى عقد أحد البابين الذي عرفه الناس آنذاك باسم "الباب القوس". وقد ارتبطت ببابي زويلة الأصليين بعض المعتقدات الشعبية، كما ارتبطت حكايات شعبية أخرى بباب زويلة الكبير الذي بناه أمير الجيوش بدر الدين الجمالي وزير الخليفة الفاطمي المستنصر بالله سنة

٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م وكذلك بعض الأحداث التاريخية. ومن المدهش أن المعتقدات الشعبية ارتبطت بواحد فقط من بابي زويلة الأصليين دون الآخر. ويقال إن المعز لدين الله الفاطمي عندما جاء إلى مصر دخل من الباب الملاصق للمسجد فتيامن الناس بهذا؛ وصاروا يكثرون المرور من هذا الباب دخولا وخروجا وهجروا الباب الآخر بشكل شبه كامل وسرت على ألسنة الناس شائعة مؤداها أن من مرَ من هذا الباب لا تقضى له حاجة.

وفي التخطيط العمراني للمدينة نستعرض فيها مساحة قاهرة جوهر إذ كانت ٣٤٠ فدانًا تقريبا، خصص منها ٧٠ فدانا لبناء القصر الشرقي الكبير، كما خصص ثلاثين فدانا للبساتين ومثلها للميادين وقسم المساحة الباقية إلى عشرين حارة، أسكن في كل حارة فرقة عسكرية من جنده وسمى كل حارة باسم هذه الفرقة، فبعضها كان للقبائل المغربية مثل كتامة وحارة زويلة التي بنى بجوارها باب زويلة، وبعضها لفرق من الجيش كالفرحية والباطلية (الباطنية) وحارات أخرى لأجناس كالروم وحارة لليهود يقيمون بها. وعلى جانب قصبة القاهرة (الآن شارع المعز لدين الله) بالقرب من السور الشمالي، تم تشييد قصرين فاطميين أحدهما للخليفة وبلاطه وهو القصر الشرقي الكبير والثاني للأمراء الفاطميين وهو القصر الغربي الصغير. ولذا عرفت قصبة القاهرة باسم شارع بين القصرين.

وتركت مساحة مفتوحة أمام القصر الشرقي لاستعراض الجند ولإقامة الاحتفالات وهي معروفة إلى اليوم باسم «رحبة العيد»، رغم أنها تحوّلت إلى حارة ضيقة تحيط بها المباني.

وتلك الحارات ذات أبواب تغلق في الليل على سكانها وسميت بحسب انتماءات سكانها.

وكانت بوابات القاهرة تغلق بعد صلاة العشاء مباشرة ولا يتم الدخول إليها بعد ذلك إلا بتصريحات كتابية لمن تستدعي أعمالهم الوصول إلى المدينة في هذا الوقت المتأخر من الليل، ويعتبر باب زويلة بالسور الجنوبي مدخلها الأكثر ازدحامًا إذ كان يقصده أصحاب المهن والحرف المختلفة القادمون من العاصمة الفسطاط "مصر القديمة".

ورغم اقتصار سكن القاهرة على جنود الخلافة ورجال البلاط والإدارة سرعان ما تمددت مبانيها خارجِ الأسوار، وكان ذلك في اتجاه الشمال، إذ شيد الخليفة الحاكم بأمر الله مسجده الجامع خارج السور الشمالي مباشرة.

سور القاهرة الأول:

جاء سور القاهرة من الطوب اللبن على شكل مربَّع، طولُ كلِّ ضِلع مِن أضلاعه ١٢٠٠ ياردة، وكانت مساحةُ الأرض التي ضمَّها السور المربَّعُ ٣٤٠ فدانًا، منها نحو سبعين فدانًا بَنَى عليها جوهرٌ القصرَ الكبير،

وخمسة وثلاثين للبستان الكافوري ومِثلُهما للميادين، والباقي جرى توزيعه على الفرق العسكرية لتشييد حاراتها.

ويوضح التصميم الأصلي للقاهرة مدى تأثُّرِ جوهر بالتخطيط الروماني لبعض مدن شمال أفريقيا؛ حيث كان بالقاهرة شارعٌ يشُقُّها من الشمال إلى الجنوب (شارع بين القصرين حاليًا) منتهيًا إلى طريق المواصلات للوجهين القبلي والبحري، مارًّا بالميادين الوسطى التي بها قصر الخليفة وخدَمُه وجُنده وحدائقه، ويقطع هذا الشارعَ واحدٌ آخرُ يمتد من الشرق إلى الغرب، وينتهي من ناحية الشرق إلى الجامع الأزهر.

وإذا كان السور القديم الذي كان يحيط بالقاهرة عند نشأتها قد اختفى الآن تمامًا وعفت آثاره، إلا أنه يمكن تحديد موقعه من الشمال، بذلك الخط الذي يمتد من جنوب جامع الحاكم بأمر الله إلى شارع بورسعيد، الذي كان آنذاك خليجَ أمير المؤمنين، ومن الجنوب بخط يقع شمالَ جامع المؤيد شيخ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق، المواجهَين لجبل المقطَّم، ومِن ناحية الغرب بموقع باب سعادة المُطِلِّ على خليج أمير المؤمنين (شارع بورسعيد حاليًا) بعيدًا عنه بنحو ثلاثين مترا.

وقد تَرك سورُ جوهر الصقلي بصماتٍ قويةً على مُسَمَّيات أبواب القاهرة؛ حيث عُرفت تلك الأبواب التي شيَّدها بَدْرٌ الجمالي في منتصف

القرن الخامس الهجري (القرن الحادي عشر الميلادي) بذات المسميات الأولى.

ففي السور الجنوبي، شيدت قبيلة زويلة المغربية بابين متجاورين، عُرِفا باسم بابي زويلة، تماما كما هو الحال في المنصورية بالقيروان التي عُرف أحد أبوابها باسم هذه القبيلة المغربية التي لعبت دورا كبيرا في تثبيت خلافة الفاطميين.

باب زويلة:

تقع هذه البوابة إلى الجنوب مِن حصن القاهرة الفاطمي وتطل حاليًا على شارعٍ تحت الربع، ويذكر المقرِيزي والقلقشندي أن البوابة القديمة التي أنشأها جوهر الصقلي كانت قائمة حتى عصرهما بالقرب من مسجد سام بن نوح وأن البوابة الأولى كانت بفتحتين متجاورتين. فلما جاء المعز لدين الله إلى القاهرة بعد أن أسسها جوهر، دخل من الفتحة اليمنى، فتفاءل الناس بها وتركت اليسرى لخروج الجنازات.

ولما أعاد بدر الجمالي بناء الأسوار، جعلها من فتحة واحدة وتشبِه هذه البوابة بوابة الفتوح، فتتكون من برجين مستطيلين، حوافها على هيئة أنصاف دوائر والبرجان مصمتان إلى ثلثيهما ويعلو كل برج غرفةٌ مخصصة للجنود والمدافعين عن الحصن، وقد أدخل على هذه البوابة تعديل تم في عصر المماليك الجراكسة، زمن السلطان المؤيد شيخ المحمودي الذي استغل البرجين في عمل قاعدتين لمئذنتي مسجده الجامع.

والعنصر الجديد في هذه البوابة هو المقعد الذي وضع فوق عقد فتحة الباب، وكان المقعد مخصصا للمراقبة العسكرية، ولما ضُمت القاهرة إلى العواصم بسور واحد، استغل المقعد لمراقبة الأسواق وخروج المحمل، ويؤدي الباب إلى دركاة مربَّعة بفتح نافذتين بذيل البرج الشمالي متصلان بمسجده الجامع.

وهذه البوابة لها شهرتها في التاريخ المملوكي والعثماني؛ حيث شُنق عليها الكثير من الأمراء وكبار رجال الدولة، ولم يتوقف استخدامها لتعليق رؤوس المشنوقين عليها إلا في عصر الخديوي إسماعيل.

سور بدر الجمالي:

السور الثاني أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالي مِن الحجر، بعد أن تهدم سور جوهر الصقلي، وجاء بناء هذا السور بعد أن وسع مساحة القاهرة بمقدار ١٥٠ مترا إلى شمال السور القديم، وحوالي ثلاثين مترًا إلى الشرق وإلى الجنوب، وأقام بدر الجمالي أسواره وبواباتِها خلف أسوار وأبواب جوهر الصقلي وموازية لها، وتم البناء من الحجر المنحوت، مصقول السطح، المثبت في صفوف منتظمة، وما زال هذا السور بأبوابه قائما حتى اليوم يشهد بعظمة العمارة الإسلامية في القاهرة الفاطمية.

وبلغ عدد هذه الأبواب ثمانيةً: باب الفتوح وباب النصر، وفي الجهة الشرقية باب البرقية وباب القراطين، وفي الجهة الغربية باب سعادة وباب القنطرة، وفي الجهة الجنوبية باب الفرج وباب زويلة.

شيد هذا السور في أيام الناصر صلاح الدين الأيوبي، الذي حرص على تحصين القاهرة، فبَنَى قلعة صلاح الدين وأمر بهاء الدين قراقوش ببناء أسوار القاهرة، وذلك عام ٥٦٦ هـ، ويقال: إنه سخَّر أعدادًا كثيرةً مِن أَسْرى الفِرَنْجة في بناء القلعة والأسوار، وقد أقام قراقوش سورًا دائريًّا على القاهرة وقلعة الجبل والفسطاط، وجعل فيه عدة أبواب، منها: باب البحر وباب الشعرية والباب المحروق.

وقد كشفت حفائر الفسطاط– التي بدأت عام ١٩١٢ وانتهت عام ١٩٢٠– عن القسم الشرقي القائم من سور صلاح الدين بين القلعة وحدود الفسطاط من الجهة الجنوبية.

أبواب القاهرة القديمة:

تعد الأبواب التي ظهرت في أسوار القاهرة من روائع العمارة الحربية في الحضارة الإسلامية؛ لما تميز به مِن شموخ وروعة وجمال في الفن المعماري والتصميم. ففي الأسوار التي أقامها جوهر الصقلي وجددها بدر الجمالي، اشتهرت بمجموعة من الأبواب التي تمثل العمارة الحربية في العصر الفاطمي وتعبِر عن الهيبة والعظمة لذلك العصر، منها:

♦ **باب النصر:** تقع هذه البوابة بالجهة الشمالية الشرقية من سور الحصن، تتكون من برجين مربعين، بارزين عن سمت الجدران، مصمتين إلى ثلثيهما، يعلو كل برج حجرة مربعة، مغطاة بقبة ضحلة من الحجر، مقامة على مثلَثات كروية، وبكل حجرة مجموعة من المزاغل لإطلاق السهام.

ويتوصل إلى الطابق العلوي لهذين البرجين من سلم خلفي داخل الحصن، والسلم مكون من عمود حجري، يلتف عليه درج بشكل حلزوني، وبسقف السلم حجري على هيئة قبو صاعد، وبين هذين البرجين بداية ضخمة يعقودة، ترتد عن بروز البرجين بمقدار ٤.٥٤ متر، وللبوابة فتحة مستطيلة ارتفاعها ٦.٥٠ واتساعها ٤.٧٠ متر، بأعلى هذه الفتحة عقد مستقيم من صنجات معشقة، يعلوها عقد عاتق، ثم عقد مقوس من صنجات معشقة أيضا، يلي هذه المنطقة لوحة عليها نص تأسيسٍ بالخط الكوفي.

وزُينت واجهة البوابة بمجموعة من الزخارف البارزة ملائمةٍ لطبيعة البناء العسكرية، فزخرفت كوشات عقد البوابة بدرعٍ وسيف.

مما يُؤسَف له أن هذه البوابة وغيرها استخدمت في عهد الحملة الفرنسية، وأَجرى قواد الحملة عليها بعض التعديلات المعمارية، خاصة في الغرف العلوية؛ بتحويل فتحات المزاغل الضيقة إلى فتحات للبنادق أو لفوهات المدافع.

♦ **باب الفتوح:** تقع هذه البوابة بالجهة الشمالية الغربية من السور الشمالي الذي جدده بدر الجمالي سنة ٤٨٠هـ، ويذكر المقريزي أن البوابة القديمة التي أنشأها جوهر كانت قائمة حتى عهده وأنه تخلَّف منها بقايا أَقبِية ودعامات وبعض الكتابات الكوفية، وإنها كانت على رأس حارة بهاء الدين إلى الجنوب من جامع الحاكم، ومن المعروف أن هذا الجامع بني

خارج أسوار جوهر الصقلي؛ لأن القاهرة وقت بنائه لم يكن بها مساحات كافية تستوعب جامعًا ضخمًا كهذا الذي أعده صاحبه ليكون دارًا للحكمة. وحينما جدد بدر الجمالي أسوار القاهرة، أدخل فيها الجامع الحاكمي.

وتتكون بوابة الفتوح من برجين كبيرين بارزين مستطيلين لهما واجهة مستديرة، وهما مصمتان إلى فتحات المزاغل وترتد فتحة الباب إلى الخلف بين البرجين، وهي على هيئة باب معقود بعقد نصف دائري مزخرف بأشكال معينة بها طلاسم سحرية، وإلى الخلف من عقد البوابة عقد آخر، بينهما سقاطة لإلقاء الزيوت المغلية والمواد الكاوية على من يقتحم البوابة من الأعداء، كما يوجد فوق البوابة مباشرة شرفة صغيرة، مكونة من خمسة عقود مهمتها المراقبة.

وتعد بوابة الفتوح آية في الجمال الزخرفي؛ حيث حليت الأبراج من أسفلها بثلاث حشوات معقودة، واحدة بالواجهة واثنتان جانبيتان، وهذه الحشوات مكونة من صنجات متتالية تشبه الوسائد وتفضي بوابة الفتوح إلى دركاة مربعة، على جانبيها دخلات لجنود الحراسة، ويسقف الدركاة قبة ضحلة مقامة على مثلثات كروية من الحجر.

وقد أنشئت في عصر الدولة الأيوبية مجموعة أبواب، مرتبطة بسور القاهرة الذي بناه صلاح الدين، ومنها:

أ- **باب الشعرية:** أزيل سنة ١٨٨٤؛ لخلل في بنائه.

ب- **الباب الأحمر في القلعة:** يعرف ببرج المقطم ويُشرف على باب المقطم.

جـ- **باب البحر:** أنشأه صلاح الدين في السور الشرقي المشْرِف على الصحراء ولا تزال آثاره باقية حتى اليوم.

د- **باب الوزير:** يقع بين الباب المحروق وقلعة الجبل، وما زال موجودا حتى الآن.

هـ- **الباب المدرج:** أقدم أبواب قلعة الجبل، أنشأه صلاح الدين سنة ٥٧٩هـ، ولا يزال موجودا على يسار الداخل إلى القلعة.

و- **باب السلسلة:** يطل على ميدان صلاح الدين في القلعة ويعرف بباب العزب.

ز- **باب السر:** خصص لأكابر الأمراء وخواص الدولة ويعرف الآن باسم الباب الوسطاني.

ولم يمض ثلاثون سنة على إنشاء قاهرة المعز حتى اتصلت ضواحيها الأربعة الفسطاط، والعسكر، والقطائع، والقاهرة وصار الناس يسيرون من القاهرة إلى الفسطاط في شارع واحد متصل البنيان والعمران، وكانت

المسافة بين باب زويلة وبين جامع أحمد بن طولون في الجنوب ١٨٠٠ متر تقريبا، وبين باب زويلة والفسطاط حوالي ٤٠٠٠ متر في خط مستقيم.

وشهدت القاهرة تحولا مهما في تاريخها العمراني عند منتصف القرن الخامس الهجري (١١م)؛ إذ انخفض فيضان النيل سبع سنوات متتالية، فانتشرت الأوبئة الفتاكة فيما عرف بالشدة العظمى أو الشدة المستنصرية لوقوعها في عهد الخليفة المستنصر بالله.

وأدت هذه الأحداث المأسوية إلى تخريب القاهرة، مما دفع بالوزير الأرمني الأصل بدر الجمالي إلى السماح لعامة الشعب بالإقامة فيها فتحولت إلى مدينة سكنية، وأعاد بدر الجمالي إنشاء أسوار القاهرة وبواباتها بالأحجار، ولكن عمران القاهرة حاصر أسوار الجمالية فيما بعد حتى لم يبق منها سوى جزء من السور الشمالي وبوابتا الفتوح والنصر في هذا السور، بالإضافة إلى باب زويلة في السور الجنوبي للمدينة، ويعرف الباب الأخير باسم بوابة المتولي لقرب مقر متولي الشرطة منه، ولذا كان عقد هذا الباب المكان المفضل لتعليق حبل المشنقة لمن صدرت بحقهم أحكام الإعدام، ويعتبر "طومان باي" آخر سلاطين المماليك آخر من تم إعدامهم بالشنق عند باب زويلة.

وفقدت القاهرة آخر صفة لها كمدينة ملكية لنخبة الحكم باستيلاء صلاح الدين الأيوبي على حكم البلاد والقضاء على خلافة الفاطميين في

عام ٥٦٧هـ، إذ قرر صلاح الدين إنشاء قلعة فوق جبل المقطم لتكون مقرا للحكم.

واستمرت قلعة الجبل مقرًّا للحكم طوال عهود الأيوبيين والمماليك والعثمانيين إلى أن قام الخديوي إسماعيل بإنشاء قصر عابدين فعاد مقر الحكم إلى القاهرة في منتصف القرن التاسع عشر. ومع الخديوي عرفت القاهرة طريقها إلى مصاف المدن الحديثة؛ إذ عهد إلى هوسمان مهندس باريس الحديثة بإنشاء أحياء جديدة تشابه باريس ولكن بروح شرقية، فكانت قاهرة الخديوي المعروفة اليوم «بوسط البلد» والممتدة من شاطئ النيل شرقا إلى شارع بورسعيد غربا ومن شارع القصر العيني جنوبا إلى محطة السكك الحديدية شمالاً. وجاء البارون البلجيكي إمبان في بداية القرن العشرين ليضيف ضاحية مصر الجديدة التي سرعان ما تحولت إلى جزء أصيل من القاهرة بفضل القطار أو المترو الذي ربطها بالقاهرة الخديوية وبشارع الأزهر وفي الستينيات من القرن الماضي، ظهرت ضاحية مدينة نصر التي راحت تتمدد شرقا وشمالا.

وتضم القاهرة الآن عدة مدن منها ما هو تاريخي مثل الفسطاط الحاضرة الإسلامية الأولى (مصر القديمة أو العتيقة) وفي القلب منها جامع عمرو بن العاص والقطائع عاصمة الطولونيين التي لم يبق منها سوى الجامع الطولوني. بالإضافة إلى أحياء حديثة في الاتجاهات الأربعة وتعد واحدة من أكبر مدن العالم، إذ يقترب عدد سكانها من ١٧ مليون نسمة.

وتشتهر القاهرة بأنها مدينة الألف مئذنة وهي بحق متحف معماري مفتوح يضم آثارًا من مختلف العصور بدءًا من العصر الفاطمي، وحتى عصر أسرة مُحَّد على.

من أشهر معالمها المسجد الأزهر الذي بناه جوهر الصقلي؛ ليكون مركزًا دينيًّا لنشر الدعوة الشيعية، كان الهدف من إنشاؤها لتكون عاصمة للخلافة الفاطمية ومركزًا روحيًّا للمذهب الشيعي.



(شكل ٢٤)

ولا شك في أن الآثار المتبقية من هذه الأبواب القديمة حتى اليوم، تدل على روعة تصميم وشموخ العمارة الإسلامية.

التحولات العمرانية في المدينة الإسلامية

من الصعب دراسة التحولات العمرانية في المدينة في العمارة الإسلامية دون النظر إلى ماضيها قبل الإسلام وحاضرها القريب بعد الغزوة السياسية والثقافية التي تعرضت لها المنطقة من المغرب غربا إلى العراق شرقا. كما أنه من الصعب النظر إلى التحولات العمرانية للمدينة الإسلامية بشكل عام دون التعمق في الظروف المحلية التي تأثرت بها كل مدينة على حدة والعوامل التي أثرت فيها، سواء ما نشأ منها كامتدادات للمدن التي كانت قائمة قبل الإسلام، أو ما نشأ منها كلية بعد الإسلام كتجمعات بشرية أقامها الولاة أوالحكام كعواصم إدارية لهم أو مستوطنات عسكرية مثل البصرة (١٤هـ/ ٦٣٥م) أو الكوفة (١٧هـ/ ٦٣٩م) أو الفسطاط (٢١هـ/ ٦٤١م) والقيروان (٤٨هـ/ ٦٧٠م) أو سامراء (٢٢١هـ /٨٣٥م)، وغيرها.

ومع ذلك، فهناك ملامح عمرانية مشتركة تتميز بها المدينة في العمارة الإسلامية؛ أهمها:

. وجود المسجد الجامع كمركز للنشاط الديني والسياسي وتنتهى إليه الأنشطة التجارية والإدارية.

. التركيب العمراني الذي يعكس التركيب الاجتماعي للسكان والذي يظهر في تقسيمات المدينة إلى أحياء وخطط أو حارات. كما أن هناك مسميات عامة للعناصر التخطيطية والمعمارية للمدينة الإسلامية التي استمدت وصفها من إسلامية المجتمع الذي يسكنها.

بهذا المنظور التاريخي يمكن متابعة التحولات العمرانية التي مرت بها المدينة الإسلامية إبان العصور المختلفة الزاهرة من حكم الولاة والحكام المسلمين.

كما أنه من الصعب تحديد الملامح العمرانية للمدينة في المنطقة العربية قبل الإسلام؛ لاندثار بعضها أو تطوير البعض الآخر بعد الإسلام.

فمن المعروف أن معظم المدن التي أقيمت قبل الإسلام كانت في أودية الأنهار مثل النيل أو دجلة أو الفرات. وكان الطابع الغالب على المستوطنات البشرية الرئيسية قبل الإسلام الطابع اليوناني الروماني الذي يعتمد على التخطيط الشطرنجي المتساوي التقسيمات مع وجود الأجورا أو "الفورم" كمركز إداري وتجاري للمدينة. أما غير ذلك من المستوطنات، فلم تتعد أن تكون تجمعات سكنية أشبه بالقرى عنها بالمدن مع وجود فراغات من الأراضي الفضاء بين بعضها البعض. وتظهر الدلائل الأثرية أن معظم مساكن هذه التجمعات السكنية كان لها أفنية داخلية بسبب الظروف المناخية والبيئية. كما كانت توجد أنظمة هندسية راقية لمد المدن بالمياه والري.

اتبعت التعاليم الإسلامية لإدارة المدن ببعدها الاجتماعي والحضاري وهذبت من كيان المدن التي فتحها الإسلام واتجه معظم التحضر في العصور الإسلامية ناحية الداخل بعيدًا عن المدن الساحلية، فانتقل مقر الحكم في مصر من الإسكندرية على الساحل إلى الفسطاط في الداخل. كما انتقل مقر الحكم من تونس على الساحل إلى القيروان في الداخل.

إن التكوين العمراني الاجتماعي للمدينة الإسلامية يصعب تحديده على أساس جغرافي كما هو الحال في المدينة الغربية. فالترابط الاجتماعي والعرقي هو المكون لأحياء المدينة الإسلامية. لذلك فإن وحدة الفكر والعقيدة في المجتمع الإسلامي والتي شكلت البناء العمرانى للمدينة الإسلامية يربط مابين الرباط في المغرب غربا وبين مشهد في إيران شرقا. كما يتميز النمط العمراني للمدينة الإسلامية كذلك بوجود سور يحيطها كخط دفاع عن المدينة. بالاضافة إلى حمايتها من تلوث الهواء من غبار الصحراء. وتمتد الحركة في المدينة الإسلامية– عند الدخول إليها من أبوابها الكبيرة– على طول القصبة الرئيسية للمدن حيث تتركز الأنشطة التجارية. الأمر الذي يميزها بالاتجاه الطولي للاستعمالات التجارية. كما تمتد بنفس الصورة الأنشطة الحرفية في شكل محلات وورش صغيرة متجاورة متعاونة مع بعضها في إنتاج السلع المختلفة. ويحتل المسجد مركز المدينة في منتصف القصبة وتتبعه المدارس الإسلامية، كما تتركز حوله الحرف المرتبطة بالنشاط المركزى مثل تجليد الكتب والخطاطين وصناعة السجاد أو الأنشطة الحرفية التي تسد حاجة الريفيين فتتجمع حول البوابات الرئيسية للمدينة. ومن القصبة التجارية الرئيسية للمدينة تتفرع الشوارع والطرقات

التي تتجمع حولها الأحياء السكنية حيث الهدوء والسكينة والظلال والراحة النفسية والارتباطات الأسرية. وإذا كانت القصبة التجارية قد تغطي بعض أجزائها فإن الشوارع المحلية للأحياء أيضا قد تغطي بعض أجزائها كما هو موجود في مدن شمال أفريقيا.

وتتميز حوائط الطرقات في المدينة الإسلامية بالبساطة وقلة الفتحات والارتفاع القليل الذي يتناسب مع عروض الشوارع. ومع بساطة التعبير المعماري للواجهات الخارجية، فإن داخل المساكن يزخر بالثراء في التفاصيل المعمارية والزخارف الداخلية وهذه ظاهرة تعلو وتهبط من منزل إلى آخر تبعا لقدرة صاحب المسكن. وهكذا تتأكد روح المساواة والبساطة والتجانس في الخارج كظاهرة اجتماعية مع ثراء الداخل تعبيراً عن الحرية الفردية. الأمر الذي يعكس القيم والتعاليم الإسلامية الموجهة لحركة الفرد والمجتمع. ويعتبر الفناء الداخلي للمسكن ظاهرة اجتماعية تتواءم مع الحاجة المناخية.

ويمتاز التشكيل العمراني للمدينة في فترة العصور الإسلامية بوجود عناصر معمارية متميزة تعبر عن محاولة الفكر المعماري لإيجاد الحلول المعمارية المناسبة لمناخ المناطق الجغرافية المختلفة في العالم الإسلامى. ويعتبر الملقف من أهم هذه العناصر. والملقف يختلف في تصميمه من منطقة إلى أخرى، ففي المناطق الحارة الجافة يوجه إلى ناحية الشمال، حيث تهب الرياح معظم أوقات السنة بحيث يتم توجيه هذا الهواء من أعلى إلى أسفل ليمر على عناصر رطبة وذلك لزيادة نسبة الرطوبة في الهواء وبالتبعية لزيادة

الإحساس بالبرودة في أيام الصيف الحارة. وفي المناطق الأخرى الرطبة الهواء يوجه الملقف إلى أربع جهات حتى تزيد فرصة هبوب الرياح بحيث يتم توجيه هذا الهواء من أعلى إلى أسفل ليمر على مواد تمتص منه الرطوبة في أيام الصيف وبالتبعية يزيد الإحساس بالبرودة. وفي أحيان أخرى يمكن توجيه الهواء الجاف ليمر على خزانات مياه أسفل المباني لتزيد من رطوبته وفي نفس الوقت ليخفض من درجة حرارة المياه المخزنة. ويعنى ذلك أن العناصر المعمارية في المدينة الإسلامية نتيجة طبيعية لتفاعل الإنسان مع البيئة من ناحية ولتجاوبه مع التعاليم الإسلامية والخصوصية من ناحية أخرى.

وإذا كانت القصبة التجارية تعتبر أهم الملامح العمرانية في المدينة الإسلامية، فإن الميادين العامة بها لم تظهر بنفس أهميتها في المدن الغربية. وذلك باستثناء بعض الأمثلة مثل ميدان شاه في أصفهان بإيران بطول ٥١٠م وعرض ١٦٥م تحيطه العقود والمحلات التجارية ويطل عليه مسجد شاه عند مدخل السوق الرئيسى للمدينة والمغطى بالأقبية في كثير من أجزائه.

في القرن السادس الميلادي بدأت المدينة الإسلامية تعاني من ظاهرة التوقف العمراني، بسبب الظروف التاريخية التي تعرض لها العالم الإسلامى بعد ذلك، مع بداية عصر المماليك ثم العصر التركي وما أصاب المدن فيها من تخلف اقتصادي أدى إلى التخلف العمراني. بالإضافة إلى تحول التجارة بين الشرق والغرب إلى الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح. في هذه

الفترة بدأت المدينة الإسلامية تعاني من نقص في السكان بسبب الهجرة من الحضر إلى الريف، إذ كان أعداد سكان مدن مثل القاهرة وفاس وبغداد تقدر بمئات الآلاف قبل القرن السادس عشر هبطت إلى حوالي المائة ألف في مائتى أو ثلاثمائة سنة. كما تعرضت بعض المدن الإسلامية مثل حلب وبغداد بعد ذلك إلى انتشار الطاعون الذي أدى إلى فقدان عدد كبير من سكانها. ومع انهيار الامبراطورية التركية في القرنين السابع والثامن عشر تعرضت المدن الإسلامية إلى حالات من الفوضى العمرانية. وهكذا كان العصر الذهبى للمدينة الإسلامية في الفترة بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر؛ حيث شهد العالم الإسلامى طفرة كبيرة في النمو الاقتصادي صحبه طفرة في التقدم العلمي والفني والحضاري. واستمرت المدينة الإسلامية بعد ذلك فترة تتراوح بين أربعمائة وخمسائة سنة من الركود الحضاري والعمراني لم يضاف فيها أي معالم عمرانية على المدينة الإسلامية. واستمر هذا الحال حتى القرن التاسع عشر عندما بدأت تظهر آثار الثورة الصناعية في أوروبا والتي تبعتها مرحلة النمو الإقتصادى والتوسع الاستعماري؛ الأمر الذي أحدث تحولات جذرية في المدن الإسلامية بعد ذلك. ولم تظهر هذه التحولات في النواحي العمرانية فقط، بل امتدت إلى الجوانب الاجتماعية والاقتصادية وتقهقرت بذلك القيم التي كانت تسود المدينة الإسلامية من قبل. ففقدت المدينة الإسلامية بذلك شخصيتها الحضارية ومقوماتها العمرانية.

لقد استدعت النظم الحديثة في مد المدن بالمرافق والخدمات العامة إيجاد نمط جديد في التخطيط العمراني يتعارض مع النمط التخطيطي

للمدينة التقليدية القديمة. وهكذا ظهرت أنماط جديدة من التخطيط العمرانى في المناطق الجديدة، وبذلك دخلت المدينة الإسلامية عصرًا جديدًا من التحول العمراني نتيجة للإنجازات التكنولوجية التي انتقلت من الغرب لتوفير شبكات الطرق للسيارات ومد شبكات المرافق العامة. وصحب ذلك أنماط من العمارة الغربية ظهرت في العديد من المبانى العامة مثل البنوك والمحاكم والجامعات والمدارس والإدارات، بل والقصور والمساكن الخاصة. الأمر الذي أثار حفيظة المفكرين والمعماريين في العالم الإسلامي وسعيهم للبحث عن صيغة يعود بها الوجه الحضاري للمدينة الإسلامية المعاصرة ملتزما بالقيم والتعاليم والمناهج الإسلامية. وهو الأمر الذي أصبح مرتبطًا في الأساس بالتحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبناء الحضارة الإسلامية المعاصرة.

خاتـمة

إن الظروف والأوضاع الراهنة التي تمر وتتأثر بها المنطقة العربية والإسلامية على مختلف المستويات، تستوجب منا إعادة النظر بصورة شاملة في الوضعية الحالية لما يسمى بالنظام التخطيطي على المستوى الجيوغرافي والعلاقات المكانية ككل، من ناحية، وعلاقته بمختلف الحضارات الأخرى ونظم المجتمع المدني المعاصر والاستثماري، من ناحية ثانية. بالإضافة إلى علاقة ما سبق بالنظم والأطر الإقليمية والعالمية من ناحية ثالثة.

فالمدينة ذاكرة مجسمة تغوص بنا في المستقبل مثلما تغوص في الماضي، رغم أنها دائمًا تعبر عن الواقع الحاضر "أركيولوجية المدينة" وتتمثل في هذه الطبقات الزمنية التي تتحول إلى واقع مادي يجعل من المدينة عبارة عن حلقات متداخلة ومتراكمة يصعب تفكيكها، لكنها تبث داخلنا "الحس الزمني" بكثافة، حتى أننا لا نجد سجلًا بصريًّا بالغ الدقة يضاهيها، فهو سجل متحرك يقبل الجديد دائما، فكل حلقة جديدة تزيد من التداخل الزمني في المدينة وتثري فيها التفاصيل الدقيقة إلى درجة أنها تمثل "السجل الاجتماعي" الذي يقدم العلاقات البينية غير مرئية وبصورة بصرية ساكنة ظاهرًا ومتحركة ومتغيرة في الداخل.

إن المدينة تعيش "هويات متعددة" نابعة من هوية كلية هي الذاكرة الثلاثية الأبعاد "زمنيا"، إلا أننا نشعر بذلك الخط الذي ينقلنا داخل جدار الزمن، ليذكرنا كيف تشكلت المدينة نتيجة تراكم الأحداث ويقول لنا إن المدينة "حالة إنسانية طبيعية" طالما أن الإنسان دائم الحركة والتغيير وفي حالة بحث دائم عن "عمارة جديدة للأرض"؛ الأمر الذي يفرض عليه البحث عن تقنيات جديدة باستمرار دون محو الهوية الإسلامية بما لها من إبداع ورقي يتمثل في الفنون بشتى أنواعها: زخرفة، خزف، عمارة.. إلخ. وعصورها المختلفة: أموي، عباسي، فاطمي.. ولدينا المزيد؛ فالمعين لا ينضب وهذا يرجع إلى أنه لم يكن مجرد فن؛ ولكنه نوع من العيش بالطريقة التي تخدم وتحترم عقيدة المسلم وأخلاقه حتى في الفن، مما دعانا إلى توضيح ودراسة الفن الإسلامي الذي نكمل حلقاته الموصولة واحدة تلو الأخرى..

الإشكالية هي عندما يحدث خلل في التركيبة الزمكانية للمدينة وتصبح الحالة المشوهة هي السائدة، فنحن لا نستطيع إنكار أن المدينة العربية المعاصرة ترزح تحت ضغوط حضرية تجعلها في حالة فقد دائم للكثير من المكتسبات الحضارية، الأمر الذي يدفعها إلى المزيد من التشوه وفقد القيمة الجمالية والتاريخية التي يفترض أن تعبر عنها هذه المدن، حتى صارت تفقد مخزونها التاريخي نتيجة لتقليدها للغرب. وفي نفس الوقت لم تستطع اللحاق به، وكثير من أجزاء المدينة القديمة تتوارى يوما بعد يوم تحت ضغوط "التمدن"، دون الشعور بمسؤولية أن المدينة هي فضاء للحياة ولا يمكن التفكير في قلب المدينة كمتحف يجب المحافظة عليه، بل المحافظة على مساره الزمني. ومن طبائع المدن أنها تحتفظ بكل حلقاتها الزمنية.

وإذا كان المضمون الإسلامي هو الموحد لهذه العمارة في مواطنها المختلفة، فإن اختلافها التشكيلي يرتبط بمنبع هذه العمارة بيئيا وحضاريا. ومع التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها أقطار العالم الإسلامي، انحرفت بعض المضامين عن مساراتها الإسلامية، حتى أصبحت العمارة في بعض العصور تنبع عن رغبة خاصة في التظاهر بعظمة الحكم الأمر الذي أخرج بعض المضامين الإسلامية في التصميم عن مسارها الإسلامي الصحيح.

وقد حدث انفصال عميق بين العمارة ومن يصممها ومن يستخدمها؛ وهو الأمر الذي جعل من المدينة العربية على وجه الخصوص تقع تحت ضغوط التحضر الذي فرضه النمو السكاني والذي أصبح ظاهرة عالمية بعد الحرب العالمية الثانية، وبذلك فقد المحيط العمراني مقدرته على توصيل حس المشاهدة وسقط في دائرة الفوضى التي جعلت العمارة مجرد وظيفة نتيجة لهذه الفوضى الحضرية.

وإن كانت القيم التشكيلية للمدن في العمارة الإسلامية تعبيراً عن التقدم العلمي والفني والثقافي للمجتمع، ولكن بالقدر الذي تحدده القيم الإسلامية في الوسطية دون إسراف أو تقتير.

المتأمل للعمارة الإسلامية يرى أنها كانت في أوج عظمتها ولها أثر عظيم على الحضارات الأخرى والمجتمعات الأوروبية. كما انفردت بمشروع كامل لدراسة الألوان، وتميزت بالبساطة التامة في التصميم والدقة في

التخطيط والتناغم مع البيئة في كل جوانبها، فكانت العمارة الإسلامية أكثر العمارات حياة وأشدها بهجة وأعظمها خلودًا.

وجب على الباحثين والمعماريين العرب والمسلمين النهوض بالفكر المعماري الإسلامي مرة أخرى و القيام بمحاولات جادة لإيجاد قيمة جمالية للعمارة، لتعبر عن هوية مجتمعنا وقيمه الإبداعية والجمالية.

مصادر ومراجع

١- الأوائل – الحسن بن سهل العسكرى – دار البشير ١٩٨٨.

٢- البداية والنهاية – ابن كثير – مكتبة المعارف – بيروت ١٩٩٠.

٣- التراث المعمارى الإسلامى في مصر – د. صالح لمعى مصطفي – دار النهضة العربية ١٩٨٤.

٤- العباسيون وآثارهم المعمارية في العراق ومصر وأفريقيا – د. عبدالله كامل موسى عبده – دار الأفاق العربية – مصر ٢٠٠٢.

٥- العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتي نهاية العصر المملوكي – احمد عبدالرازق احمد – دار الفكر العربى – القاهرة ٢٠٠٩.

٦- العمارة الإسلامية – فكر وحضارة – توفيق احمد عبدالجواد – مكتبة الانجلو المصرية ١٩٨٧.

٧- العمارة العربية الإسلامية ماضيها وحاضرها ومستقبلها – د. فريد شافعى – جامعة الملك سعود ١٩٨٢.

٨- العمارة العربية بمصر – ولفرد جوزيف دللى، ترجمة محمود أحمد – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦.

٩- العمارة في صدر الإسلام – د. كمال الدين سامح –المؤسسة المصرية العامة للتإلىف والترجمة ١٩٦٤.

١٠- العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية والإسلامية – مصطفي عباس الموسوى – دار الرشيد للنشر- العراق ١٩٨٢.

١١- الفسطاط (النشأة.. الازدهار..الانحسار) – خالد عزب – دار الافاق العربية – القاهرة ١٩٩٨.

١٢- القاهرة القديمة وأحياؤها – د. سعاد ماهر – المكتبة الثقافية – مصر ١٩٦٢.

١٣- القاهرة تاريخها وآثارها – د. عبد الرحمن زكى – الدار المصرية للتإلىف والترجمة ١٩٦٦.

١٤- القاهرة خططها وتطورها العمرانى – د. أيمن فؤاد سيد – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٥.

١٥- القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية – مُحَمَّد مُحَمَّد زيتون – دار المنار – القاهرة ١٩٨٨.

١٦- القيم الجمالية في العمارة الإسلامية – د. ثروت عكاشة – دار المعارف ١٩٨١.

١٧- الكامل في التاريخ- ابن الأثير- دار الكتب العلمية- بيروت- ١٩٨٧.

١٨- الكوفة نشاة المدينة العربية الإسلامية – د. هشام جعيط - دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت ٢٠٠٥.

١٩- المدينة الإسلامية- د. مُحَمَّد عبد الستار عثمان- عالم المعرفة- الكويت ١٩٨٨.

٢٠- المسالك والممالك- ابن حوقل- مطبعة بريل- برلين ١٨٧٣.

٢١- المسلمون وآثارهم المعمارية حتى نهاية عصر الخلفاء- دار الأفاق - القاهرة ٢٠٠٣.

٢٢- المواعظ والاعتبار لذكر الخطط والآثار- المقريزى- دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٧.

٢٣- تاريخ الأمم الإسلامية- مُحَمَّد الخضرى بك- دار القلم- بيروت ١٩٨٦.

٢٤- تاريخ التمدن الإسلامي- جورجي زيدان، مطبعة الهلال- مصر ١٩٣٥.

٢٥- تاريخ بغداد- الخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي- بيروت ٢٠٠٢.

٢٦- تاريخ تخطيط المدن- أحمد خالد علام، مُحَمَّد أحمد عبدالله، مصطفي الديناري، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٩٣.

٢٧- تاريخ الخلفاء- السيوطى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٨.

٢٨- تاريخ واسط- أسلم بن سهل الرزاز الواسطى، تحقيق: كوركيس عواد- عالم الكتب- بيروت ١٩٨٦.

٢٩- تخطيط وعمارة المدن الإسلامية - د. خالد مُحَمَّد مصطفى عزب- كتاب الأمة- الدوحة ١٩٩٧.

٣٠- تخطيط المدن العربية الإسلامية الجديدة في العصر الراشدى- على مفتاح عبد السلام الحولى، دار زهران للنشر والتوزيع - عمان ٢٠١٠.

٣١- دراسات في العمارة الإسلامية- م. عبد السلام أحمد نظيف- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٩.

٣٢- جغرافية المدن- د. جمال حمدان - عالم الكتب - بيروت ١٩٧٧.

٣٣- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة - جلال الدين السيوطى، تحقيق: مُحَمَّد أبو الفضل ابراهيم - المكتبة العصرية - بيروت ٢٠٠٤.

٣٤- خلاصة تاريخ تونس - حسن حسينى عبد الوهاب، تحقيق:حمادى الساحلى - دار الجنوب للنشر - تونس ٢٠٠١.

٣٥- سلوك المالك في تدبير الممالك - ابن أبي الربيع ، تحقيق د. ناجى التكريتى - دار الأندلس - بيروت ١٩٨١.

٣٦- عمارة الأرض في الإسلام - جميل عبد القادر أكبر - دار القبلة للثقافة الإسلامية - بيروت ١٩٩٢.

٣٧- عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبى - عدنان مُحَمَّد فايز الحارثى - مكتبة زهراء الشرق ١٩٩٩.

٣٨- عناية الإسلام بتخطيط المدن وعمارتها - د. مُحَمَّد السيد الوكيل - دار الأنصار - القاهرة ١٩٨٢.

٣٩- عيون الأخبار - ابن قتيبة الدينورى - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧.

٤٠- فتح العرب لمصر - ألفريد بتلر ، ترجمة مُحَمَّد فريد أبوحديد - مكتبة مدبولى - القاهرة ١٩٩٦.

٤١- فتوح البلدان – البلاذرى – دار ومكتبة الهلال- بيروت ١٩٨٨.

٤٢- لسان العرب – ابن منظور – دار صادر – بيروت ١٩٩٣.

٤٣- مدخل إلى الأثار الإسلامية – د.حسن الباشا – دار النهضة المصرية ١٩٩٠.

٤٤- معجم البلدان – ياقوت الحموى – دار صادر – بيروت ١٩٩٥.

٤٥- مقدمة ابن خلدون – ابن خلدون، تحقيق مصطفي الشيخ مصطفي – المكتبة العصرية – لبنان ٢٠١٣.

٤٦- واسط في العصر العباسى – د. عبد القادر سلمان المعاضيدى – الدار العربية للموسوعات – بيروت ٢٠٠٦.

الفهرس

إهداء ٥
مقدمة ٧
نشأة العمارة ١٣
خصائص العمارة الإسلامية ٢٤
فقه البنيان والتخطيط في العمارة الإسلامية ٢٨
المدن الإسلامية ٥١
المنظور الجيوبوليتيكي لمواقع المدن العربية ٥٦
نشأة المدن الإسلامية ٦٢
تخطيط المدينة الإسلامية ٧٩
السمات العامة لتخطيط المدينة الإسلامية ٨٩
المناخ والعمران في المجتمعات الجديدة ٩٥
علاقة المناخ بالتشكيل المعماري للمدن وتخطيطها ١٠٤
أثر العوامل الاجتماعية في تخطيط وعمارة المدن العربية الإسلامية ١٢٠
كيفية تخطيط الشوارع الإسلامية ١٢٦
أبرز المنشآت والمرافق العامة في المدينة الإسلامية ... ١٣٧
أهم المدن الإسلامية ١٦٢
مدينة البصرة (١٤هـ/ ٦٣٦م) ١٦٢

مدينة الكوفة (١٧هـ/ ٦٣٨م): ١٨١
مدينة الفسطاط (٢٠هـ/ ٦٤١م): ١٨٧
جامع عمرو بن العاص: ٢٠٥
مدينة القيروان(٥٠هـ/ ٦٧٠م): ٢١٣
مدينة واسط (٨٦هـ/ ٧٠٥م): ٢٢٥
مدينة بغداد (١٤٩هـ/ ٧٦٢م): ٢٣٧
مدينة سامراء (٢٢١هـ/ ٨٣٥م): ٢٥٢
مدينة المهدية (٣٠٠هـ/ ٩١٥م): ٢٦٤
مدينة القاهرة (٣٥٨هـ/ ٩٦٩م): ٢٧٨
خاتمة ٣٠٣
مصادر ومراجع ٣٠٧